المكتبة التاريخية

اليقظة القومية الكبرى

يوليو ١٩٥٢

أصولها وأبرز مظاهرها وإنجازاتها

للدكتور

حسن صبحي

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

في جامعة الاسكندرية

١٩٦٥



دار المعارف بمصر

اليقظة القومية الكبرى

يوليو ١٩٥٢

أصولها وأبرز مظاهرها وإنجازاتها

للدكتور
حسن صبحي
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
في جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٦٥



دار المعارف

إلى

نجلاء

و

هشام

وجيل الثورة

فى العالم العربى

هذا البحث

يضم هذا البحث سجلا موجزا لحركات الكفاح المصرى فى سبيـــل الحق والحرية والكرامة ، وحوافز حتمية استمرار هذا الكفاح من قبل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر حتى قيام الثورة الجيدة فى يوليو عام ١٩٥٢ . وهو يقدم ، من ناحية أخرى ، لمحات من مظاهر هذه اليقظة القومية الكبرى التى بدأت بهـا مرحلة التحول العظيم فى تاريخ مصر المعاصر ، وصدى هـذه اليقظة فى العالمين العربى والافريقى. وقد راعينا عند اختيارنا لمراجع البحث ، أن تكون جميعها تقريبا فى متناول القارىء العربى حتى يمكنه، سعيا لزيادة المعرفة ، أن يرجع إليها بسهولة . فموضوعات هذا الكتاب ، كما نرى ، أوسع من أن تضمها هذه الصفحات القلائل .

ولعلنا نكون قد وفقنا فيما هدفنا إليه .

الاسكندرية فى شوال ١٣٨٤ فبراير ١٩٦٥

حسن محمد صبحى

المحتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢

مقدمة

إن دراسة هذه الثورة من الوجهة التاريخية لا تقتصر على مجرد دراسة أحداثها وتقصى أسبابها وعواملها وتتبع نتائجها ، بل هى أبعد مدى من ذلك وأعمق إنها بحث فى آمال شعب وجهاده لتحقيق حلم يراوده منذ فترة طويلة . ودراسه لتطور كفاح هذا الشعب حتى حقق هذا الحلم . وهى أيضاً - إلى جانب ذلك — دراسة لآمال هذا الشعب ، وبحث فى مستقبله ومستقبل الشعب العربى ومستقبل قارة أفريقيا . وعلى ذلك سنبدأ دراستنا لثورة ٢٣ يوليو بالحديث عن آمال الشعب العربى فى تولى أمور نفسه بنفسه دون فرض من الخارج أو وصاية عليــــه .

ونحن هنا لن نذهب بعيداً فى تقصى ذلك الأمل والبحث عن جذوره فى أعماق تاريخنا . لن نبدأ بغزو الفرس لمصر ثم توالى الغزاه والفاتحين عليها من يونان ورومان . ولكننا سنبدأ بحثنا بوقوع مصر فريسة للحكم العثمانى فى أوائل القرن السادس عشر . حينئذ تطلع الشعب المصرى حواليه فوجد كل شىء قد تغير إلى الأسوأ ووجد أن بلاده قد فقدت كل شىء . ولم يبق العثمانيون فى مصر إلا على الدين الإسلامى ، فالعثمانيون كانوا مسلمين قبل كل شىء . ولعل ذلك يفسر سكوت المصريين فترة الحكم العثمانى رغم ما إمتاز به من مظالم وفوضى وتأخر .

وتنهى الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ الحكم العثمانى بالوضع الذى كان

عليه قبل مجيء الحملة . وهنا تبـــدأ صفحة جديدة فى تاريخ مصر الحديث وفى تاريخ الحركة القومية. فتنقل الحملة إلى مصر كما نقلت إلى كل أوروبا أهداف الثورة الفرنسية وشعاراتها. ويتيح الفرنسيون للمصريين فرصة ضئيلة للاشتراك فى الحكم وذلك فى غمار نزاعهم مع المماليك وحاجتهم إلى التعاون مع القوى الشعبية . ولكن المصريين ضنوا على الفرنسيين بأى تعاون وأنكروا عليهم الحق فى بقائهم فى مصر على الإطلاق وناصبوهم العداء منذ وطئت أقدامهم أرض مصر حتى خروجهم منها . وقامت حركات المقاومة الشعبية ضد القوات الفرنسية فى كل مكان وجدت فيه هذه القوات .وأحال المصريون حياة الفرنسيين فى مصر جحيما لا يطاق مما ساعد على زيادة حرج مركز القوات الفرنسية فى مصر وعمل على فشل خطط نابليون وأطماعه فى الشرق وأدى إلى اندحار الفرنسيين فى النهاية ثم انسحابهم .

بعدئذ تقع مصر فريسة لمنازعات بين القوى التى خلفها الحكم التركى فى مصر والتى كانت لا تزال تمثل أثراً من آثار فتح السلطان سليم لمصر . ولكن كان من المستحيل فى هذه المرة أن يقف الشعب بمعزل عن هذا الكفاح بعد تجاربه فى الحكم وكفاحه إبان الحملة الفرنسية . وهكذا ينصب محمد على والياً على مصر بإرادة الشعب ، الذى يشارك أيضا فى تدعيم الحكم الجديد الذى اختاره بنفسه وذلك باشتراكه فى القضاء على حملة فريزر عام ١٨٠٧ .

ولكن هذه اليقظة المصرية لم تلبث أن أصابتها النكسة بسبب تصرفات أسرة محمد على من جهة والتدخل الأوروبى من جهة أخرى . فتدخل أوروبا بوجه عام قضى على الامبراطورية العربية التى أقامها الجنود المصريون والتى ربطت ما بين مصر والسودان وشبه الجزيرة العربيـــة والشام فى دولة موحدة مستمدة كيانها ونظامها من إرادة محمد على وحده . ورجعت مصر ولاية عثمانية يتولى

الحكم فيها أكبر أفراد أسرة محمد على سنا بعد موافقة السلطان العثمانى . وهكذا يتوالى على مصر خلفاؤه بما عرف منهم من بله أوسفه . ويجىء عباس ثم سعيد ثم إسماعيل . وهؤلاء إما يبالغون فى التذلل إلى السلطان العثمانى والتقرب منه [١] أو يمعنون فى تمهيد السبيل لتغلغل النفوذ الأجنبى فى مصر .

وهكذا تظهر الثورة العرابية . وتكون بذلك بمثابة الذروة لرد الفعل الثورى ضد هذه النكسة التى أصابت اليقظة القومية المصرية . ومنذ أن قامت الحركة العرابية وقد وجدت الثورة تغلى فى النفوس . ولم تنطفىء جذوة هذه الثورة قط ، إنما كان ضوؤها يختفى أحيانا عن الأعين الكليلة بحكم الظروف القاهرة وحركات القمع والكبت ولكنه يعود ويظهر بشكل يبهر الأبصار فيهز البلاد ويهز العالم ، وذلك كما حدث فى عامى ١٩١٩ ، ١٩٥٢ أو يظهر بشكل أقل بريقا ولكنه يهز مقاعد الظلم والفساد ، يهز الحكومة والسراى ودار الممثل الإنجليزى ، كما كان يحدث فى مظاهرات الاحتجاج والمظاهرات الوطنية والأزمات السياسية .

وهناك علاقة وثيقة بين ثورتى عام ١٨٨٢ وعام ١٩٥٢ . فثورة ٢٣ يوليو حركة قومية ذات أهداف سبقتها حركات قومية تشاركها بعض هذه الاهداف . وهناك خيط واحد على الأقل ، هناك هدف واحد يربط بين تلك الحركات : الحركة العرابية (١٨٨٢) ، الثورة المصرية (١٩١٩) ، وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ذلك الهدف هو ارجاع حقوق البلاد إلى أهلها من مغتصبيها — سواء كانوا من الأتراك والعائلة المالكة أو الدول الامبريالية وأذناب أولئك أو هؤلاء ممن كانوا يدورون

---

(١) أرسل مثلا عباس وسعيد نجدات مصرية إلى السلطان العثمانى فى حربه ضد الروس (حرب القرم) يربو عددها على الخمسين الف جندى لتحصدهم نيران الروس أو الصقيع أو الأوبئة وذلك فى حرب لاناقة لهم فيها ولا جمل . هذا فضلا عن التبرعات المالية والأسلحة والذخائر . أنظر الجيش المصرى فى الحرب الروسية لعمر طوسون — ص٢٤٦ — ٢٥٠

فى ملكهم ، والحفاظ على كرامة البلاد أو ارجاعها اليها ، تلك الكرامة التى لطختها أسرة محمد على والاحتلال البريطانى للبـــلاد .

وكما قال الرئيس جمال عبد الناصر — حينما كان ملازما بالجيش فى منقباد بالصعيد عام ١٩٣٨ — إلى أن الانجليز هم أصل بلائنا كله ، رغم محاولاتهم بمختلف الطرق على مر السنين لتضليل الشعب وصرف تفكيره عن هذه الحقيقة ، أدركت تلك الحقيقة أيضا الأجيال التى عاشت معركة عرابى وما بعدها . فتلك النكسة التى رزئنا بها منذ القرن الماضى والتى وضعت ثورة عام ١٩٥٢ حدا لها ، وأقصد نكبة الامبريالزم والاستعمار الأوروبى والتى مثلها الاحتلال البريطانى أصدق تمثيل ، هذه النكبة ظلت الخيط الذى يربط الثورات الثلاث والهدف الذى كانت الحركات القومية الحقة ترمى إلى تحطيمه .

ولقد فشلت الثورة العرابية ونكست ثورة ١٩١٩ ونجحت ثورة يوليو ١٩٥٢ ولذلك عوامل . ولكن على أية حال فلا يجب أن ننسى أنه رغم فشل ثورتى عام ١٨٨٢ ، وعام ١٩١٩ ، إلا أن الدعوة التى كانت تدعو اليها هاتان الثورتان لم تمت بل ظلت قائمة فى ضمير الشعب ، يحس بها كل مصرى كما يحس بها كل عربى واع رغم صنوف الكبت والضغط التى تعرض لها هذا أو ذاك . واستمرت الدعوة حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو وعلى رأس أهدافها نفس أهداف الثورتين السابقتين . من ناحية أخرى نجد أنه — فى ثورة ٢٣ يوليو — قد استفاد بلا شك القائمون بأمرها فى اعدادها وتنفيذها ، ثم المحافظة عليها بعـــد نجاحها ، استفادوا فى كل ذلك بتجارب الماضى وأخطائه . فالأسباب التى أدت إلى فشل ثورة عام ١٩١٩ مثلا . هى نفس الأسباب التى حركت حوافز الثورة عام ١٩٥٢ .

وعلى ذلك فلابد — عند دراسة ثورة ٢٣ يوليو — من الالمام بحركات المقاومة الشعبية ضد الغاصب الدخيـل منـذ جاء الفرنسيون إلى مصر فى أواخر

القرن الثامن عشر . هذا جزء من تاريخ كفاحنا فى سبيل الحصول على حقوقنا وحفظ ذاتنا وكياننا يكمله كفاحنا إبان الحركة العرابية وبعد الاحتلال الانجليزى لمصر بقصد تخليص البلاد من النفوذ الأجنبى ومن قوات الاحتلال . هـذا الكفاح وتلك المقاومة إنما هى جذور لحركات نضالنا القومى فيما بعد وأصول لهذه الصحوة القومية الكبرى وتلك الطفرة الوطنية العظمى التى بلغت ذروتها فى مصر بقيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ .

وعلينا كذلك أن نلم بالتزامات الثورة وواجباتها إزاء الشعب الذى فوض لها ـ أكثر من مرة وبأكثر من صورة ـ مهمة قيادته وتدبير أموره فى تلك المرحلة الحاسمة من تاريخنا المجيد ولنرى أيضا إلى أى حد قامت الثورة فعلا بهذه الواجبات وتلك الالتزامات . وقد أجمل الرئيس جمال عبدالناصر هذه الالتزامات حينما تحدث عن الدافع الأول للثورة « هو توسيع المجـال الحيوى أمام تزايد السكان فى السنوات الأخيرة زيادة تعد بالملايين ، مع إصابة عجلة الانتاج بالتوقف أو الشلل بما هدد البلاد بأخطار جسيمة » . كذلك تظهر هذه الالتزامات أكثر تحديداً حينما يتحدث الرئيس عن روح الثورة ويقول أنها إنما تتمثل فى خلق وعى مصرى جديد يؤمن بالاشتراكية ويؤمن بالديموقراطية لتسود العدالة الاجتماعية وتقوم عمد الوطن على أساس سليم ، فلا حرب تنشب بين الطبقات ولا تثرى جماعة على حساب الآخرين ولا تتحكم أقلية فى أكثرية [1] . وأخيراً فلابد من الحديث عن التزامات مصر وواجباتها إزاء العالم العربى من ناحيـة ، والقارة الأفريقية من ناحية أخرى . وهى التزامات وواجبات تفرضها على مصر

---

١ ـ « روح الثورة » كما يعرفها السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى تقديمه لكتاب محمد عطا « مصر بين ثورتين » ـ ص ٦ .

صلاتها القومية والتاريخية والاقتصادية والجغرافية بالعالم العربى بأفريقيـــا .

فالثورة إذن إذا كانت بمعناها الضيق تعبيراً عن الاحساس بالظلم ، أو السخط على أوضاع فاسدة للحكم أو تبرما بوجه عام بنظام حكم والرغبة فى تغييره ، فإنها بالنسبة ليوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ تعنى أكثر من ذلك . فهى التاريخ المعاصر لمصر كما أنها تصنع معالما لتاريخ مصر والشرق العربى والقـارة الأفريقية لأجيال قادمـــة .

جذور الحركة القومية فى تاريخنا الحديث

الانحطاط فى العصر التركى (١٥١٧ - ١٨٩٨) :

لاشك أن فتح الاتراك لمصر كان نكبة بالنسبة لمصر والشعب المصرى. فالغزو التركى لم يقف بالبلاد حائلا دونها والتقدم الذى كانت تسير فيه أوروبا بخطى حثيثه بل دفع بها أيضا إلى الوراء خطوات كبيرة . وإذا قارنا بين حالة البلاد قبل مجىء الاتراك العثمانيين إلى مصر ، فى عهد صلاح الدين مثلا ومن أتى بعده من سلاطين المماليك ،وحالتها بعد مجىء العثمانيين لبدا الفرق واضحا ، ففى ذلك الوقت كانت مصر مستقلة ذات حكومة ثابتة الى حد ما ، استطاعت نشر الأمن والعدل كما استطاعت الحفاظ على التراث العربى والاسلامى ازاء هجمات المغول والتتار . كذلك استطاعت مصر فى عهودها قبل الغزو التركى أن تحتفظ بمكانتها التى كانت لها فى ميادين العلوم والفنون والآداب . وظهرت بمصر حينئذ طائفة من نوابغ الشعراء والأدباء والعلماء .

وبمجىء الأتراك العثمانيين إلى مصر أصبحت البلاد مسرحا للإنحطاط والفوضى فى كافة النواحى والمرافق . فالتنازع بين السلطات الثلاث التى كونها العثمانيون كأساس فى حكمهم لمصر (الوالى العثمانى ـ قواد الحامية التركية ـ المماليك) حال دون قيام حكومة ثابتة قوية ترعى شئون البلاد . وعلى ذلك تعطلت الزراعة واضمحلت لاهمال شئون الرى . وانقلت كواهل الفلاحين بالضرائب والاتاوات واضمحلت الصناعات والفنون التى كانت معروفة فى مصر قبل الفتح العثمانى . واختل الأمن واسرفت القوات التركية فى السلب والنهب ولجأ الولاه البكوات المماليك إلى مصادرة ما يحلو لهم من أموال التجار فأنحطت الحالة الاقتصادية وركدت الحركة التجارية بالتالى . كذلك انحطت الحركة العلمية والأدبية فى مصر وصارت مخاطبات الولاه والسلاطين تكتب باللغة التركية بعد أن كانت اللغة العربية هى

لغة الحكومة حتى مجىء الأتراك إلى مصر (١) . وبلغ الانحطاط مداه حتى وصل الفساد إلى القضاء الذى كانت تمنح مناصبة إلى طالبيها مقابل دفع إتاوة من المال لحكومة القسطنطينية . وامتد هذا الإهمال لشئون البلاد إلى النواحى الصحية حتى صارت الاوبئه تفتك الآلاف من الأرواح حتى بلغ عدد سكان مصر فى أواخر القرن الثامن عشر حوالى الثلاثة ملايين . وكانت مثل هذه النكبات أحيانا مثارا لاغتباط الوالى الذى كان يزيد دخله باستيلائه على تركات الموتى بلا وراث . وصارت علاقة الوالى بالشعب مقصورة على جمعه الأموال ، دون الاهتمام بوسائل جمعها ، ليقتطع منها جانبا لنفسه يعوض به مادفعه فى القسطنطينية لقاء حصوله على وظيفته ويرسل بالباقى إلى السلطان العثمانى .

وتطلع المصريون حواليهم بعد الفتح التركى فوجدوا أن كل شىء قد تغير . رأوا بلادهم تسير القهقرى بسرعة وشاهدوا حقوقهم تسلب وأموالهم وثمرات كدهم تتسرب إلى جيوب الحكام وإلى خارج البلاد . ولا شك أنه قد تولدت حينئذ آمال تطمح إلى التغيير وتهدف إلى التحسين . ورغم قسوة الظروف التى عاشها الشعب المصرى إبان الحكم التركى، فقد واجه هذا الحكم روحا من المقاومة ولكن خفف من غلوائها أن الأتراك كانوا ـ كالمصريين ـ مسلمين . ومع ذلك فقد أظهر المصريون نوعا من المقاومة للحكم التركى بدت مثلا فى عزوف العلماء المصريين عن تولى مناصب القضاء ورفضهم إياها وذلك بعد هذا الفساد والانحطاط الذى وصل اليه القضاء فى مصر فى العصر التركى . ومن المعروف أن طبقة العلماء ورجال الدين كان لهم تأثير كبير فى نفوس الشعب وفى قيادة أفكاره ، كما كانت لهم الزعامة الأدبية والسياسية فى البلاد .وقد لعب أمثال هؤلاء العلماء دورا هاما فى

---

(١) الرافعى ــ تاريخ الحركة القومية ــ ١٩٤٨ ــ جـ ١ ــ ص ٤٠

مجريات الأحداث فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر كما سوف نرى .

وتلاشى سلطة العثمانين وظهور السلطة الثالثة ، سلطة المماليك ، إنما هو بوادر نصر للروح القومى فى مصر . فهؤلاء المماليك ، ولو أنهم أتوا فى الاصل أو استجلبوا من خارج مصر ، إلا أنهم بمرور الزمن قد تمصروا وصاروا همزة الوصل بين الشعب والوالى التركى . ونجد أن الجبرتى ـ وهو مؤرخ مصرى عاش فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ـ يلقبهم بالامراء المصريين. وقد استغل المماليك فرصة النزاع بين القوتين الآخريتين وضعف الدولة العثمانية بمجىء القرن الثامن عشر فعملوا على تنظيم أنفسهم وزيادة قوتهم .كذلك استمال المماليك جانبا من أفراد الحامية التركية فى مصر ، وكان كثير من هؤلاء قد استقروا فى مصر واندمجوا فى أهلها ، وارتبطوا بهم بأواصر المصاهرة .وهكذا استطاع المماليك جمع السلطة العسكرية فى أيديهم الى جانب السلطة المدنية والمالية التى كانت فى أيديهم من بادىء الامر .

وصار بذلك نفوذ المماليك فعليا بينما أصبح نفوذ السلطان العثمانى فى مصر اسميا.وانتهز زعيمهم (على بك الكبير) فرصة الحرب الروسية التركية (١٧٦٨) ليمتنع عن دفع الخراج ويعلن الاستقلال بمصر فى العام التالى . ولكن هذا الاستقلال لم يدم أمده إذ سرعان ما انقلب اتباع على بك من المماليك عليه وعادت مصر الى ما كانت عليه وبفشل على بك قضى على أول محاولة فى تاريخ مصر الحديث للتحرر من سلطان الدولة العثمانيـــة . وإذا كان معاصرو هذه الاحداث يرون أن المسئول الأول عن هذا الاخفـاق هم الروس الذين أهملوا

عرض على بك للتحالف معهم نظير مساعدتهم له (١) ، فانه لا يمكننا غض النظر عن هذه الحقيقة وهى ان إغفال على بك لأهمية القوى الشعبية المصرية كان من العوامل التى أسرعت بهذه النهاية بينما فطن كل من نابليون بونابرت ومحمد على فيما بعد لهذه القوة وحاول كل منهما استغلالها لصالحه . وفشل نابليون بينما نجح محمد على فى ذلك . وكان الشعب هو الذى قرر ذلك الفشل أو ذاك النجاح .

الجذور الفرنسية :

لم تكن الحملة الفرنسية مرتبطة بكفاح فرنسا الثورى ضد انجلترا ـ كما كانت تزعم حكومة الإدارة فى فرنسا ـ قدر ارتباطها بتحقيق أهداف استعمارية واسع المدى لفرنسا. وكان التفكير فى الانتقام من انجلترا يسير جنبا الى جنب مع التفكير فى احياء مجد الامبراطورية . ولم يكن القضاء على قوة انجلترا وارغامها على قبول الصلح مع فرنسا واحراز التفوق السياسى فى أوروبا إلا وسيلة لتحقيق اطماع فرنسا الاستعمارية.ولم تكن فكرة استعمار فرنسا لمصر وليدة عصر نابليون فقط فقد سبق أن تملكت هذه الفكرة مشاعر لويس التاسع الذى قام بحملة صليبية ونزل الى دمياط بالفعل عام ١٢٤٩ . وتجددت الفكرة فى عهد لويس الرابع عشر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر، إذكان وزيره كولبير يحلم بامتلاك مصر كما أن الفيلسوف الالمانى ليبنتز اقترح تقسيم أملاك الدولة العثمانية ومنح مصر لفرنسا كوسيلة لاقرار السلام فى أوروبا !!.ووجدت هذه الفكرة أيضا طريقها بعدئذ الى أذهان الساسة فى عهد لويس الخامس عشر والسادس عشر فى

(١) هكذا رأى كل من كل من الرحالة Bruce، Savary .
انظر : دكتور محمد فؤاد شكرى ـ عبد الله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر ص٣٥
وكذلك : اميل خورى وعادل اسماعيل :السياسة الدولية فى الشرق العربى (١٧٨٩ـ١٩٥٨) جـ ١ ـ ص ٣١ .

القرن ١٨ . ولما ظهر نابليون بونابرت نادى بأهمية امتلاك فرنسا لمصر وأيده فى ذلك تاليران ، وزير خارجية حكومة الإدارة .

وجاء نابليون الى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وهو يهدف الى امتلاكها وجعلها مستعمرة فرنسية من أجمل مستعمرات العالم تعوض فرنسا عما فقدته فى أمريكا وجزر الهند الغربية وتهيء لها السبيل للاستحواذ على تجارة الهند . كان نابليون يعلم أن مصر من أخصب بلادالعالم فبيت النية على جعلها مزرعة لفرنسا ، وجاءت الحملة الفرنسية وهى تهدف الى ربط مصر بفرنسا الى الأبد . واستصحبت معها حملة أخرى من نوابغ الفرنسيين فى مختلف العلوم والفنون تبلغ ١٤٦ عضوا . كذلك كان نابليون يهدف الى جعل مصر مستودعا لمتاجر العالم . فمصر ذات موقع جغرافى فريد . فهى تقع فى ملتقى القارات الثلاث وفى طريق التجارة بين الشرق والغرب . واستيلاء نابليون على مصر إنما هو مهاجمة لانجلترا نفسها . فن مصر يستطيع الزحف شرقا الى الهند أو شمالا عن طريق القسطنطينية ونهر الدانوب إلى قلب أوروبا وإرغام حلفاء الانجليز على الانفضاض من حولهم . كذلك كان نابليون يهدف من احتلال مصر إلى احياء طريق السويس البرى مما ينتج عنه انقلاب فى تجارة أوربا والحاق اضرار جسيمة بانجلترا التى كانت قد استولت على مستعمرة الكاب الهولندية فى جنوب افريقيا وأبدت تصميما على الاحتفاظ بها . وانجلترا كانت تعتمد فى تفوقها السياسى فى أوروبا على تجارة الهند الى حد كبير وهى تجارة سوف تفقدها عند إحياء طريق السويس البرى لان الأنجليز سوف يعجزون بلا شك عن مقاومة هذا النشاط التجارى الجديد بزعامة فرنسا . ومع ذلك فحكومة الإدارة تبرر هذه الحملة بحجة واهية . فهى تتهم البكوات المماليك القائمين بالامر فى مصر باضطهاد الفرنسيين وارهاقهم بالمطالب المالية وفرض المغارم عليهم ومصادرة أموالهم ومتاجرهم ونهبها والإعتداء على أرواحهم كذلك

اتهمتهم فرنسا بالإتصال بأعدائها مما دعاها الى الاقتصاص من أعداء الجمهورية . وهذه كما نرى حجج ضعيفة لجأت فرنسا أيضا الى مثيلات لها فيما بعد عند غزوها للجزائر (١٨٣٠) وتونس (١٨٨١) [1].

وكانت فرنسا تعتقد أن فتح مصر « لا يكلف فرنسا نقطة دم واحدة » ، وذلك كما أبان تاليران فى تقريره [2] لأسباب أهمها عداء المصريين الظاهر لبكوات المماليك . فالفرنسيون اذن لم يعملوا حسابا لأى مقاومة لهم من جانب المصريين بل توقعوا انضمامهم اليهم فى حربهم ضد المماليك . كذلك توقع الفرنسيون سهولة حكم المصريين . ورأوا أن يقود الحملة رجال من أبرز صفاتهم الحكمة وأصالة الرأى وأن يهتموا باظهار احترامهم لتقاليد المصريين وعاداتهم وشعائرهم الدينية وأن يبجلوا علماءهم وشيوخهم ويعملوا على احترام أهل الرأى منهم ، فهؤلاء العلماء كانوا أصحاب سيطرة كبيرة على الشعب .

صور من المقاومة الشعبية ابان الحملة الفرنسية :

كان الفرنسيون واهمين تماما فى تصورهم لكيفية استقبال الشعب المصرى لهم وترحيبه بهم . فالمصريون والفرنسيون كانوا أضدادا فى كثير من النواحى . فهما يمثلان حضارتين مختلفتين تماما ومجتمعين مختلفين وتفكيرين وعقيدتين مختلفتين ... الخ . ورغم الانحطاط الذى كانت عليه مصر حينئذ ، فقد كان للمصريين تراث من التقاليد والعادات يغارون عليه ويحافظون على بقائه . الى

---

(١) انظر: دكتور صلاح العقاد : المغرب العربى ـ (القاهرة ١٩٦٢) ص ٨٥-١٠٣ ، ١٩٥ - ٢٠٠ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - نفس المرجع - ص - ٧٢ .

جانب ذلك كان المصريون لايزالون يفكرون بعقلية مسلمي القرون الوسطى -هذا التفكير الذى ربما جعلهم يستسلمون للحكم التركي الإسلامى. فكانت الحملة الفرنسية فى أنظارهم تمثل عدوانا مسيحيا صارخا على تراثهم العربى الاسلامى وعلى الوطن الإسلامى. وعلى ذلك فقد ناصب المصريون أولئك «الكلاب الكفرة» كما كانوا يدعونهم - العداء منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر. وهنا تظهر بذور وعى سياسى أيضا إلى جانب الوعى القومى. فالحملة الفرنسية جاءت أيضا لتوقظ مصر والشرق من طول سبات. فأثارت الحملة نضالا قوميا فى مصر بصورة لم تشهدها البلاد منذ أيام صلاح الدين أو نحو ذلك. وتحالف الشعب مع المماليك يجمعهم الشعور المشترك وربما المصلحة المشتركة أيضا. كذلك تحالف الشعب مع الأتراك تجمعهم نفس العوامل ويفر زعماؤه ويحتمون بالاتراك ويتطلع الشعب إليهم للخلاص من الفرنسيين مستعينا بهم. ويشجعهم هذا الخاطر ويحفزهم إلى إزدياد مقاومتهم للفرنسيين.

وكفاح الشعب المصرى ضد الحملة الفرنسية اتخذ صورا شتى. فقد اشترك المصريون مع المماليك جنبا الى جنب فى المعارك الحربية التى كان نابليون يبالغ فى أهميتها فى تقاريره الى حكومته، وقاموا بالثورات ضد الحكم الفرنسى ونظموا حرب العصابات فى كل مكان وجد فيه الفرنسيون، وقطعوا طرق مواصلاتهم فى البر وفى النيل. كذلك رفض الاهالى التعاون مع الفرنسيين على أية صورة وقاطعوا احتفالاتهم وأعيادهم ومنعوا عنهم الماء والزاد كلما استطاعوا وأخفوا ماشيتهم وجمالهم .. الخ.

من الاسكندرية للقاهرة :

علم أهل الاسكندرية بخبر استعداد الفرنسيين لغزو مصر واستيلائهم على جزيرة مالطة. فغضبوا لذلك النبأ غضبا شديدا حتى كادوا أن يفتكوا بالقنصل

الفرنسى بالاسكندرية . وأخذوا يستعدون للمقاومة ويحصنون القلاع رغم أن هذه القلاع لم تكن لها قيمة حربية وقتئذ ولم تكن ذا خطر ولم يكن يوجد بها من الجنود سوى الاهالى الذين انتظموا فى سلك الفرق العسكرية .

ونزل نابليون بجنوده الى الشاطىء غربى الاسكندرية فى الصباح المبكر (٢ يوليو ١٧٩٨) وزحف شرقا حتى وصل الى أسوار المدينة . وأخذ يحاصر الاسكندرية وقد اتخذ من قاعدة عامود السوارى مركزاً لقيادته يدير منه أولى معاركه فى مصر . ودارت معركة قصيرة الأمد غير متكافئة بين الجيش الفرنسى وهو أحدث ما يكون نظاما وتدريبا وتسلحا ، وأهالى الاسكندرية الذين تحملوا وحدهم عبء الدفاع عن مدينتهم . حدثت فى بادىء الأمر مناوشات خارج أسوار المدينة ارتد المصريون على إثرها . وبقى الأهالى محتشدين على أسوار المدينة وفى أبراجها ، رجالا ونساء كبارا وصغارا وقد تسلحوا بالبنادق والرماح . ولم يدم دفاع الاهالى طويلا وسرعان ما اقتحم الفرنسيون الاسوار ودخلوا المدينة حيث دار القتال فى الشوارع . وفى تلك العمليات كاد نابليون نفسه أن يقتل . أما محمد كريم ، حاكم الاسكندرية ، فقد ظل يدافع عن المدينة بعد دخول الفرنسيين واعتصم بطابية قايتباى . وخشى نابليون أن تؤدى هذه المذابح الى عرقلة أهداف الحملة أو فشلها . لذلك يأمر جنوده بالكف عن مهاجمة الاهالى ويعمل على اقناع أهل الاسكندرية بالكف عن المقاومة . وكف الأهالى وكف محمد كريم عن القتال بعد ما تبينوا أنه لا فائدة ترجى من المقاومة وبذلك سلمت المدينة بعد أن دافعت عن نفسها دفاع المستميت بطريقة أثارت إعجاب الفرنسيين وأوجبت احترامهم للمدافعين .

وبهذه الكيفية وعلى غير ما كان الفرنسيون يتوقعون استقبل المصريون نابليون وجنوده . وأقنعته هذه المقاومة بأن المصريين قوة يعمل لها حساب ولا

ينبغى اهمالها . وهو لذلك يهتم اهتماما زائدا باستمالتهم الى جانبـه . ويعفو عن محمد كريم ويعينه محافظا للمدينة . ويدعو مشايخ المدينة وأعيانها لمقابلته ويعمل على اجتذابهم اليه بالكلام الطيب والوعود . وتعقد اتفاقية بين الطرفين (٤ يوليو) تتمتع الاسكندرية بمقتضاها بنوع من الحكم المحلى ويعد الفرنسيون بعدم التدخل فى شئون أهالى المدينة وذلك مقابل عدم تعرض الأهالى للجيش الفرنسى بالأذى أو الخيانة . وقد فرضت هذه الاتفاقية من جانب واحـد كما نرى فلا عجب اذا رأينا محمد كريم وأهالى الاسكندرية ينظمون مع ذلك المقاومة السرية بمختلف الطرق ضد الفرنسيين الذين لم يلبثوا أن القوا القبض عليه وحكموا عليه بالاعدام ونفذ الحكم (٦ سبتمبر ١٧٩٨) . وقد بقى محمد كريم حتى اعدامه موضع احترام الفرنسيين واعجابهم لشجاعته واخلاصه لبلاده وقوة ارادته .

وفى الطريق الى القاهرة كان الاهالى يتعقبون الجيش الفرنسى ويلحقون به الخسائر . وعلى طول الطريق الى القاهرة لم يكن الجيش الفرنسى يلقى إلا قرى مهجوره أخلاها اهلها قبل وصوله . فالفرنسيون كانوا ينهبون القرى ويستولون على المواشى . ورغم أوامر نابليون المشددة تكررت حوادث الاعتداء على القرى والاهالى . كان الجنود الفرنسيون قد صدموا بخيبة أملهم فى المغامرة المصرية حيث الصحراء والقيظ والعطش والإجهاد . كذلك وجـد الفرنسيون أنفسهم محاطين بالاعداء من كل جانب . وهم يقابلون كل ذلك بعد مغامرتهم مع قائدهم فى إيطاليا حيث الجمال والرفاهية والترحيب أحيانا .

وتحدث معركة شبراخيت والجيش فى طريقه إلى العاصمة (١٣ فبراير ١٧٩٨) . وفيها يشترك الاهالى إلى جانب قوات مراد بك من المماليك فى قتال الفرنسيين وتدمير قطع من أسطولهم فى النيل . ويفهم من إحصائيات بعض ضباط الحملة

الفرنسية أن أعداد الاهالى وأتباع المماليك الذين اشتركوا فى المعركة كانت تفوق كثيرا عدد المماليك أنفسهم الذين كانت تتراوح اعدادهم بين الثلاثة والأربعة آلاف فارس . وانتهت المعركة بهزيمة المماليك والمصريين الذين هبوا يصدون جيش نابليون بنظامه ومدفعيته مسلحين بالبنادق والعصى !!.

وفى القاهرة ، وبعد هزيمة جيش مراد بك فى شبرا خيت ، بدأ أهل المدينة فى الإستعداد للدفاع عنها ضد الفرنسيين . وفى نفس الوقت كان المماليك ـ وقد ادركوا خطورة الموقف ـ يستعدون لصيانة أموالهم وإخفائها . وأغلقت متاجر القاهرة وأسواقها وخرج كل قادر على حمل السلاح إلى بولاق لاعداد المتاريس وتنظيم الدفاع . ولم يضن أحد فى ذلك بمال أو جهد . وتحدث معركة إمبابة أو الأهرام كما يسميها الفرنسيون (٢١ يوليو ١٧٩٨) ، وفيها تنهزم قوة الفرسان المماليك، وكانوا يعدون أنفسهم أحسن مقاتلى العالم . وفى هذه المعركة أيضا يظهر مدى ضعف الشرق وتأخره ومدى قوة الغرب وتقدمه . وعلى أى حال فقد قام المصريون بدور فعال فى المعركة . فكان عدد متطوعى القاهرة يزيد على عدد المماليك الذى كان يقرب من الستة آلاف مقاتل . والمصريون ـ بشهادة الفرنسيين ـ قد دافعوا عن إمبابة دفاع الأبطال ورفضوا التسليم فماتوا قتلا وغرقا [١] . وبعد المعركة فر زعيما المماليك . واستقر مراد بك فى الصعيد بينما لجأ ابراهيم ومعه مماليكه إلى سوريا وقد حملوا معهم أموالهم وما خف حمله من متاعهم . وبذلك ترك أهل القاهرة ليواجهوا القوات الفرنسية وحدهم .

المقاومة فى القاهرة :

بمجرد أن دخل نابليون القاهرة (٢٤ يوليو) عمل على التقرب إلى الشعب

---

(١) الرافعى ـ تاريخ الحركة القومية ـ ج ١ ص ١٨٥ /١٨٤

واستمالته اليه . فشرع فى تأسيس « الديوان » من المصريين وأمر « باسناد حكومة القاهرة » إلى ذلك الديوان . وقال أنه يهدف من ذلك « تعويد الأعيان المصريين على نظم المجالس الشوريه والحكم . ولكن الواقع أن نابليون أراد أن يحوز ثقة المصريين وأن يستعين بهم فى نفس الوقت فى تنفيذ مشروعاته الضخمة . وبذلك حسب نابليون أنه يأمن مقاومة المصريين له ويستطيع العمل بهدوء ذلك يفسر أيضا محاولة نابليون الاتفاق مع مراد بك على حكم الصعيد على أن يكون تابعا لفرنسا ، رغم أنه كان قد أعلن انه انما جاء لتخليص البلاد من ظلم المماليك .

كذلك كان نابليون يهدف إلى التعرف على وجهة نظر أعضاء الديوان من بعض الأمور التى تهم الحكم الفرنسى كنظام الضرائب مثلا وبذلك يعاونه الديوان فى حكم مصر. فلم تكن لذلك الديوان سلطة البت فى الأمور بل كانت وظيفته استشارية بحته . وكان يعمل تحت إشراف الفرنسيين وإرشاداتهم . أما قراراته فكانت أشبه برغبات تعرض على الفرنسيين الذين كانت لهم الكلمة الأخيرة . ويعمم نابليون نظام الديوان فى كل مديرية للسهر على مصالح المديريه كما كان يقول ومراقبة « الاشخاص ذوى السيرة السيئة » ومعاقبتهم والاستعانة فى ذلك بالقوات الفرنسية .

وفى ذلك « الديوان » نلمس عنصر المقاومة أيضا . فالمصريون لم يرضوا قط بالحكم الفرنسى رغم ما كان يبدو من تعاونهم معهم ـ بحكم الأمر الواقع ـ خلال هذه الدواوين . نرى عنصر المقاومة فى رفض بعض العلماء الإشتراك فى ديوان القاهرة مثل عمر مكرم نقيب الإشراف ، والسادات وكان من كبار العلماء . وقد رفض الاثنان أن يكونا العوبه فى يد الحكم الفرنسى . وحتى هؤلاء الذين اشتركوا فى الديوان كانوا يظهرون التعاون مع الفرنسيين فى شئون الحكم وكلهم

أمل في خدمة إخوانهم في الوطن . ولكنهم لم يلبثوا أن تنبهوا إلى أهداف نابليون ورفضوا أن يسيروا طويلا في الشوط الذي رسم لهم . فهم يرفضون وضع شارة الثورة الفرنسية المثلثة الألوان على ملابسهم . ويرمي الشيخ الشرقاوي ـ رئيس الديوان ـ بتلك الشارة إلى الأرض غاضبا بعد أن وضعها نابليون على كتفه تكريما له ويستقيل من الديوان . وعبثا حاول نابليون أن يجتذب اليه قلوب المصريين بتودده إلى الزعماء وإنشائه الديوان أو إحياء الحفلات في مناسبات المولد النبوى الشريف ووفاء النيل أو عيد الجمهورية الفرنسية . فقد قاطع المصريون هذه الحفلات جميعها احتجاجا على الحكم الفرنسى واستنكارا له . والديوان على أية حال كان أول تجربة في تاريخ مصر الحديث أتاحت للمصريين فرصة الإشتراك في الحكم . وهى تجربة أشعرتهم بكيانهم وزادتهم ثقة في نفوسهم .

وسخط الشعب المصرى على الحكم الفرنسى ونزعته إلى التحرر من قيد الإحتلال يترجم بوضوح في ثورات القاهرة والأقاليم . فقامت ثورة القاهرة الأولى (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) بعد أن بلغت نقمة الشعب على الفرنسيين مداها وصارت الدعوة إلى الثورة تتردد على ألسنة الأهالى وتختلط بآذان المؤذنين بالمساجد . وكانت للثورة لجنة تديرها وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها . ويقول نابليون عن هذه اللجنة أن الشعب قد انتخب ديوانا للثورة ونظم المتطوعين للقتال وأعد الأسلحة . وكان الأزهر مقرا لهذه اللجنة . ولم يقتصر أمر هذه الثورة على عامة الشعب بل أسهم ذوو اليسار بنصيب فيها أيضا بأن وافقوا عليها وأمدوها بالمساعدات .

واستعد الفرنسيون لقصف القاهرة وحى الأزهر بالمدافع التى نصبوها على القلعه وربى المقطم . وأظهر الاهالى بطولات فذة في محاولات يائسه لاسكات بعض هذه المدافع وهكذا بدأت المذبحة التى أعدها الجيش الفرنسى لسكان القاهرة . وأخذت القنابل تنهال على الأهالى من الظهر حتى الليل بشدة وقسوة وتنشر الدمار

والخراب فى المدينة . وراح فى هذه المذبحة عدد من الضحايا يقدرهم أحد المؤرخين الفرنسيين بأربعة آلاف من المصريين. وهذه الدماء التى سالت فى الثورة ، بالاضافة إلى انتهاك الفرنسيين لحرمة الجامع الازهر وضربه بقنابلهم ودخولهم بخيولهم إلى صحنه ، ثم فظائع الإجراءات الانتقامية عقب الثورة كاعدام المتهمين سرا فى القلعة دون محاكمة ومنهم العلماء والنساء ، كل ذلك زاد الشقة بين المصريين والفرنسيين بعدا على بعد وقضى على آمال نابليون فى اكتساب محبة الشعب المصرى توطئة لتكوين امبراطورية شرقية كبرى . وبات الفرنسيون يتوقعون وثبة أخرى من الشعب المصرى حينما تتاح له الفرصة لذلك . وانصرفوا إلى تحصين المدينة ضد ثورة أخرى مفاجئة . وأخذوا يزيدون من قلاع القاهرة كلما اشتد قلقهم حتى بلغ عددها ١٩ قلعة . وقد اثارت هذه الاحداث المسلمين فى كل مكان . ويدفع كليبر – خليفة نابليون فى مصر – حياته ثمنا لانتهاك جنوده مقدسات المسلمين، على يد الطالب الازهرى السورى سليمان الحلبى (يونيو ١٨٠٠) .

المقاومة فى الاقاليم :

ثارت المصاعب فى وجه الفرنسيين باستمرار . وكلما أخمدت الثورة فى مكان قامت فى مكان آخر . كان الفرنسيون يظنون أن الشعب سوف يقبلهم كمحررين له من طغيان المماليك . ولكن الشعب كان يلتف حول كل من يتزعمهم لقتال الفرنسيين ولو كان من كبار الإقطاعيين . ولذا فقد قامت سياسة الفرنسيين – بحكم الامر الواقع – على القوة أكثر من الإقناع . ولذلك أيضا لجأ نابليون إلى توزيع الجيش فى انحاء القطر لاخضاع مناطقه ومراقبة الأهالى . وكان القواد الفرنسيون يشرفون على الأعمال الإداريه والمالية وجباية الأموال فى المناطق التى يحتلونها.

وقوبلت القوات الفرنسية بمقاومة من الاهالى اتخذت صورا شتى فى كل مكان وجدت به وطيلة مدة بقائها بالأراضى المصرية تقريبا . ففى الإسكندرية والبحيرة

نظمت حركة العصيان والمقاومة رغم اتفاق نابليون مع أعيان الاسكندرية ومنع الأهالى الماء عن الفرنسيين وقطعوا طرق مواصلاتهم وصاروا يهاجمونهم حول أسوار الاسكندرية من حين إلى آخر . ورغم احتلال الفرنسيين لمدينة دمنهور (نوفمبر ١٧٩٨) واعدامهم زعماء المقاومة هناك وانتقامهم من الأهالى فقد استمرت حركة المقاومة التى تزعمها سليم كاشف وابراهيم الشوربجى اللذان لجآ وقواتها إلى الصحراء وراحوا يناوؤن القوات الفرنسية من وقت لآخر. وفى رشيد لم تكن سلطة الفرنسيين تتجاوز ضواحيها . ولم يخلد السكان إلى الطاعة التامة بل ظلوا يسببون الازعاج للجنرال مينو. وتكررت حوادث الاعتداء على قوافل الفرنسيين مما اضطر مينو إلى اعدام بعض مشايخ البلاد فى ادكو وإدفينا .

وتثور مدينه طنطا (اكتوبر ١٧٩٨) وتمتنع عن دفع أى ضريبة للفرنسيين.. ورغم حرص الفرنسيين على اظهار احترامهم لمدينة طنطا باعتبارها مدينة مقدسة عند المسلمين فقد ارسلوا قواتهم لاخضاع الأهالى وإرسال الرهائن إلى القاهرة .. ويشترك الأهالى فى الشرقية فى مقاومة قوات نابليون التى كانت تتعقب ابراهيم بك وقواته . واستطاعت جموع العرب والفلاحين المسلمين بالعصى والبنادق أن تثير الذعر بين صفوف الفرنسيين. وبعد احتلال الفرنسيين لهذه الجهات رفض الاهالى التعامل مع الفرنسيين وظلوا يناوشونهم ويهددون خطوط مواصلاتهم مع القاهرة . وهجوم الاهالى على حامية بلبيس دعا الفرنسيين إلى التنكيل بمشايخ البلاد هناك وقتلهم وأخذ الرهائن .

وكانت تحدث اصطدامات بين الاهالى والقوات الفرنسية وتكون أشبه بالمواقع الحربية. فتحدث موقعة (غمرين) وهى قرية شمال منوف حيث يستشهد أكثر من أربعمائة بينهم عدد من النساء (١٣ اغسطس ١٧٩٨) . هناك أيضا مواقع بلبيس والجمالية والفيوم وسوهاج وطهطا وسمهود . . . الخ.

وكانت هناك شخصيات أقضت مضاجع الفرنسيين الذين بذلوا الجهود للايقاع بهم . ومن هؤلاء أبو شعير وكان عدواً لدوداً للفرنسيين . وكان زعيما يملك عدة قرى وتحت أمرته رجال مسلحون . وقد اتخذ أبو شعير قصراً أشبه بالقلعة فى قرية عشما (مركز شبين الكوم) . وأخذه الفرنسيون على غره (أكتوبر ١٧٩٨) وقتل خلال المعركة . وهناك من سمى نفسه بالمهدى فى منطقة البحيرة . وهو عربى من درنه دعا الناس إلى الجهاد وقتال الفرنسيين . فالتف الأهالى حوله ودخل دمنهور فى أبريل (١٧٩٩) أثناء غياب نابليون مع نصف جيشه فى الشام . وزاد أنصار المهدى حتى بلغت قواته حوالى التسعة عشر ألفا . ودارت بينهم وبين الفرنسيين معركة انتهت بانتصار المهدى رغم فقده حوالى الألفى قتيل . ولكنه لم يلبث أن هزم فى النهاية أمام العلم والنظام والقيادة والكفاية . ودخل الفرنسيون دمنهور وأبادوا من فيها من السكان ونهبوها وأحرقوها . وهناك أيضا شخصية حسن طوبار . . . .

ولقى الفرنسيون عناء كبيراً قبل إخضاع المنصورة ودمياط . وساعد الفيضان على إنتشار حركات المقاومة فى تلك الجهات . وهناك ظهر اسم (حسن طوبار) شيخ بلدة المنزلة كخصم عنيد للفرنسيين . وكان يملك مع أتباعه حوالى الستمائة سفينة فى بحيرة المنزلة تجعل لهم السيادة عليها . وكان حسن طوبار يشعل نار الثورة فى المنطقة الواقعة بين دمياط والمنزلة والمنصورة وينظم المقاومة فى تلك الجهات .

وهكذا تقع معركة الجمالية بالقرب من دكرنس فى سبتمبر (١٧٩٨) . وهى حلقة من سلسلة المذابح التى قامت بها القوات الفرنسية فى مصر . ففيها يستشهد خمسمائة من الأهالى مدافعين عن بلادهم فى محاولات إنتحارية ويحرق الفرنسيون — كعادتهم — المدينة الباسلة إنتقاما . وتقوم الثورة فى دمياط أيضا وكانت

حينئذ من أهم مدن القطر إقتصاديا وحربيا وصناعيا ومركزاً للتجارة مع شرقى البحر المتوسط . ويشترك فى القتال أهالى المناطق المجاورة لدمياط وأسطول حسن طوبار . ورغم إنتصار الفرنسيين ونهبهم لبعض القرى وحرقها فقد استمرت حملات القمع والارهاب . وتتابعت أوامر نابليون إلى قواده هناك بإخماد الحركة والقبض على حسن طوبار ولو بالخديعة . فنفوذ هذا الرجل كان لايزال يزعزع سلطان الفرنسيين فى جهات البحر الصغير والمنزلة . كذلك يوصيهم نابليون بالقسوة على الثائرين . وأخيراً ، وبعد احتلال الفرنسيين للمنزلة والمطرية (أكتوبر ١٧٩٨) ، يضطر حسن طوبار إلى الفرار إلى غزه . وبذلك تنتهى مقاومته للفرنسيين فى مصر بعد أن تردد أسمه أكثر من مرة فى وسائل نابليون كعنوان للمقاومة الأهلية القوية . ومع ذلك فقدظل حسن طوبار فى غزة أيضاً مصدراً لقلق الفرنسيين .

وفى الصعيد وإبان مطاردة مراد بك وفلول قواته واجهت القوات الفرنسية مقاومة معظمها من جانب الأهالى الذين انضموا إلى المماليك . وهناك يقابل الفرنسيون بأشد حركات المقاومة عنفا ويصفها القواد الفرنسيون بأنها كانت حركات حربية حقيقية بالنسبة للمقاومة فى الوجه البحرى التى كانت ـ على شدتها ـ ذات صبغه محلية . وهناك تحدث موقعة سدمنت (غربى بحر يوسف) فى أكتوبر عام ١٧٩٨ وهى تلى موقعة إمبابه أهمية . وفيها هاجم المصريون والمماليك قوات الجنرال ديزيه جملة مرات وكبدوها خسائر فادحة قبل أن تحرز النصر وتفتح أقليم الفيوم أمام ديزيه . وبعد ذلك صارت الحرب فى الصعيد أقرب ما تكون إلى حرب العصابات والمناوشات . وكان هذا النوع من القتال أشد خطراً على الفرنسيين من المعارك المنظمة فقد أفقدهم الراحة والطمأنينة وأنهك قواهم دون أن ينالوا إلا

من القرى الوادعه. وتكرر هجوم الاهالى على القوات الفرنسية وأبرزها هجومهم على مدينة الفيوم . واستأنفت الحملة الفرنسية سيرهـا جنوبا فى الوجه القبلى . وكلما توغل الفرنسيون جنوبا كلما كثرت متاعبهم واستهدفوا لاخطار جمه . احتلوا اسيوط فى ديسمبر ولكن الثورة عمت المنطقة ما بين جرجا وأسيوط وأخمدها الفرنسيون بكل قسوة . وحدثت معارك أومذابح سوهاج وطهطا وسمهود فى يناير من العام التالى (١٧٩٩) . وفى أسوان حيث وصل الفرنسيون فى فبراير يواجهون المتاعب وتثور فى هذا الشهر البلاد بين جرجا وأسوان ويتجدد القتال بعدئذ . وتحدث ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ مواقع برديس وجرجا وجهينه وبنى عدى وأبى جرج . وفى كل منها يروح الضحايا بالمئات وبعضها بالآلاف (بنى عـدى) . ويرسل ديزيه فى تقاريره أنه قد امكنه هزيمة الاعـداء فى كل مكان ولكن لم يتمكن من سحقهم تماما .

كان الفرنسيون فى مصر يشعرون تماما انهم محاطين بالأعداء من كل مكان ، وأنه لاسبيل إلى استبقاء سلطتهم إلا بالقوة . وقـد دعا ذلك ـ بالإضافة إلى هزائم الفرنسيين ـ إلى ضعف مركزهم فى مصر. وزاد من حرج مركز الفرنسيين فى مصر فقدهم لاسطولهم عقب معركة أبى قير البحرية (اغسطس ١٧٩٨) . وفشل حملتهم على سوريا (فبراير ـ يونيو ١٧٩٩) . وتنهار آمال نابليون فى امبراطوريته الشرقية وتتحرج الأحوال فى فرنسا فيغادر البلاد خفية ويترك كليبر خليفة له فى مصر ويفوض له أمر الإتفاق مع الأتراك ولو كان الجلاء عن مصر ثمنا للصلح . وفى إبان ذلك تحدث ثورة القاهرة الثانية . وأخيرا يضع الفرنسيون حدا لهذا الموقف الحرج الذى جروا أنفسهم اليه بحملتهم على مصر . ويعقدون اتفاقيـة الجلاء (اغسطس ١٨٠١) مع تركيا وانجلترا ويتم رحيلهم من مصر فى اكتوبر من نفس العام .

القوة الشعبية ومحمد على

كان من الصعب رجوع الحال فى مصر إلى ما كان عليه تماما قبل مجيء الحملة الفرنسية . فهذه الحملة تميز حدثا ضخما فى تاريخ مصر الحديث وحدا يكاد يكون فاصلا بين عهدين . فقد تعلم المصريون كثيراً من درس الحملة وعرفوا الكثير عن طريق التجربة الفرنسية . ووقف الشعب على مدى ضعف المماليك والأتراك ومدى قوة الفرنسيين . ووقف المصريون كذلك على مدى قوتهم المتمثلة فى إرادتهم وكفاحهم وإيمانهم بقضيتهم كما زادت ثقتهم بأنفسهم .وعلى ذلك فقد استمرت الحركة القومية فى البلاد بعد خروج الفرنسيين تلعب دورها فى تقرير مصير البلاد . وتدخلت القوة الشعبية تدخلا فعالا فى حسم الخلاف بين قوى الاتراك والمماليك وتقرير مصير الحكم وتدخلت نفس القوة مرة أخرى لتدعيم هذا الحكم الذى ارتضته وصد العدوان الإنجليزى عن مصر عام ١٩٠٧ .

فبعد رحيل القوات الفرنسية عن أرض مصر وجدت بالبلاد قوى ثلاث تعمل كل منها على الإستئثار بالنفوذ بطريق أو بآخر . فكانت هناك قوة انجليزية نزلت بالبلاد فى مارس (١٨٠١) متعاونة مع الأتراك لإخراج الفرنسيين من مصر . والإنجليز كانوا قد اتفقوا مع العثمانيين على عدم الجلاء إلا بعد استتباب الأمن فى مصر . وعلى ذلك فهم يظلون بمصر رغم أحكام معاهدة أميان (مارس ١٨٠٢) التى تنص على جلائهم من مصر . ولكنهم يضطرون إلى الجلاء فى مارس من العام التالى خشية إغضاب تركيا أو إثارة الفرنسيين للعودة إلى مصر ، ويأخذون معهم عند إنسحابهم محمد الألفى أحد زعماء المماليك ليجعلوا منه نواة قوة موالية لهم تضمن الانجليز نفوذا فى البلاد مقابل مساعدة المماليك على استعادة نفوذهم السابق . أما القوتان الأخريتان فكانتا .قوة الأتراك العثمانيين فى مصر ، وهم اداة

الدولة العثمانية ووسيلتها فى استعادة سلطانها على مصر، وقوة المماليك . وبعد جلاء الفرنسيين عن مصر عمل الأتراك على إقتلاع دولة المماليك من جذورها ولو بالابادة . وهؤلاء المماليك كانوا يسعون إلى استعادة ما كان لهم من نفوذ قبل مجىء الحملة الفرنسية . وقد احتضنت انجلترا البعض منهم ولجأ الآخر إلى فرنسا ، عدوة الأمس ، يسألها العون ولكن فرنسا رفضت مساعدتهم . واستمرت الحرب بين الاتراك والمماليك قبل رحيل الإنجليز عن مصر وبعده . وحتى هذه القوة التركية انقسمت على نفسها فى غمار النزاع على السلطة فى مصر، وانقلب جزء من جيش الوالى التركى عليه . وتتابع الولاة على مصر . وفى ذلك النزاع كان الشعب يعانى المظالم من كلى المماليك والوالى العثمانى . وهنا تظهر قوة الشعب مرة أخرى . فيثور على المماليك ويقلم اظفارهم ويعطيهم درسا فى إعتباره فى مارس ١٨٠٤ ، ويعود فيثور على الوالى التركى (مايو ١٨٠٥) .

وفى وسط هذه الاحداث يظهر محمد على ، أحد قواد الحملة التركية ، بدهائه وذكائه ليستغل هذه القوى المتصارعة جميعها لصالحه وحده . أظهر اخلاصه للاتراك فترقى إلى أعلى الرتب ولم يلبث أن تركهم يتطاحنون مع المماليك ووقف مع جنود الارناؤود يتفرج عليهما . ثم يعود ويتفق مع المماليك للتخلص من الاتراك . وحينما يثور الشعب على المماليك يبادر محمد الى التخلى عنهم والإنضمام إلى جانب الشعب . فيوصى جنوده الارناؤود بإحترام الشعب وينزل إلى الشوارع مختلطا بالجماهير ويقابل العلماء بالازهر ويتعهد بأن يسخر نفوذه لرفع المظالم عن الشعب . وهكذا يكسب محمد على عطف الشعب وثقة زعمائه ، ويبدو فى أعين الجماهير اسطورة تتغنى بحب العدل وكره الظلم والسعى لخير الشعب .

فطن إذن محمد على إلى أهمية القوة الشعبية فعمل على استغلالها لصالحه .

والشعب لم يجد أمامه سوى محمد على ليخلصه من أزمات كان بعضها يحدث بتدبير محمد على نفسه . وثار الشعب على خورشيد ـ خامس الولاة العثمانيين فى نحو سنتين ـ وجنوده . وكان محمد على نفسه فى صراع مع الوالى الجديد فوجد فى الشعب قوة يصل بها إلى أوج المجد . وبالغ فى استمالة علماء القاهرة وأعيانها واستنكار أعمال الوالى العثمانى . وتمكن الشعب بعد ثورته من فرض إرادته على الوالى الذى وعد بإبعاد جنوده عن القاهرة وضواحيها فى مدة ثلاثة أيام . ولكن الفترة انتهت ولم يزل بعض الجنود بالمدينة وقد رفضوا الجلاء حتى تدفع رواتبهم .

وضعف الوالى وعدم قدرته على الوفاء بما التزم به دفع الشعب إلى العمل الحاسم . فاجتمع زعماؤه والتفت الجموع حولهم حتى بلغ عددهم حوالى الأربعين ألفا، وتوجهوا إلى (بيت القاضى) أى دار المحكمة وهم يصيحون « يارب يامتجلى اهلك العثمللى »[1] . وبحضور القاضى ووكلاء الوالى عرض الزعماء ظلامة الشعب وكانت بمثابة وثيقة للحقوق التى يطالب الشعب بها . وبمقتضاها يطلب الشعب الا تفرض ضريبة دون أن يقرها العلماء والاعيان وجلاء الجنود عن القاهرة . وكان رفض الوالى لمطالب الشعب دافعا ليقابل الشعب تحديه بتحد آخر . واجتمع الشعب مع زعمائه بدار المحكمة وفنائها واتفقت كلمتهم على عزل الوالى ، خورشيد ، وتعيين محمد على واليا بدله .وانتقلوا إلى دار محمد على وابلغوه قرارهم وألبسه السيد عمر مكرم ، نقيب الاشراف ، والشيخ الشرقاوى من علماء الأزهر خلعة الولاية . وبذلك يتولى محمد على حكم مصر بإرادة الشعب ووفقا لشروط ارتضاها محمد على ، وهى شروط تنظم العلاقة بينه وبين الشعب .

وفى أوائل عهد محمـــد على تقوم القوة الشعبية بدورها فى تدعيم النظام الذى

---

(١) الرافعى — تاريخ الحركة القومية — جـ ٢ — ص ٢٠٢

خلفته والقضاء على التدخل الاجنبي الذى تمثله الحملة الإنجليزية على مصر فى مارس عام ١٨٠٧ بقيادة فريزر . ولم تطل فرحة الإنجليز بنصرهم الرخيص فى الاسكندرية التى احتلوها بعد اتفاقهم مع محافظها التركى . ففى رشيد منى الإنجليز بهزيمة ساحقة. ويشترك الاهالى مع قوات محافظ المدينة ويبلغون نحو سبعمائة جندى فى الايقاع بالقوة التى تبلغ ألفى جندى . ويفقد الانجليز فى رشيد أكثر من ربع القوة بين قتيل أو جريح أو أسير ويفر من نجا منهم إلى الاسكندرية (١) . وجاء محمد على من الصعيد حيث كان يقاتل المماليك ليواجه الانجليز فى الحماد بعد أن انهكت قواتهم معركة رشيد ومناوشات الاهالى . وبانتصار المصريين فى الحماد رأى فريزر عبث معاودة القتال لاسيما وقد خذله المماليك كما قوبل بهذه المقاومة العنيدة من الاهالى . فيعدل الانجليز عن خطتهم لغزو مصر .ويوافق الانجليز على الجلاء عن الإسكندرية مقابل استرجاعهم أسراهم .

وبعد أن استنفد محمد على أغراضه من وجود هذه الزعامة الشعبية والقوة الشعبية، وبعد استخدامها فى القضاء على المماليك ونفوذ الأتراك والخطر الاجنبي بدأ يقلب لها ظهر المجن ،فعمل على التخلص منها والانفراد بأمر الحكم . وساعده على ذلك الانحلال والشقاق الذى بدأ يدب بين زعماء الشعب(٢).ولعبت الاهواء والمطامع الشخصية دورها . وكانت هذه هى فرصة محمد على . وهكذا انتقلت اليه الزعامة . ومضى محمد على يبنى مصر الحديثة بقوة إرادته وحدها وسواعد المصريين وعقول بعض الاوروبيين ولكن دون سند شعبي . وخمدت جذوه

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على —١٩٤٧ — ص — ٤٣ .

(٢) انظر : محمد فريد أبوحديد — السيد عمر مكرم . ص ١٨١ ، ١٨٨ .

النضال القومى حينا ولكن لم تنطفىء . فقد بدأت فى الاشتعال مرة أخرى ببدء تغلغل النفوذ الاوروبى فى عهدسعيد وازدياد هذا النفوذ فى عصر اسماعيل نتيجة لسياسته المالية الرعناء، مما أدى إلىظهور رد الفعللهذه النكسة للحركة القومية فىعصر محمد على وسعيد . ويبلغ رد الفعـــل الثورى ذلك ذروته بقيام الثورة العرابية .

الثورة العرابية

الحركة العرابية

كانت ثورة عسكرية وحركة قومية . فهى عسكرية من حيث القائمين بها والداعين لها أول الأمر . وهى قومية من حيث اشتراك كل طبقات الأمة فيها يجمعهم الهدف المشترك والخطر المشترك . وهى قومية بالمعنى الحديث للكلمة من حيث أنها عقيدة جديدة واستجابة من الشعب لنداء جديد من زعماء جدد يبشرون بحياة أفضل والتفاف الشعب حول هؤلاء الزعماء [1]. وأحداث الحركة العربية على أية حال إنما هى فى حد ذاتها مظاهر رائعة للشعور بالقومية .

ففى يوم قصر النيل (١ فبراير ١٨٨١) يذهب الجيش إلى الشكنات لإطلاق سراح قواده أحمد عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى الذين قبض عليهم لمطالبتهم بالحد من جور القواد الأتراك فى الجيش المصرى . ويقتحم الجنود ديوان الحربية ويضربون وكيل وزارة الحربية ويفر عثمان رفقى ، الوزير التركى من غضبهم ويطلقون سراح قوادهم ... كان هذا اليوم مظهراً رائعاً من مظاهر تضامن الجنود والضباط وتغلغل الروح القومية فى الجيش . وجعل هذا اليوم الثورة حقيقة بعد أن كانت مجرد حركة ....

وتتوالى إنتصارات الثورة بعدئذ وتجيب الحكومة معظم مطالب الجيش . ولكن الخديوى فى الواقع لم يكن راضيا عن النفوذ الذى ناله الحزب العسكرى

---

(١) أنظر Sondermann فى حديثه عن القومية وتعريفه لها فى كتابه
Theory and Practice of International Relations, 1960, pp.25-26

بعد حادثة قصر النيـــل ، التى أعلنت إرادة الشعب ومرغت هيبـة الخديوى والحكومة فى الوحـل. وهكذا تحدث مظاهرة عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١) . وترابط القوات وعلى رأسها عرابى فى ميدان عابدين بمدافعها وذخيرتها . وتعرض الأمة ممثلة فى عرابى طلباتها على الخديوى بطريقة رسمية، ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث وهى « إسقاط الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبى وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها » [١]. وحينما يقول مالت (القنصل الانجليزى) لعرابى أن هـــذه المطالب من خصائص الخديوى وحقوق الأمة لا الجند يقول عرابى : « إن ما يتعلق بالأهالى من هذه المطالب لم تنهض اليه إلا بالنيابة عنهم فقد أقامونى نائبا عنهم فى طلبه وتنفيذه بواسطة هذه العساكر الذين هم أبناؤهم وأخوتهم ..... » [٢].

وأمام هذه المظاهرة القومية الرائعة يتخاذل الخديوى ويسلم بمطالب الأمة. ويفتتح مجلس النواب بالفعل (٢٦ ديسمبر ١٨٨١) ويعمل العرابيون على الحد من سلطان الخديوى المطلق فى أمور البـلاد . ويصر مجلس النواب على حقه فى بحث الميزانية وتقريرها حفظا على ثروة البلاد ومصالحها الاقتصادية من التسرب إلى أيدى الأجانب (٢٦ يناير ١٨٨٢) . ورأت الدول الأجنبيـة فى ذلك التيار القومى خطراً عـلى مصالحها . ولذلك تعمد كل من إنجلترا وفرنسا إلى تأييد سلطة الخديوى كوسيلة تكفل لها الاشراف المشترك على أحوال مصر وتضمن لها بقاء نفوذهما وحماية مصالحها .

---

(١) السيد أحمد عرابى الحسينى المصرى ــ كشف الستار عن سر الأسرار ص ــ ٢٣٦ .

(٢) أنظر مذكرات الإمام محمد عبده . ص ــ ١٣١

ويتفاقم الخلاف بين الخديوى ووزارة البارودى العرابية . ويتكلم العرابيون فى مجالسهم عن خلع الخديوى . ولا يخفى عرابى نفسه حاجه مصر إلى التخلص من أسرة محمد عـــلى كلها . وفى مثل هـذه الظروف تجىء الأساطيل الانجليزية والفرنسية إلى الاسكندرية (مايو١٨٨٢)وتطلب إنجلترا وفرنسا إستقالة وزارة البارودى وخروج عرابى من مصر . وقبول الخديوى لهذه المطالب يكشف عن وجهه الحقيقى . ولكن ضباط الجيش والبوليس يعلنون أنهم لا يرضون بغير عرابى ناظراً للجهادية. ويعم الاضطراب والقلق كل البلادو تتكرر اجتماعات الضباط تطالب بعزل الخديوى علنا . وعلى ذلك يعيد الخديوى عرابى إلى نظارة الحربية وإلى رئاسة الجيش(٢٨ مايو ١٨٨٢) .

وتسير الأمور وفق ما تشتهى إنجلترا ، وكانت قد قررت القضاء على الحركة العرابية قبيـل شهر أغسطس (١٨٨٢) [١]. وتحدث مـذبحة الاسكندرية (١١ يونيو ١٨٨٢) . ويضرب الأسطول الانجليزى مدينة الاسكندرية (١١ يوليو ١٨٨٢) متعللا باستعدادات المصريين للقتال وأن تحصين المصريين لبلادهم عمل عدائى ضد الانجليز ! ! وتدافـع الحصـون المصرية بالمدينة قدر الامكان وتستبسل حامياتها فى معركة يعلم الجميع أنها غـير متكافئة . وفى خلال الضرب ، يتطوع كثير من الرجال والنساء لخدمة المقاتلين ونقـل وتقديم الذخائر وحمل الجرحى للمستشفيات [٢].

ويصمم عرابى على الدفاع عن مصر إلى النهاية . ويشتد التفاف الشعب حوله ولا سيما بعد خيانة توفيق له وارتمائه فى أحضان الانجليز . ويرفض عرابى تنفيذ

---

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : انجلترا وقناة السويس (١٨٥٤ ـ ١٩٥٦) ص ٧٢

(٢) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ـ ١٩٤٩ ـ ص ٣٥٦ .

تعليمات الخديوى بالكف عن الاستعدادات الحربية ما دام الانجليز يحتلون الاسكندرية . وأرسل إلى المديريات والمحافظات يحذرهم من إتبـــاع أوامر الخديوى ويتهمه بالخيانة ويدعو إلى خلعه . كذلك يدعو عرابى إلى تكوين جمعية عمومية من العلماء والأعيان وكبار موظفى الحكومة . وتتألف الجمعية من وكلاء الوزارات وكبار الموظفين والضباط على هيئة مجلس عرفى لإدارة الحكومة (١٧ يوليو ١٨٨٢) . ويقرر ذلك المجلس ـ وقد صارت فى يده سلطة الحكم الشرعية فى البلاد ـ الاستمرار فى الاستعدادات الحربية مادام الانجليز وبوارجهم بالاسكندرية . ويوجه الخديوى منشوراً إلى الشعب المصرى يدعوه إلى مناصرة الانجليز والامتناع عن التعاون مع عرابى ! ! ! ولكن هذا لم يكن له من أثر إلا زيادة التفاف الشعب حول زعيمه عرابى بقدر زيادة حفيظتهم ضد الخديوى والأوروبيين .. كل هذا يدل على أن الثورة العرابية كانت حركة قومية شاملة.

التذمر فى مصر :

فما هى العوامل التى أدت إلى إنبثاق هذه الحركة وظهورها فى ذلك الوقت ، وبالشكل الذى كانت عليه ؟ هنـاك أسباب خاصة للثورة العرابيـة تتعلق بمصر وحدها ، وأخرى عامة تتعلق بالعالم الإسلامى والعربى (١).

وإهمال الجيش فى أواخر عهد إسماعيل وتذمر العنصر المصرى الغالب فيه ، كانا الشرارة المبـاشرة التى أطلقت الثورة وروح السخط من عقـالها . فانتشرت حركات السخط والتمرد والتذمر بـين صفوف الجيش وزال احترام الحكومة من نفوسهم حينما تفاقمت الضائقة المالية وعجزت الحكومة من دفـع رواتب الجيش

---

(١) أنظر دكتور محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه - ١٩٥٢ - ص ١٧ .

بانتظام . وزاد الطين بله ما كان للضباط الأتراك والجراكسة من امتيازات فى الجيش . وهؤلاء كان يمثلهم فى أوائل عهد توفيق ، وزير الحربية عثمان رفقى الذى اتبع سياسة الجهل والتعصب فأصدر قرارات ٣١ يوليو سنة ١٨٨٠ التى كانت تهدف إلى وضع العراقيل فى سبيل ترقى الجنود المصريين وقصر الترقيات على الضباط الشراكسة والترك . وكان من جراء ذلك أن انقسم الجيش إلى حزبين : الحزب الجركسى التركى وهو أقلية فى الجيش ، والحزب المصرى ... وهنا يظهر الزعماء ومنهم أحمد عرابى .

وقد ساعدت حرب الحبشة (١٨٧٥ — ١٨٧٦) إلى حد ما على الوصول بالجيش إلى ماصار عليه فى أواخر عهد إسماعيل . ففى تلك الحرب منيت القوات المصرية بهزائم متتالية وتكلفت الخزانة المصرية حوالى الثلاثة ملايين جنيه . وأدى ذلك إلى زيادة الضائقة المالية بمصر وزيادة طمع الغرب فى الاستيلاء على مصر ولاسيما انجلترا التى بدأت تهتم بمصر بعد فتح قناة السويس . فهذه التجربة أظهرت مدى ضعف جيش مصر وتشتت وفوضى الأداة الحكومية . وكان ذلك يرجع إلى حد كبير إلى عجز الضباط والرؤساء الترك والجراكسة وجهلهم وعدم كفايتهم . ورغم ذلك ظل اسماعيل على تمييزه للضباط الأتراك والجراكسة وكبار الموظفين منهم .

والثورة العرابية ككل حركة قومية كان لابد أن يكون لها زعيم يلتف الشعب حوله ويعتنق مبادئه ، هذه المبادىء التى تعبر عادة عما يحس به الشعب وما يصبو اليه . وعلى ذلك يمكن إعتبار ظهور عرابى وشخصيته كتقوم من مقومات الثورة العرابية . بدأ عرابى يظهر فى غمار انقسام الجيش إلى حزبين : مصرى وتركى . وامتاز عرابى بجرأة منقطعة النظير وإيمان بضرورة التخلص من إستبداد العنصر التركى واعتقاد بالله وقضائه وقدره . كذلك يظهر عرابى كشخصية جذابة

تؤثر فى السامعين . وكان لما يمتاز به من لباقة وفصاحة فى الحديث والخطابة واستشهاد بالأحاديث الشريفة والحكم المأثورة تأثير كبير فى نفوس سامعيه من الضباط والجنود . فعرابى كان من أصل مصرى صميم وثقافته عربية ، آمن بمصر وأحس بآلامها . وكان إلى جوار ذلك من طلاب الأزهر الشريف . بذلك استطاع عرابى أن يبث فى نفوس الضباط روح التمرد والثورة على الأوضاع وروح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة .

وإذا كانت شخصية عرابى عاملا من عوامل ظهور الثورة ، فإن نفس الشخصية أيضا كان لها أثر فى فشل الحركة وتكستها . فالحماس والجرأة والاخلاص كل ذلك ليس كافيا لقيادة ثورة وقيادة أمة . ولكن لعرابى على أية حال فضل لاينسى . لقد أعطى عرابى المثل على أن المصرى لايتحمل الظلم والجور والطغيان وأنه لايقبل سيطرة الأجنبى وتدخله فى شئونه . وأعطى عرابى المثل فى الكفاح من أجل مصر . والثورة العرابية كانت مثلا رائعا فى الوطنية والبطولة والتضحية وخطوة كبرى فى نمو الحركة القومية المصرية ، وفى سبيل ظفر المصريين بحقوقهم واستقلالهم الحقيقى . وجاء بعد عرابى زعماء قادوا الحركات القومية المصرية ، هذه الحركات التى توجت بقيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

وشخصية الخديوى توفيق ، كانت هى الأخرى تكون عاملا هاما من عوامل الثورة . فتوفيق كان مترددا متناقضا لا يستقر على رأى . ولم يكن صريحا فى فى سياسته ، بل كان يميل إلى الدسائس التى لا تلبث أن تنكشف فتثير عليه سخط الضباط . ثم أن توفيقا لم يكن فى مثل شخصية محمد على أو إسماعيل . وقد تدرب فى الإدارة وخبر أمور الحكم فى أواخر عهد إسماعيل ، وذلك فى ظروف عصيبة طغى فيها النفوذ الأوربى وعمت الفوضى الادارة والجيش . وأصبح خديوى مصر الجديد شديد التخوف من الأجانب — يرقب بعين الهلع السياسة الدولية

المتقلبة المتسلطة الطموحة المعقدة . كذلك كان لظروف توفيق العائلية ما يشجع عوامل التحريض على الثورة ضده . فهناك من هو أحق من توفيق بالعرش . وإسماعيل هو الذى سعى لتغيير نظام الوراثة وحصل على فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ الذى يجعل وراثة العرش فى ذريته ، بدلا من النظام القـــديم الذى يقضى بجعل الوراثة فى أكبر أفراد الأسرة الحاكمة سناً . فهذا المركز القلق للخديوى كان من شأنه أن يغرى بالثورة .

ووجود توفيق فى حد ذاته كان يمثل الانهيار الدولى والسياسى الذى منيت به مصر فى أواخر عهد اسماعيل . فعزل اسماعيل إنما جاء على أثر طلب انجلترا وفرنسا ذلك من السلطان العثمانى . وكان موقف مصر السياسى والدولى فى ذلك الوقت عجيبـاً : فهى من الناحية الدولية جزء من الممتلكات العثمانية وتعترف الدول بتلك التبعيـة منـذ عام ١٨٤١ ، ومنصب ولاية مصر الذى كانت تشغله أسرة محمد على كان وقفا على رغبة الباب العالى وفق الفرمانات التى صدرت إلى عام ١٨٧٣ . وانجلترا وفرنسا كانتا تدعيان — بحكم قانون القوة — تفوق مصالحهما فى مصر والشرق الأدنى . وعلى ذلك فلا يسع الدولة العثمانية ، وقد حلت بها هى الأخرى الكوارث السياسية والمالية والحربية ، سوى إجابة طلب انجلترا وفرنسا والموافقة على عزل اسماعيل وذلك بحكم سيادتها على مصر . وبذلك يجىء توفيق إلى الحكم بناء على التدخل الانجليزى الفرنسى . وهو يعلم جيداً أن من يأتى به إلى الحكم يستطيع خلعه منـه . ويعلم تماما أن مصيره معلق برضا الدول الكبرى ، ويحصل توفيق على المحافظة على مركزه ومركز عائلته . ويظن أن ذلك يتحقق بتثبيت دعائم الحكم المطلق واسترضاء الدول الكبرى والتقرب من الباب العـــالى .

يضاف إلى كل تلك العوامل ، عامل آخر كان له أثر فى قيام الحركة العرابية

ونجاحها نجاحا باهراً حتى قضى عليها عقب التدخل الانجليزى المسلح . ذلك العامل هو استعداد الشعب وقتئذ لقبول فكرة الثورة وتأييدها . بل إن الشعب كان بالفعل فى ثورة ولكنها مكتومة ثم أطلقها عرابى وزملاؤه من عقالها .

فالشعب عامة كان متذمراً من نظام الحكم وراغبا فى التخلص منه . كان الحكم يعتمد على القوة والقسوة. وكانت ألفاظ الحرية والمساواة والعدل والقانون والقضاء تكاد تكون بلا معنى عند عامة الشعب الذى لم يكن يعرف سوى الكرباج وسيلة من وسائل الحكم وتحصيل الضرائب . وكانت ملكية أجود الأراضى تنزع من أصحابها وتنقل إلى قواد الجيش من الجراكسة . واستولت الحكومة إبان حرب الحبشة مثلا على الآلاف من الجمال والخيل والبغال وعلى محصولات الفلاحين دون ثمن سوى الوعود بخصم الأثمان من الضرائب المطلوبة (١) . كذلك بقى نظام السخرة ، ليس لخدمة الدولة والمنافع العامة فحسب بل لخدمة الأمراء والاقطاعيين . أما بالنسبة للموظفين فكان سيف الفصل والنفى إلى السودان مسلطا على رقابهم .

والحالة الاقتصادية فى البلاد كانت — كالحالة السياسية — فى تدهور مستمر وكان ذلك مما مهد للثورة . فالخديوى اسماعيل كان قد استدان مبالغ طائلة مما اضطر الحكومة آخر الأمر إلى تخصيص نصف موارد البلاد لسداد فوائد الديون . والارتباك المالى لمصر أدى إلى زيادة التدخل الأوروبى وفرض الحكومتين الفرنسية والبريطانية لرقابة مالية مشتركة على مصر منذ عام ١٨٧٦ ، ثم مجىء وزارة مختلطة على رأسها نوبار وبها وزيران أجنبيان أحدهما انجليزى للمالية وآخر فرنسى للأشغال (١٨٧٨) . وبذلك أشرفت الدولتان على الأمور الداخلية فى مصر بحيث لم يعد للحكومة المصرية سلطان فى النواحى المتصلة بمصالح الأوروبيين

(١) أنظر : السيد أحمد عرابى الحسينى المصرى — نفس المرجع ص ١٩ ، ٣١

كل ذلك ، فضلا عن أنه إهانة كبرى البلاد ، فقد كان يعنى حرمان الشعب من حقوقه ومن موارده الطبيعية لحساب طغمة من الدائنين من الأجانب المغامرين والدخلاء الأفاقين وذلك بدلا من أن يستفيد الشعب من موارده الطبيعية وخدمات الحكومة له . هذا عرقل كل محاولة حقيقية للاصلاح فضلا عما اقتضاه هذا النظام من استخدام أنواع البطش والارهاق فى تحصيل الضـــرائب وفد احتها وعدم توزيعها توزيعا عادلا . وهذا الشعور بالاهانة كان فى الواقع من العوامل الخطيرة التى أثارت الروح القومى ضد التدخل الأوروبى .

ومما زاد من تذمر خاصة المصريين ومثقفيهم إمعان توفيق فى ارضاء انجلترا وفرنسا ورعاية مصالح الدائنين ، واستسلام حكومة رياض فى أوائل عهده لمطالب الدائنين وحكومتهم واقرارها لنظام المراقبة الثنائية كما أرادها القنصلان البريطانى والفرنسى (نوفمبر ١٨٧٩)، وبذلك تخضع مصر لاشراف الحكومتين الانجليزية والفرنسية المطلق فى أمور مصر المالية وتصير مالية مصر تحت رحمة المراقبين الانجليزى والفرنسى يوجهانها كيفما شاءا. وكان من الطبيعى ألا يعملا على إنهاض البلاد الا بالقدر الذى يفيد مصالح الأجانب قبل كل شىء. ورأت الرقابة الجديدة بما لها من سلطة واسعة العمل على ضمان مصالح الدائنين. وكان ذلك يستدعى تعديل النظام المالى لمصر واتباع سياسة اقتصادية جديدة وتعديل نظام الضرائب. وتكونت لجنة من مندوبى الدول الكبرى مع مندوب للحكومة المصرية، وهذه اللجنة ضمنت للدائنين دينا ثابتا تدفع الحكومة فوائده بانتظام وقررت أن يبقى نصف دخل الدولة فقط لخدمة مرافق مصر.

واتساع سلطة الرقيبين الأوروبيين أثار روح السخط فى نفوس الموظفين . فقد رأوا عدد الموظفين الأوربيين يزداد فى دور الحكومة ويزداد نفوذهم ويطغى. كذلك كان الأجانب يتمتعون بالمرتبات الضخمة . ونظام الامتيازات أو فوضى

الامتيازات بمعنى أصح وما فيها من مساوىء قد أصبح معرقلا لكل اصلاح مالى أو قضائى أو ادارى فى مصر . فقد قيد نظام القضاء المختلط سلطة الحكومة فى نواحى التشريع والقضاء ووقف عقبة فى سبيل الاصلاح . وقوى ذلك النظام من شعور الأجانب فى مصر بتفوقهم وزاد من احتقارهم للمصريين والشرقيين وبالغت الدول الكبرى فيما إدعته من مصالح رعاياها وتدخل القناصل لحماية ادعاءات رعاياهم مهما كانت تافهة . واستخدمت الدول الأوروبية التهديد بالقوة اذا لم تنفذ سياستها أو لم تستجب مطالبها ، حتى أصبح «متى بدأ عمل القنصل الأجنبى انتهى عمل البوليس والادارة والعدالة والقانون» (١). وبذلك عمل وجود الأجانب فى مصر على تدهور البلاد فى كل النواحى .

والنفوذ الأجنبى لم يتسع داخل الحكومة بحسب عن طريق الرقيبين ، بل امتد إلى المجال الاقتصادى والتجارى للبلاد . اذ تستجيب الحكومة لمطالب رجال الأعمال الأوروبيين وترخص لهم باستثمار رؤوس أموالهم فى مصر، مع تسهيلات تتيح لهم استغلال موارد البلاد ومرافقها الإقتصادية لمصالحهم . وتنشط فعلا فى عهد وزارة رياض عدة مؤسسات مالية أجنبية زادت من طغيان النفوذ الأوروبى فى حياة مصر الإقتصادية ومكنت من تغلغل النفوذ الأجنبى فى كيان البلاد المالى والاقتصادى والسيطرة عليه ، كالبنك العقارى وشركة تكرير السكر وغيرها من الشركات الأجنبية التى تأسست برؤوس أموال أوروبية ويديرها أوربيون دون أدنى مراعاة لمصالح الشعب .

ذلك التدخل الأجنبى المستمر فى شئون البلاد والذى لم يرع حقوق البلاد أو كرامتها قد قوى من التيار الوطنى والوعى القومى . وأخذ الوعى يطالب بشدة

---

(١) أنظر : دكتور محمد مصطفى صفوت : مصر المعاصرة ١٩٥٩ . ص ١١

بالدستور وبالحياة النيابية وتقوية الجيش وتدعيم سلطة الحكومة والحد من التدخل الأجنبي ، ذلك التدخل الذى زاد بشكل ملحوظ أثر تعقد الأزمة المالية في مصر وأثر تطور حركة الإمبريالزم والاستعمار الأوروبيين ، ولا سيما عقب مؤتمر برلين (١٨٧٨) . وقد أظهر ذلك المؤتمر التفوق السياسى لألمانيا فى أوروبا كما أظهرت الأحداث من قبل تفوق نفوذ ألمانيا الحربى فى القارة وظهورها دولة جديدة موحـــدة قوية . كل ذلك وجه أنظار الدول الأوروبية الكبرى إلى خارج أوروبا وإلى الاستعمار فيما وراء البحار ، وإلى تقسيم أفريقيا وإنشاء منـــاطق نفوذ لأوروبا فى الشرق الأقصى والأدنى . وكانت ألمانيا تبارك ذلك الاتجاه وتشجعه حتى يخلو الجو لنفوذها فى القارة .

وقد أدرك المثقفون من المصريين ، كما أدرك عرابى ، أن مصر فى حاجة الى حكومة دستورية ومجلس نيابى لإحكام الرقابة على الحكام والحيلولة دون مظالمهم وحكمهم المطلق . وهكذا يتحد المثقفون من الأمة مع الضباط المصريين فى المشاعر ويجمعون على المطالبة بمجلس نيابى ، لا سيما وأنه قد حدثت محاولات لوضع دستور وتنفيذه ، ولكن الأحداث والأزمات التى انتهت بخلع اسماعيل حالت دون ذلك . ولما جاء توفيق توقع الشعب إعلان الدستور ولكن توفيقا كشف عن ميوله الإستبدادية ورغبته فى حكم البلاد حكما مطلقا . وقد أدت سياسة رياض إلى ازدياد السخط والتذمر . فرياض كان يعارض انشاء مجلس نيابى وكان يميل الى قمع كل معارضة بالشدة وتحدى ميول الشعب والانحياز الى النفوذ الأوروبى . كذلك عرف عنه تعطيله الصحف المعارضة . وقد كون الناقمون على سياسة رياض والمتذمرون من تغلغل النفوذ الأوروبى جماعة عرفت باسم

الحزب الوطني (نوفمبر ١٨٧٩) ، وتعددت الاجتماعات السرية لتنظيم الحزب وكان من منظميه أحمد عرابي وزعماء الحركة العرابية .

فكان من الطبيعي ـ والحال هذه ـ أن تلقى دعوة عرابي استجابة تامة من الشعب عامته والمثقفين من خاصته . وعلى ذلك يمكن اعتبار الحركة العرابية من هذه الناحية استمراراً للحركة القومية التي ظهرت في أواخر عهد اسماعيل وكان يرعاها ويغذيها جمال الدين الأفغاني . وهنا تتصل أسباب الثوره الناجمة عن الحالة في مصر ، بمقوماتها المتعلقة بالعالم الاسلامي والعربي .

كان هناك اذن وعي قومي ناضج سرعان ما أظهر استجابة تامة للدعوة العرابيه وقد نما ذلك الوعي في الواقع خلال القرن التاسع عشر نتيجة للحركة الثقافية والفكرية الى جوار الاتصال بالحضارة الغربية وازدياد تغلغل النفوذ الأجنبي في البلاد . وظهور هذه النهضة الأدبية وظهور الشعراء الفطاحل والكتاب الافذاذ والخطاب وتعدد الصحف ، كل ذلك ساعد على نضج هذا الوعي . وكان لقصائد الشعراء ومقالات الكتاب وخطب الخطباء في المحافل والمجتمعات أثر كبير في الاعداد للثورة . ويتولى عبد الله النديم مثلا مهمة الاعلام للحركة الوطنية والدعاية لها وارشاد الشعب الى الطريق الصحيح اليها . [1] وكانت الصحافة من الوسائل القوية في نشر ذلك الوعي بما كانت تنشره من أخبار داخلية وخارجية ومقالات سياسية واجتماعية . ومن هذه الصحف مصر ، التجارة وكانتا من أقوى صحف المعارضة وفيهما تتجلى روح جمال الدين الافغاني . وكانت هناك مصر الفتاة ، الاسكندرية ، والمحروسة . . . الخ , ويخرج عبد الله النديم صحيفة يسميها (التنكيت والتبكيت) ـ ١٨٨١ ـ يرمى بها الى تأنيب المصريين على

---

(١) انظر : دكتور علي الحديدي . عبد الله النديم — خطيب الوطنية — ص١٤٦و١٤٧

ما وصلوا اليه من ضعة وضعف باسلوب تهكمي لاذع ويرجع مصائبهم الى تغلغل النفوذ الاجنبي . [1] وكثيرا ما كانت صحف المعارضة تتسبب فى احراج الحكومة وتتعرض بذلك للتعطيل . وكان ذلك مما يزيد الناس تعلقا بها وسخطا على الحكومة .

الافغانى وحركة الجامعة الاسلامية

وظهور جمال الدين الافغانى من ناحية ، وحركة الجامعة الاسلامية من ناحية أخرى ، يكونان أحد العوامل الهامة للحركة العرابية . وهو العامل المتصل بالعالم العربى والاسلامى

فمصر شهدت فى تلك الفترة (١٨٧١ - ١٨٧٩) جمال الدين الافغانى ، زعيما من زعماء الفكر الإسلامى ورائداً من رواد الإصلاح فى العالم الإسلامى . وقد ولد جمال الدين بالأفغان منحدراً من أسرة ذات نسب شريف ونفوذ كبير . وكان للوراثة والبيئة والتعليم وحياته العملية الأولى أثر كبير فى شخصيته . فهو قد نشأ فى بلاد يتنازعها النفوذ الانجليزى والروسى فخبر السياسة الدولية عن كثب . ولم تكن أفغانستان وحدها ، هذه البقعة المنعزلة فى أواسط آسيا ، ميدانا لنشاطه بل عرفته فارس والهند وخبرته مصر وتركيا وأفادتا من نضوجه السياسى ومن علمه وأفكاره . وقد درس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية فى الهند ثم خدم فى الجيش الأفغانى واشترك بنصيب فى النزاع على الحكم الذى قام بين أمراء الأفغان وتقلد منصب الوزارة حينــــا من الزمن . ثم رحل إلى الهند (١٨٦٩) بعد أن تأزمت الأمور باشتراك الانجليز فى الدسائس المتعلقة بالنزاع على الحكم فى إيران . ولكن عداءه لسياسة الحكومة الانجليزية لم يسمح

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث — ص ٢١٣ - ٢١٧ .

له بالبقاء فى الهند فجاء مصر أول مرة عام ١٨٧٠ ، ثم ذهب إلى تركيا حيث لقى من حكومة السلطان عبد العزيز كل حفاوة وإكرام وصار عضواً بمجلس المعارف هناك . ولكن آراء الأفغانى حول إصلاح مناهج التعليم لم تلق التأييد كما تعرضت لنقد شديد من شيخ الإسلام . ولم يلبث الخلاف أن استفحل بين الأفغانى وشيخ الإسلام وانتهى الأمر برحيل الأفغانى إلى مصر فى العام التالى (١٨٧١) [١] .

وفى مصر وجد الأفغانى الجو مهيأ لقبول دعوته . فهناك اضطراب اقتصادى وهناك تدخل أجنبى ، وهناك صراع بين القومية المصرية النامية وبين الروح التركية والشركسية ، وهو صراع كانت تغذيه اليقظة الفكرية وتشد ..... واستقر الأفغانى فى مصر وأخذ يسهم فى إيقاظ العقول من سباتها وتحرير الأفكار من جمودها . وقد تأثر عرابى بلاشك بالأفغانى الذى كان ذا أثر كبير فى الإعداد للثورة العرابية . فالأفغانى مدرسة برمتها للأخلاق وكان من العوامل الفعالة فى تطلع الأمة نحو الحرية ونفض غبار الاستكانة والخضوع عنها . وعلى ذلك فالأفغانى كان مصلحا دينيا وفكريا وزعيما سياسيا فى نفس الوقت . كان ينادى بحرية الفكر وتحرير العقول من قيود الجمود وتوجيه الفكر إلى البحث عن الحقائق . وأهاب بالمسلمين أن يتفهموا الدين الإسلامى على حقيقته وأن يرجعوا إلى المبادىء الصحيحة للاسلام . ونادى بتطهير الدين من أدعيائه ومن الأوهام والخرافات التى أدت إلى تأخر الأمة الإسلامية . وبذلك يكون قد نادى بالإصلاح الدينى كما نادى بحرية الفكر . كذلك دعا الأفغانى إلى يقظة الشرق ونهضته

(١) أنظر : عبد الرحمن الرافعى — عصر اسماعيل — ١٩٣٢ — جزء ٢ ص ١٥٠ — ١٥٤

وعودة شعوبه إلى السيطرة على أمورهم وتقرير مصيرهم . وكان الأفغانى محبذاً لنظام الحكم الدستورى معضداً للحكم النيابى ويرى فيه مدرسة التعليم السياسى ووسيلة للنهوض بالشرق وعاملا على منع الاستبداد والظلم الذى يعانى منه الشرق، كما كان يرى فيه حاجزاً يحول دون سيطرة الغرب السياسية والاقتصادية. وبذلك يثير الأفغانى فى النفوس روح العزة والكرامة والتطلع إلى الحرية ويغرس بذور الحركات القومية فى الشرق . وكان الأفغانى يرجو ويعمل على أن تنهض احدى الدول الإسلامية وتصير فى مصاف الدول الكبرى القوية ، كما كان يعمل جاهدا على إضعاف نفوذ بريطانيا فى دول الشرق الاسلامى .

وقد وجدت فكرة الجامعة الاسلامية — التى كان جمال الدين الأفغانى رأسها المفكر — نجاحا كبيرا زمنا ما فى مصر وفى شمال أفريقيا بوجه خاص ، وكذلك فى باقى أجزاء الشرق الأدنى . وقد ساعد على نجاحها المحاولات الأوربية للتدخل فى شئون هذه المناطق لاسيما محاولات فرنسا فى شمال افريقيا لمد نفوذها شرقا إلى تونس وغربا إلى مراكش بعد توطيد مركزها نهائيا فى الجزائر . ولكن سرعان ما أفسحت هذه الحركة الطريق تدريجيا أمام نمو فكرة القومية . . . . . .

على أية حال ، نجد أن هذه الحركة — حركة الجامعة الاسلامية — كانت من العوامل المهمة لظهور الثورة العرابية . وقد ظهرت هذه الحركة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى وقت ظهرت فيه أيضا حركة الجامعة السلافية والجامعة الجرمانية . ولكنها كانت تختلف عنهما فى الأهداف وفى التنظيم. فلم تكن الجامعة الاسلامية ترمى إلى السيطرة أو التفوق فى العالم ، وانما كانت ترمى إلى تخليص سكان الشرق من التدخل الأوربى والسيطرة الأجنبية . ولم تقم تلك الحركة على أساس من الجنس أو اللغة ، وانما كانت حركة اسلامية شاملة . وقد تبنتها وتزعمتها لفترة من الزمن الدولة العثمانية ليس عطفا على الحركة أو اعجابا بها ولكن لمصلحة

السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى الذى كان بمثابة القوة الدافعة لحركة الجامعة الاسلامية . وقد وجدت هذه الفكرة هوى فى نفس السلطان العثمانى . فهى تتفق وطموحه ورغبته فى المجد وتلائم مصالح الدولة العثمانية التى أحاطتها الأخطار من كل جانب . فرأى أن يجمع المسلمين فى العالم تحت امرته الفعلية . وهو لذلك يهتم باحياء نظام الخلافة الاسلامية ، ضمانا للربط بين الشعوب الاسلامية ، ويأخذ فى توجيه المسلمين لمقاومة النفوذ الأوروبى فى العالم الاسلامى ، ذلك النفوذ الذى كان يستفحل أمره كل يوم بشكل يهدد الدولة العثمانية فى كيانها واستقلالها ومصيرها ، مما أضعف الدولة حتى صار يطلق عليها اسم « الرجل المريض » ، وحتى صارت مشكلة تقسيم أملاك الدولة العثمانية تشغل بال ساسة أوروبا وخصوصا عقب مؤتمر برلين (١٨٧٨) ونشاط حركة الامبريالزم والاستعمار الأوروبى . وقد وجدت معظم الشعوب الاسلامية بالفعل أنه من مصلحتها الانضواء تحت جناح الدولة العثمانية وكانت أقوى دولة اسلامية وقتئذ .

ورغم أن حركة الجامعة الاسلامية كانت اسلامية بحتة ، الا أنها أثرت تأثيرا كبيرا فى إيقاظ الشرق الأدنى وخاصة العرب. ومن ناحية أخرى تساعد هذه الحركة على الربط بين مصر والعالم العربى والاسلامى خلال محنتها ابان الثورة العرابية . يساعد على كل ذلك بالطبع الظروف التى كانت تمر بها مصر وقتئذ واستقرار جمال الدين الأفغانى بمصر من عام ١٨٧١ حتى طرده الخديوى توفيق عقب توليه الحكم مباشرة عام ١٨٧٩ . ويقول الامام محمد عبده فى مذكراته عن أثر استقرار الأفغانى فى مصر « دخلت مصر فى عهد الخديوى توفيق فى طور جديد من الحياة فقد كان لها من ارشاد السيد جمال الدين الأفغانى وتعاليمه وسعى الحزب الوطنى الذى ألفه فيها مافتح القلوب والعقول لتدرك حالة حكومتها وما يجب أن تكون

عليه وسيرة الأجانب فيها وما تخشى أن تنتهى اليه .... (١) وحينما ضرب الانجليز الاسكندرية بقنابلهم (١١ يوليو ١٨٨٢) ثارت ثائرة العرب والمسلمين جميعا حتى فى تركيا نفسها وفى الهند أيضا . وحمل الرجال فى الشام السلاح وأعدوا الكتائب من المجاهدين ولكن جنود السلطان التركى منعتهم من الابحار إلى مصر. وفى تونس أشادت الصحافة بعرابى ولقبته بحامى الاسلام والعرب . (٢)

وقد كان لجمال الدين تلاميذ تتبعوا خطاه أمثال محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى. ولكن فكرتهم القومية كانت أكثر وضوحا وتحديدا من أفكار جمال الدين . وقد خدم محمد عبده الدين الاسلامى والأدب العربى وأخذ على عاتقه تخليص الدين الاسلامى من كثير من الشوائب التى علقت به كما أنه آزر الحركة العرابية بقلبه وقلمه ولسانه . أما الكواكبى فقد خدم فكرة القومية العربية .

درس النكسة :

قامت إذن الثورة العرابية كأنبل ما تكون حركة فى مبادئها وأهدافها . وسارت من نجاح إلى نجاح ، ولكنها لم تلبث أن انهارت أمام وطأة الخيانة من ناحية، والقوة الغاشمة من ناحية أخرى . وإلى جانب ذلك كانت هناك عوامل أخرى تتعلق بشخص عرابى وساعدت على الانتهاء بالحركة العرابية إلى هذا المصير المؤسف. فلسوء حظ الحركة لم يكن بين زعمائها من يعرف حقيقة فن السياسة ، ولم يكن بينهم من له الثقافة الكافية أو الخبرة التى تؤهله لزعامة حركة قومية قوية كان مقدراً لها أن تصطدم بالخديوى وبالدول الأجنبية .

ومما لاشك فيه أن عرابى لم يحسن التدبير للثورة والاعداد لها واختيار أعوانه

---

(١) مذاكرات الامام محمد عبده ص ـ ٥٣ .

(٢) أنظر : الدكتور على الحديدى : عبد الله النديم ص ٢٠١٥ ـ ٢٠٣٦ .

ولم يقف موقفا حازما ممن يتوقع منهم الكيد للحركة والايقاع بها ، فكانت الخيانات ثم الهزيمة والفشل. ويكتب عرابى فى مذكراته عن خيانات بعض قواده أمثال عبد الرحمن حسن وعلى يوسف وحسن رأفت ، وخيانات عربان الشرقية فى المعركة الفاصلة فى التل الكبير فى سبتمبر ١٨٨٢ ، ما يجعل تلك الواقعة أقرب الى المذبحة منها إلى المعركة (١) . ولم يعمل عرابى حسابا للانتهازيين الذين تعاونوا مع كل من الخديوى والانجليز للنيل من الثورة . فنجد مثلا محمد سلطان — وهو اقطاعى كان قد انضم إلى الحزب الوطنى أملا منه فى رئاسته — يتخذ لنفسه مكتبا بالاسكندرية يصدر منه المنشورات الى الأهالى والجنود لبث روح الهزيمة فى نفوسهم . وكانت كل هذه الرسائل توزع باسم السلطان العثمانى الذى كان لايزال يتمتع بالهيبة والرهبة فى قلوب العامة ، والذى كان لايزال رمزا فى الأذهان لحركة الجامعة الاسلامية التى لاقت كما ذكرنا قبولا من المسلمين . هذه المنشورات كانت تصل أيضا إلى الجيش فى الميدان فتثبط من بعض الهمم الواهية . وبعد الاحتلال البريطانى يقدم محمد سلطان وأمثاله من الخونة الهدايا الى القواد الانجليز شاكرين اياهم لانقاذهم البلاد من « الفتنة » ، واضعين أنفسهم فى خدمتهم وتحت أمرتهم مظهرين استعدادهم للامعان فى خيانة وطنهم بعد أن غدروا به .

وعرابى لم يكن يفهم إلا النذر اليسير من فنون السياسة ، رغم أنه قرأ للافغانى وتأثر بتعاليمه كما قرأ تاريخ نابليون وتأثر به. ويقول عرابى فى مذكراته أنه بعد قراءته لترجمة بونابرت شعر بحاجة البلاد الى « حكومة دستورية شورية » .(١) ولم يكن عرابى على أية حال واسع الاطلاع أو الثقافة ، فتعليمه كان محدودا بالكتاب وبمبادىء الحساب ثم بأربع سنوات فى الازهر الشريف وهى مدة

١ — انظر : عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابيه — ١٩٤٩ — ص ٤٣٥ — ٤٣٨

٢ — السيد أحمد عرابى الحسينى المصرى — نفس المرجع ص ١٥ .

لا تكفى لينال حظاً كافيا من العلوم . فهو اذن لم ينل حظاً من العلوم العصرية فى المدارس المعروفة ولم يستكمل علومه بالأزهر . وأخيرا فهو لم يتلق من فنون الحرب ما يجعل منه ضابطا على درجة من الكفاءة تجعله صالحا لقيادة الجيوش والمعارك .

وموقف عرابى من الخديوى لم يكن حازما . كان ينبغى أن يعلم أن الخديوى لن يغفر له ولن يصفح عنه وأنه عدوه وعدو الشعب ولا يؤمن بحقوقه . فكان على عرابى إذن أن يكون أكثر حذرا أو يضرب ضربته ويطيح بتوفيق من حكم مصر ، لاسيما وأن النواب ورجال الدين والجيش قد أجمعوا على إعادة عرابى أو عزل الخديوى وذلك عقب الإنذار الانجليزى الفرنسى (٢٥ مايو ١٨٨٢) . وهكذا ظل توفيق على عرش مصر ليخون الوطن ويبارك الاحتلال الانجليزى ويكرم الجنود الانجليز بعد مأساة التل الكبير وينعم على ضباط الاحتلال بالأوسمة والنياشين . على أية حال كان توفيق قد دق بذلك العمل أول مسمار فى نعش أسرة محمد على . فالمصريون لم ينسوا له هذا الموقف . وأخذ الحقد على أسرة محمد على والرغبة فى الانتقام منها تتوارثه النفوس جيلا بعد جيل . وكان حكام مصر من هذه الأسرة يعلمون حقيقة شعور الشعب ازاءهم . ويؤكد البعض أن فاروقا قد صرح قبيل طرده من البلاد بساعات بأنه يخشى أن يفتح الشعب قبر أبيه ويمثل بجثته !! (١) . ورغم أن الظروف الدولية لم تكن مواتية لمصلحة الحركة حينئذ إلا أنه كان من الممكن استغلال التنافس بين الدول الكبرى لصالحها ، لاسيما ما كان موجودا منه بين فرنسا وانجلترا أو فرنسا وإيطاليا ، أو العلاقة بين السلطان العثمانى والدول الغربية والمرارة التى يشعر بها السلطان العثمانى عقب هزيمة تركيا أمام الروسيا ثم قيام انجلترا وفرنسا بإنقاذه من براثن الروس فى مؤتمر

(١) أنظر : احمد بهاء الدين — فاروق .... ملكا — ١٩٥٢ — ص . ١٤٨

برلين (١٨٧٨) لظير منحه قبرص لأنجلترا وسماحه للدولتين بالتدخل في شئون أملاكه ووقوعه فريسة لرجال المال منهما.

وأخيرا فكان ينبغي على عرابي أن يعمل بكل وسيلة على منع الشغب بين الأهالي أو احتكاكهم بالأجانب ، لاسيما بمدينة الأسكندرية وقد أخذ الأجانب ينزحون اليها من القاهرة والأقاليم . ولكن نلاحظ أن الشغب الذى حدث بالاسكندرية نتيجة احتكاك بين مالطى وأحد المصريين والذى راح ضحيته عشرات القتلى من المصريين والاجانب ، هذا الشغب وقع (١١ يونيه ١٨٨٢) بعد حوالى الاسبوعين من عودة عرابى إلى تقلد وزارة الحربية ورياسة الجيش والسيطرة على الحكومة (٢٨ مايو ١٨٨٢) . فكان يجب إذن إتخاذ الحيطة للحيلولة دون أى إحتكاك مع الاجانب حتى تمر هذه الفترة الحرجة من تاريخ البلاد. وكان يجب أيضا أن يعلم أن هناك من يتربص به وبحركته ، ومن يدبر الشغب لإظهاره أمام العالم عاجزا عن الامساك بزمام الأمور ، وذلك تمهيدا للتدخل الأجنبي . ولكن عرابى لم يفطن تماما إلى كل ذلك وأتاح الفرصة لأعدائه ، للخديوى وبطانته من الاجانب والانتهازيين والمأجورين من كبار الموظفين ، لاظهاره أمام العالم بمظهر الضعف والتعصب والحط من سمو الحركة وجلالها .

وقلة دراية عرابى بفنون السياسة فضلا عن فنون الحرب ، دفعته إلى الاقتناع بوعود ديليسبس حول استحالة استخدام انجلترا للقناة فى عملياتها الحربية لحيادها وضمانه لذلك الحياد. صحيح أن ديليسبس قد بذل جهودا يائسة لتحقيق حيدة القناة ، وكذلك فعلت شركة القناة . ولكن انجلترا كانت قد صممت أن تضرب عرض الحائط بالمواثيق الدوليه إذا كانت ستعمل على إعاقة خطتها . وكانت الحكومة الانجليزية تدعى أنها تخشى أن يقوم العرابيون بردم القناة أو احتلالها أو إتلافها،

وأخذت الشائعات تردد أن سلامة المرور فى القناة لم تعد مكفولة ولا مضمونة(١) . فانجلترا كانت الدولة الوحيدة التى قررت ألا تتقيد بمؤتمر القسطنطينية (يونيه ١٨٨٢) الذى ضم الدول الكبرى وانجلترا من بينها لبحث المشكلة المصرية . وقد سجل أعضاء المؤتمر أن مصر مسألة دولية عالمية وأنه لايجب على أية دولة واحدة أن تنفرد بتقرير مصير هذه البلاد دون سواها من الدول . ولكن الحكومة البريطانية كانت ترى ضرورة القضاء على ما اعتبرته سيطرة الجيش فى مصر قبـــل شهر أغسطس (١٨٨٢) . وهى لذلك تضرب مدينة الإسكندرية وتحتلها بعـد أن دافع أهلها عنها دفاعا مشهودا (١٣ يوليه ١٨٨٢) . ويضطر العرابيون إلى إتخاذ قاعدة جديدة فى كفر الدوار والدفاع عن البلاد إلى النهاية . ووجدت انجـلترا أن حل مسألة مصر هو فى قناة السويس . فهى النقطة الضعيفة التى يمكن أن تنفذ منها الى مصر مباشرة ، لا سيما وأن مسألة حماية القناة كانت تشغل أذهان الساسة الانجليز بعد ضرب الاسكندرية . وخلال هذه الازمة ، كان الانجليز لا يهتمون بمصالح القناة بقدر ما كانوا يهتمون بمصالح انجـلترا السياسية والحـربية والتى وضعوها فوق كل اعتبار . ورغم جزع شركة قنـاة السويس خشية احتـلال انجلترا للقناة ، فقد كان الاعضاء الانجليز فى مجلس إدارة شركة القناة أكثر حماسة لاحتلال انجلترا للقنــــاة من رجال البحر والحرب الانجليز . فكان ينبغى اذن على عرابى أن يقوم بسـد القناة لدى أول عدوان خارجى على مصر بدون تردد . ذلك يعطى للجيش بلاشك فرصة أحسن للدفاع .

ومع ذلك ، فقد كانت القوى المناهضة للثورة العرابية ، كما رأينـا ، متفوقة على الثورة فى كثير من النواحى . وكانت تلك القوى تتمثل فى التدخل الانجليزى المسلح ، وقوى الخيانة والرجعية فى الداخل وعلى رأسها الخديوى توفيق .

---

(١) أنظر دكتور محمد مصطفى صفوت : انجلترا وقناة السويس . ص ٧٥ — ٩٠

الحركة القومية والاحتلال الانجليزى(١)

الحماية المقنعة (١٨٨٢ — ١٩١٤).

النظام الجديد :

بدخول القوات البريطانية إلى القاهرة (١٤ سبتمبر ١٨٨٢) تبدأ انجلترا فى إتمام سيطرتها على البلاد ومرافقها . وهى فى سبيل ذلك تتبع كل وسيلة حتى لا ينازعها نفوذها فى مصر منازع خطير من الداخل أو الخارج. فتعمد الحكومة البريطانية إلى إهمال مطالب المصريين القومية ولا تنسى أن تحد من سلطة الخديوى. وهى فى نفس الوقت تحرص على عدم تدخل الدول الأوروبية مجتمعة أو منفردة فى شئون الحكم الانجليزى فى مصر وهى تحرص أيضاً على أن تعلن من حين لآخر، وخاصة فى السنوات الأولى من الاحتلال، عن عزمها على الجلاء عن مصر حين تستتب الأمور فيها . فهى تعلم مدى ضعف مركزها فى مصر من وجهة نظر القانون الدولى . وهى تريد أيضاً أن تسترضى الدول الكبرى ولا سيما الدولة العثمانية . فتركيا تحتج احتجاجا شديداً على إستمرار الاحتلال وتنتهز أول فرصة لمناقشة موضوع الجلاء مع انجلترا ، معلنة أن الثورة العرابية قد انتهت وأن الأمور قد استتبت فى مصر. ولهذا كانت انجلترا ترى بقاء السيادة العثمانية على مصر فى نفس الوقت الذى يبقى فيه الاحتلال (١). وكان ذلك أيضاً هو رأى السياسة الألمانية. وهذا ما يسميه الأنجليز بالحماية المقنعة وكان هـذا أيضاً هو رأى ذلك الفريق من الرأى العـام الأنجليزى الذى يؤمن

---

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : مصر المعاصرة - ١٩٥٩ - ص ٣٥ .

بالأمبراطورية والتوسع والاستعمار .وقد انتصرهذا الرأى فى انجلترا على ماعداه من آراء فيما يتعلق بمستقبل مصر بعد الاحتلال . ولكن سرعان ما تغيرت الظروف من وجهة النظر البريطانية . فيتشبث البريطانيون باحتلال مصر ووادى النيل ويعلنون هذا التشبث بلسان سولسبرى الذى يجاهر بأن احتلال انجلترا لمصر سوف يطول أمده . كذلك يعلن لورد روزبرى ، وزير خارجية بريطانيا ، فى عام ١٨٩٤ ، أن التفكير فى الجلاء أصبح مستحيلا . ذلك أن الظروف العالمية كانت قد تغيرت : ففرنسا تتوسع فى غرب أفريقيا ، وانجلترا كانت ترغب فى استرجاع السودان والسيطرة على وادى النيل . ووجد من الساسة الأنجليز من قال بأن الدولة العثمانية قد أصابها الانحلال فلا معنى للاعتراف بسيادتها على مصر، بل أنه من المستحسن اقتسام الدول لممتلكاتها . ويستمر هذا الوضع حتى تقوم الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وتدخل الدولة العثمانية الحرب إلى جوار المانيا ضد انجلترا وحلفائها .حينئذ تنهى انجلترا تبعيه مصر لتركيا وتنهى فى نفس الوقت « الحماية المقنعة » لتبدأ مصر عهداً آخر تحت وطأه الحماية الانجليزية السافرة .

ورغم الاحتلال وشدة وطأته فقد إستمر نمو الشعور القومى ولم تفلح وسائل الاحتلال فى القضاء على ذلك التيار . ورغم أن الثورة العرابية قد فشلت وبطش الانجليز بزعمائها بالنفى والسجن والتشريد ، فسرعان ماعاد المصريون إلى المناداة بحقوقهم ، لم يرهبهم بطش الاستعمار واضطهاده ولم ييأسوا من تسليم أوروبا بصفة عامة بالتدخل الانجليزى فى وادى النيل . وكان المصريون أحيانا يعتمدون على تضارب مصالح الدول لكسب الدول إلى صفهم فى المناداة بحقوقهم . وكانوا يعتمدون بوجه خاص على فرنسا ومعارضتها للاحتلال الانجليزى . بل ووجدت جمعية فى مصر تؤيد الحركة الوطنية وتتأسس من مصريين

وفرنسيين مقيمين فى مصر[1] . ولكن سرعان ما عقد « الوفاق الودى » (١٩٠٤) بين انجلترا وفرنسا ، وبه تصفى الدولتان مشاكلهما الأستعمارية فى العالم . واشتمل ذلك الوفاق ، ضمن ما شمل ، على اتفاق بنفض أيدى فرنسا من مصر فى مقابل أن تنفض انجلترا أيديها من مراكش . ومع ذلك ، لم يشعر المصريون باليأس بل زادوا ايمانا بقضيتهم وزادت نقمتهم على السياسة الأوروبية عامة وزاد إعتمادهم بالتالى على أنفسهم .

والطريقة التى حكم بها الانجليز مصر لم تؤد سوى إلى إثارة الشعور القومى وتحديه . فلورد دفرين ، سفير بريطانيا فى الاستانة والذى أرسلته حكومته إلى مصر عقب الاحتلال لدراسة البلاد تمهيدا لحكمها ، يقرر أساليب استعمارية لحكم مصر . ثم يجىء ايفلين بيرنج معتمداً لحكومته فى مصر — وقد عرف فيما بعد باسم لورد كرومر — ويوافق على تلك القرارات وينفذها . ويرى دفرين ضرورة تصفية الثورة المصريه والجيش الثائر ، وانشاء جيش صغير لا يزيد عن ستة آلاف جندى للقضاء على التعصب الدينى كما كان يرى ، أو بمعنى آخر للقضاء على أى تمرد داخلى ضد السلطة القائمة . وذلك مع أخضاع الجيش الجديد للسيطرة الانجليزية ، وتعيين قائد انجليزى وإستخدام ضباط انجليز ، وإغلاق المصانع الحربية وازالة البحرية وتعطيل الترسانة بالاسكندرية . ويرى دفرين أيضاً ادخال عناصر أوروبية فى البوليس وتعيين مفتش عام انجليزى للبوليس وادخال عناصر أوروبية فى القضاء الأهلى وجعل التعليم يقتصر على خدمة مصالح الاحتلال . أما من حيث

---

[1] — أنظر : دكتور محمد أنيس : صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل — ١٩٦٢ — ص — ٩ .

نظام الحكم ، فلم يقترح دفرن تغييراً كبيراً فى أساس هذه النظم . فمصر لها مركز دولى خاص وعليه أن يتقيد به . وعلى ذلك فالخديوى يظل كما كان ، يستمد سلطته من الباب العالى وله حق تعيين الوزراء وإقالتهم لكن كل ذلك سوف يكون من الناحية النظرية فحسب . أما من الوجهة العملية فالانجليز فى مصر سوف يصبحون المرجع النهائى فى كل الأمور . فعلى الخديوى أن يعتمد فى سلوكه على رضاء الممثل الانجليزى فى مصر ، والوزراء لن يكون لهم نفوذ حقيقى بعد تعيين المستشارين الأنجليز . كذلك رأى دفرين عدم تدعيم سلطة الخديوى الإستبدادية بل يرى انشاء مجالس استشارية تشكل بالتعيين والانتخاب لمساعدة الحكومة. فيوصى بانشاء مجلس شورى القوانين (٣٠ عضواً) . وجمعية عمومية (٨٠ عضواً) . وهى اقتراحات قصد منها كما يبدو توطيد دعائم الحكم الأنجليزى فى مصر والاطاحة بما بقى لأى مسئول فى مصر من نفوذ فى أمور البلاد .

بهذه الطريقة تحكم انجلترا مصر وتنفذ سياستها الاستعمارية دون منازع خطير. وتقوم سياسة لورد كرومر الاساسية فى مصر على أن تبقى لانجلترا الهيمنة على شئون مصر الداخلية والخارجية وأن ينقل لها كل ما يدعيه الغير من حقوق فى مصر وعلى مصر . وكل ما عدا ذلك فكانت مسائل ثانوية بالنسبة له . فلم يكن يهتم قليلا أو كثيراً بضم مصر إلى الأمبراطورية البريطانية، بل وكان يرى عدم جدوى ذلك مادامت انجلترا تحقق أغراضها بدونه . ويبدو من نظام الحكم ذلك، أن انجلترا كانت تهدف إلى تشتيت الجهود حتى لا تتحد ضد العمل الانجليزى فى مصر . فصار الناس مثلا يخشون من عودة الحكم المطلق وشروره ، والعرش يخشى عودة العرابية ، والرجعيون يخشون انتشار دعوة التجديد ، والمجددون يخشون بطش الرجعية ، ورجال الحكومة وأصحاب المصالح ـ وهم من خلق عهد الاحتلال ـ يخشون أن تطغى السياسة فتشل حركة البلاد كما يعتقدون. وسرعان

ما ظهر أثر الاحتلال فى شتى نواحى الحياة المصرية بشكل لم يقبله المصريون : صارت نظم الحكم صورية ، وضاق التعليم فى حدوده وبرامجه وزاد نفوذ الاجانب وتدفقت رؤوس الأموال الأجنبية للاستغلال فى مصر والسيطرة على إقتصادياتها بالتالى وتركز جانب كبير من الثروة القومية فى يد الأجانب واضمحلت الصناعة المصرية ... الخ . كذلك أثار الشعور القومى تدخل الانجليز فى كل شىء فى الحكومة . فسلطة المعتمد البريطانى لم يكن لها حدود . والموظفون الأنجليز لا يأتمرون إلا بأمره وليس للحكومة عليهم ما للحكومات عادة من حقوق إزاء موظفيها ، فلا تملك ازاءهم مثلا حق الرقابة أو الفصل . أما الوزراء وكبار الموظفين المصريين فكان عليهم استشارة الانجليز فى كل شىء . كذلك زاد فى النقمة على الإنجليز أن إنجلترا لم تساعد المصريين على الغاء نظام الامتيازات الأجنبية الذى كان يحد من سلطة الدولة على رعاياها من المصريين أنفسهم فضلا عن الأجانب ، والذى كان عائقا دون أى إصلاح حقيقى . ولكن انجلترا لم تكن بطبيعة الحال لتغامر بصداقة دول أوروبا فى سبيل إرضاء المصريين أو إصلاح الأمور فى مصر .

كانت هذه هى حال مصر فى السنوات الأولى للاحتلال البريطانى . كانت مصر وطنا جريحا تتلاقفه النوائب والمصائب . وكأن ما حدث لم يكف فتقوم الثورة المهدية فى السودان وتقف مصر عاجزة ازاءها . وفى خلال هذه الازمة لا تسمح انجلترا لمصر باستخدام الجيش المصرى الجديد الذى ينظمه ويشرف عليه الضباط الانجليز ، أو التصرف فى قرش مما يستحقه الدائنون . وبذلك تتأزم الأمور فى السودان وترغم انجلترا مصر على الانسحاب من هناك ، متخذة من هذه القاعدة دستوراً فى حكم مصر : « مادام الاحتلال قائما فما تنصح به حكومة

جلالة الملك أمر لايبقى فى الوزارة أو فى المناصب من لايذعن له »(١). وتفقد مصر ثلاثين ألفا من جنودها وآلافا من المدنيين إبان سقوط الخرطوم (١٨٨٥).

عباس حلمى وكرومر :

ويجىء حكم الخديوى عباس حلمى الثانى (١٨٩٢ - ١٩١٤). ويجد المصريون أنفسهم وقد ثبت الاحتلال أقدامه ، وطويت الوعود القائلة بإنهائه . فأصبح المصريون لاتجتمع لهم كلمة إلا على أمنية الجلاء والاستقلال ، ولكن كلمتهم تفرقت بعدئذ على العمل السياسى . على أية حال تساعد الظروف على نمو التيار القومى فى تلك الفترة ، لاسيما ما كان من اصطدام الخديوى عباس باللورد كرومر. فعباس كان متبرما بسياسة المعتمد البريطانى (كرومر) وكان يميل نحو تركيا ونحو الحكم الشخصى . وكان لهذا يرى أن الاحتلال لايستند إلى سند شرعى وأن الوضع السياسى فى مصر لايزال يعتمد من الوجهة القانونية على معاهدة لندن (١٨٤٠) والفرمانات المؤكدة لهذه المعاهدة بالاضافة إلى الفرمانات التى استطاع اسماعيل الحصول عليها بشأن اختصاصات ومسئوليات الخديوية . وعباس فى معارضته للاحتلال يرى أن يستعين بالقوى الداخلية . فاتجه إلى الضباط المصريين فى الجيش المصرى أول الأمر فتقرب اليهم واتخذ من الزى العسكرى زيا عاديا له. كذلك لجأ عباس إلى الإستعانة بمجموعة المثقفين من الوطنيين المتطرفين ، ولعل ذلك هو السبب الذى من أجله يوفد الخديوى عباس مصطفى كامل إلى أوروبا فى صيف عام ١٨٩٥ - كما تؤكد خطابات مصطفى كامل (٢) - للدعاية للقضية

---

(١) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية - ١٩٥٢ - ج ١ ص - ٢٣

(٢) أنظر : صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل (١٨٩٥ - ١٨٩٦) - نشرها وقدم لها الدكتور محمد انيس - ١٩٦٢ .

المصرية فى الخارج . واتصال الخديوى بالعناصر الوطنية المعادية للاحتلال أوجد فى صفوف المعية الخديوية عناصر مشبعة بهذا الاتجاه . وقد أفادت الحركة الوطنية من صداقة مصطفى كامل بهؤلاء . وكان الخديوى فى اتصالاته وعلاقاته بمصطفى كامل حريصا كل الحرص على ألا يعلم جواسيس كرومر بأمر هذه العلاقة (١) . ولكن من المرجح كثيراً أن الخديوى عباس لم يكن على استعداد للسير طويلا مع الحركة الوطنية وضد كرومر إلى حد تصفية الاحتلال نهائيا . إنما كانت معارضته المترددة لسياسة كرومر تهدف إلى المشاركة فى السلطة فى ظل الاحتلال لاسيما وأن كرومر كان عنيداً ولم يكن مستعداً لأن يشاركه أحد سلطته فى مصر . فراح يرقب حركات الخديوى ويتربص الفرص لاعطائه درسا قاسيا . ويطلب كرومر زيادة جيش الاحتلال لارهاب الخديوى وارهاب المصريين . كذلك يبطش كرومر بالخديوى المرة تلو الأخرى ولكن الخديوى على أى حال يعدل موقفه المعارض من الاحتلال بعد استعفاء كرومر وتعيين (جورست) خلفا له . وهذه هى الخطة المعروفة باسم سياسة الوفاق بين عباس والمعتمد البريطانى من عام ١٩٠٧ الى ١٩١١ . وعلى ذلك فيمكن اعتبار تقارب عباس من الحركة الوطنية فى مصر ومن فرنسا أيضا ، كطريقة للضغط على سياسة الاحتلال وتعديل سياسة كرومر . ويتنكر عباس للحركة الوطنية بعد رحيل كرومر ويعلم الوطنيون تماما أنه لا يمكن بحال الاعتماد على إخلاص أسرة محمد على للحركة القومية . ومن ناحية أخرى فلاحظ أن سياسة كرومر وحكومته، وتحديه للشعور القومى ، وإعلان الحكومة الانجليزية أنها لن تغير سياستها بالنسبة لمصر ولن تهتم بالشعور القومى ، كل ذلك لم يضعف من الحركة القومية المصرية ، بل زادها قوة .

---

(١) نفس المرجع ص — ٨ .

مصطفى كامل ومحمد فريد :

فى مثل هـذه الظروف يبرز الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل (١٨٧٤ — ١٩٠٨) على مسرح السياسة المصرية. والحركة الوطنية والحزب الوطنى لم يكونا من ابتكار مصطفى كامل ولم يكن كذلك أول من نادى بهما . ولكن حركة مصطفى كامل والحزب الوطنى هما امتداد لحركة وطنيـــة وحزب سرى كانا موجودين من قبل . وكان هناك رجال مهدوا لمصطفى كامل طريق الدور العظيم الذى قام به . فكانت هناك جماعة تضم الخيرة من رجال مصر تكون حزبا وطنيا يتناول شئون البلاد بالبحث ولكن دون ما تنظيم . وإلى هذا المجتمع انضم مصطفى كامل وهو طالب فى سن الثامنة عشر وأخذ يكتب المقالات وينشرها فى الصحف. وفى هذا المجتمع استمع مصطفى كامل إلى رجال مثل لطيف سليم الذى كان يرى أنه لا بد من تكوين حزب منظم يعمل لصالح البلاد ويدافع عن حقها وكرامتها . فمصطفى كامـل اذن لم يظهر فى فترة قد انعدمت فيها الروح الوطنية ولم يخلق هذه الروح من العدم وانما ظهر مصطفى كامل فى عهد كانت الروح الوطنية فيه قائمة غير خامدة وكان هناك وطنيون تشغلهم أمور الوطن وحقوقه . ومهد لظهور مصطفى كامل رجال مثل على مبارك ولطيف سليم وعبد الله نـديم (١)

وينظم مصطفى كامل الحزب الوطنى ويكونه عام ١٩٠٧ بعد أن كان أسما يطلق على جماعة من الوطنيين . ويجعل الحزب جلاء القوات الانجليزية من مصر هدفا له وشعارا ولذلك يطلق عليه حزب الجلاء . ونادى مصطفى كامل

---

(١) أنظر : فتحى رضوان — مصطفى كامل — ١٩٤٦ — ص ٣١ .

بحقوق مصر وانتقد الانجليز نقداً لاذعاً . وهو يوجه المصريين إلى ما لهم من حقوق وينادى بتوحيد الصفوف ومحاربة الاحتلال ويعمل على إيقاظ المصريين من غفوتهم ونفض اليأس والاستسلام عنهم، ذلك الشعور الذى انتاب كثيراً من المصريين بعد فشل الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى وتسليم معظم أوروبا بذلك الاحتلال . وهو فى دفاعه عن قضية بلاده يدعو لها فى وادى النيل وفى الخارج عن طريق الخطب والمقالات والرسائل والاتصال برجال الصحافة والسياسة فى أوروبا ولاسيما فى فرنسا ، وبذلك جعل للحركة الوطنية فى مصر أنصاراً وأصدقاء من أكبر الكتاب فى فرنسا وايطاليا والمانيا وانجلترا ومن النواب والصحفيين والثوار والمجاهدين فى هذه البلاد .

وتعاون مصطفى كامل مع الخديوى كان له ما يبرره كما أنه لا ينقص من قدر الحركة الوطنية . فهذه الحركة كانت وقتئذ بلاشك أضعف من أن تقف بمفردها فى المعركة . ثم أن مصطفى كامل كان يضع فى الاعتبار هدفاً واحداً هو الجلاء وعدواً واحداً هو الانجليز . لذلك كان مصطفى كامل على استعداد للتعاون مع كل القوى الداخلية والخارجية المعارضة للاحتلال (١) .

وكان مصطفى كامل يرقب بدقة تطورات السياسة البريطانية فى وادى النيل . وعند عقد اتفاقية السودان (١٨٩٩) التى أكرهت بريطانيا مصر على ابرامها ، والتى بمقتضاها صار السودان شركة بين مصر وانجلترا ، يعلن مصطفى كامل سخطه واحتجاجه عليها . وتتوالى مواقفه الوطنية . وقد الهبت حادثة دنشواى(٢) (١٣ يونيو ١٩٠٦) الحركة الوطنية فى مصر وزادت من السخط على انجلترا . وكان للطريقة التى جرى بها عدوان شرذمة من جنود الاحتلال جاءت تتلهى

---

(١) يتفق فى ذلك التفسير لموقف مصطفى كامل ، كل من المرحوم محمد شفيق غربال ، والدكتور محمد أنيس أنظر : تاريخ المفاوضات ص ٢٧ وصفحات مطوية ص ١٣ .

(٢) انظر : عبد الرحمن الرافعى — مصطفى كامل — ١٩٤٥ — ص ١٦٦ الى ص ٢٠١ .

بالصيد فى حقول الفلاحين الآمنين وتتلف محصولهم الذى جمعوه بالجهد والعرق، والطريقة التى جرت بها محاكمة أكثر من خمسين متهما بقتل ضابط بريطانى ثبت من شهادة الطبيب الشرعى الانجليزى أنه مات متأثرا بضربة شمس ، ثم الحكم الجائر باعدام أربعة من الفلاحين وبالأشغال الشاقة والجلد على سبعة عشر من الباقين ، ثم تنفيذ أحكام الاعدام شنقا وأحكام الجلد فى اليوم التالى من المحاكمة فى نفس المكان الذى مات فيه الضابط البريطانى ، فى رابعة النهار وعلى مرأى ومسمع من الأهل وبين صياح النسوة وعويلهن ، كان لكل ذلك أثره فى الهاب الحركة الوطنية فى مصر . ففى دنشواى ظهر الاحتلال على حقيقته . وآمن من لم يكن قد آمن بصدق كلام مصطفى كامل بأنه لاينبغى على المصريين الانخداع بلين ملمس المحتلين ، فقد غلبت عليهم طبيعة زبانية الجحيم . وحمل الوطنيون وعلى رأسهم مصطفى كامل حملة شعواء على السياسة الانجليزية .

وفطنت انجلترا بعدئذ إلى أن الحركة القومية ليست حركة أقلية فى مصر بل أن الرغبة فى الحرية والاستقلال مطلب الشعب بأسره . ويعترف كرومر نفسه بوجود حركة قومية مصرية متميزة عن حركة الجامعة الاسلامية . ولكنه لم يكن يوافق على مبادىء الوطنيين والحزب الوطنى . وفشل فى موقفه ازاء القومية المصرية ، واستقال فى ابريل ١٩٠٧ وغادر مصر الى انجلترا . وبعد أيام من استقالته يردد مصطفى كامل فى صحيفة اللواء - التى كان قد أنشأها فى عام ١٩٠٠ لتكون مدرسة للصحافة والوطنية - يردد مصطفى كامل فى هذه الصحيفة ما ساء المصريين من سياسة اللورد كرومر فى مصر . ويذكر الناس بأن كرومر هو الذى سلب الحكومة الأهلية من كل وجود ونفوذ وحياة كما سلب العرش الخديوى كل سلطة أيضا ، وهو الذى فتح السودان برجالنا وأموالنا ثم جردنا من كل حق وسلطة فيه ، وهو الذى حرم الفقراء من التعليم فى مدارس الحكومة وحارب

اللغة العربية ، وهو الذى عمل ما بوسعه لمقاومة المطالب الوطنيه وإنكار كفاية الأمة واستعدادها لنيل الحقوق النيابية ... الخ . وظل الحـزب الوطنى يحمـل مشعل الحركة القومية ويطالب بالجلاء ويحمل على سياسة الاستسلام ويحث على الاتحاد بين عناصر الامة . ويموت مصطفى كامل وهو فى أوج نضاله وشبـــابه (١٩٠٨) . وبذلك عاش مصطفى كامل رمزاً للوطنية والتضحية .

ويجيء محمد فريد (١٨٦٨ - ١٩١٩) ليحمل رسالة مصطفى كامل ولواء الحركة القومية ويتزعم الحزب الوطنى . وكان محمد فريد فى جهاده يهدف الى الاستقلال والجلاء والدستور . وقد أدى ذلك إلى اصطدامه بسلطات الاحتلال وبالحكومة المصرية التى كانت تتعاون مع الاحتلال فخليفة كرومر فى مصر (جورست) ينحرف بشدة نحو السلطة الشرعية فى مصر ويطلق يد عباس الثانى فيما يحب عباس أن تطلق يده . وتسير الحكومة المصرية فى عهـد « الوفاق » هذا كما كان يطلق عليه ، على سياسه خنق الحريات . ويصيب الخديوى الغرور بكل ذلك ويبدأ فى التنكيل برجال الحزب الوطنى وعلى رأسهم محمد فريد ويلقى محمد فريد من الانجليز ومن بعض المصريين أنفسهم ألوانا من العـذاب . وهـو يقابل كل ذلك بالتفانى والتضحية ويستهدف السجن والمنفى . وفى ذلك الجـو الفاسد المسمم يضطرب الأمر بين مسلمى مصر وأقباطها . وهكذا تدخل مصر فترة الحرب العالمية الأولى مفككة محللة الأواصر . ويموت محمد فريد فى المنفى (١٩١٩) بعد أن ظل منفيا سبع سنوات ، وحيث ظل يحمل على الاستعمار ويطالب بالحرية لبلاده .

صهر قارة الفكر :

وإلى جانب مصطفى كامل ومحمد فريد ، هناك شخصيات أخرى لعبت دوراً لا يمكن اغفاله فى الدفع بالحركة القومية فى تلك المرحلة. فهناك عبدالله نديم(١٨٤٥- ١٨٩٦) الذى اسهم فى حركة الجهاد ضد الاستعمار فى هذه الفترة ، فيما بين سنتى ١٨٩٢،١٨٩٣، وذلك بعد اختفائه عشر سنوات عقب فشل الثورة العرابية. وأخرج النديم مجلة « الاستاذ » فكانت حدثا فى الصحافة المصرية . جعلها أول الأمر للاصلاح الاجتماعى فتبارى فيها الكتاب والشعـــراء وأشاعت فى الأوساط الأدبية حركة نشيطة . ولكن النديم استطاع بمقالاته فيها أن ينبه الأفكار الى موضوعات الساعة وأن يوقظ الرأى العام من سباته وأن يدعو المصريين - وقد أذلهم الاحتلال — الى النهوض للعمل من أجل مصر . وعن طريق « الاستاذ » أخذ عبد الله نديم فى مناهضة الاحتلال ومخاصمته والتنديد بجرائمه وآثامه . فعادت للنـاس الذكرى وتحركت النفوس للثورة . ولكن ذلك أفزع كرومر فنفى النديم وأغلق مجلته « الاستاذ » (١). وقد أخذ مصطفى كامل عن عبد الله نديم الكثير من أسرار الثورة العرابية . ولا شك أنه أفاد من روحه واستمع اليه وهو يتحدث وقرأ له « الاستاذ » .

وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ — ١٩٠٢) كان له دور فى بعث النهضة القومية وغرس فكرة الحرية فى الشعوب العربية . والكواكبي مفكر عربى من سوريا ، نشأ في حلب وكافح ظلم الحكم التركى وناضل ضد الاستعمار . أصدر صحفا عطلتها الحكومة التركية فهاجر الى مصر حيث التقى بزعماء الدعوة إلى مذهب التحرر الاسلامى مثل رشيد رضا وعلى يوسف صاحب « المؤيد » . وفى

(١) الدكتور على الحديدى : عبد الله النديم ص ـ ١٨ ـ ١٩ .

« المؤيد » نشر الكواكبي مجموعة من المقالات اصبحت فيما بعد مادة لكتابه طبائع الاستبداد وفيه حمل على ظلم الحكام وعلى الاستعمار. كذلك يؤلف الكواكبي كتابه (أم القرى) وفيه يدعو إلى اتحاد الشعوب الاسلامية عن طريق تنظيم دولى. وفى ذلك ينهج الكواكبي منهجا قصصياً ويتحدث عن جمعية اسلامية تعقد فى مكة (أم القرى) يحضرها ممثلون من كل الاقطار الاسلامية وكذلك ممثلون للمسلمين فى البلاد الغير اسلامية أو عربية . وتجتمع هذه الجمعية للبحث فى أسباب الضعف الذى أصاب الشعوب الاسلامية . ولعلاج ذلك يقترح الكواكبي انشاء جمعية دائمة تعنى باصلاح الدول الاسلامية وتشرف على تنفيذ برامج الاصلاح. وتجعل الجمعيـــة من أهم أهدافها تعميم التعليم فى البلاد الاسلامية وتوحيد مناهجه. وهو يضع كذلك قواعد لاقامة هذا التنظيم الدولى الجديد ويشترط للعضوية شروطا معينة منها شرط الالمام باللغة العربية كتابة وقراءة. ورغم أن هذه الجمعية تبدو غير سياسية فى مظهرها إلا أنه كان من أهدافها تحولها فى المستقبل من تنظيم دينى ثقافى إلى تنظيم سياسى. ولا شك أن أفكار الكواكبي كانت بذرة طيبة فى العالم الاسلامى انبتت فيما بعد نبتا مثمرا تمثل فى تتابع المؤتمرات الاسلامية وكان آخرها المؤتمر الاسلامى الرابع (١٩٥٤).

هناك أيضا محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥) . وقد حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات بعد فشل الثورة العرابية . ولم يلبث أن دعاه أستاذه جمال الدين الأفغانى ليوافيه الى باريس حيث اشتركا سويا فى اخراج مجلة « العروة الوثقى» (١٨٨٤) للنهوض بالشرق وتقوية الصلات بين الأمم الاسلامية . وكانت هذه الصحيفة أول صحيفة تقاوم الاحتلال فى عهده الاول وتدعو الامم الشرقية الى مناهضة الاستعمار. وكانت وراؤها جمعية سرية منبثة فى جميع الاقطار الاسلامية وأعضاؤها من المسلمين المثقفين والمخلصين[1]. ولكن الصحيفة احتجبت بعد

(١) انظر احمد أمين — زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ٨١ .

ثمانية شهور بعد أن نجحت انجلترا فى اضطهادها[1]. فرجع محمد عبده إلى بيروت حيث خلق هناك حركة علمية. وكان يهاجم الخديوى توفيق وهو فى المنفى ويقول عنه «أننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية». ولكن جهاد محمد عبده ضد انجلترا يقف عند هذا الحد. إذ يعود إلى مصر رغم أنف توفيق وتحت ضغط اللورد كرومر لإرجاعه. وفى مصر يتولى مناصب القضاء والإفتـــاء، ويعتزل السياسة العليا بالمعنى الذى كان يمارسها به من قبل. ويتجه إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى فى ظل المهادنة مع انجلترا وعملا بسياسة الأمر الواقع. وقد عرضه ذلك لعداء الحزب الوطنى ولكنه مع ذلك كان وفيا لأمته ومخلصا ونزيها. وقد تزعم محمد عبده زمنا أنصار المحافظة على القديم وذلك فى غمار اليقظة الاجتماعية والثقافية التى ظهرت فى ذلك الوقت. وكان يخشى ضياع الدين الإسلامى والتراث العربى فى حماس التجديد والأخذ بأساليب الحضارة الأوروبية، ويرى الرجوع إلى القديم الإسلامى الذى يختلف كثيراً عما علق بالدين من مستحدثات وخرافات وشوائب. ولذلك عمل محمد عبده على رد الدين الإسلامى إلى بساطته الأولى وبين أن مبادءه هى مبادىء كل عصر. فهى تحارب الطغيان وتنادى بالحرية والشورى والعدالة الاجتماعية. وقد ناصره فى هذه الدعوة عبدالرحمن الكواكبى وعبدالله نديم.

وفى ذلك المجال ينبغى أن نذكر أيضا قاسم أمين (١٨٦٣ — ١٩٠٨). وكان قاسم من أنصار الجديد فى معركة النزاع بين القديم والجديد. وتزعم حركة تحرير المرأة والمطالبة بالسفور فى كتابه (تحرير المرأة)، (المرأة الجديدة).

---

(١) يقرر مجلس الوزراء فى مصر مثلا (مايو ١٨٨٤) منع الجريدة من دخول مصر «حفظا للنظام العمومى» ومعاقبة كل من يحوزها بغرامة تصل إلى خمســة جنيهات. أنظر: عبدالرحمن الرافعى: مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال - ١٩٤٨ — ص ١٦١

وهو إلى جانب ذلك قد خدم الحركة الوطنية واتصل بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وانضم إلى جمعية العروة الوثقى وكانت له جولات مشرفة مع ممثلي الاستعمار في مصر . وقد ردد قاسم أمين الفكرة القائلة بأن الاستبداد أصـــل كل فساد في الأخلاق . وردد هذه الفكرة غيره مثل الكواكبي . وهي فكرة على أية حال كانت معروفة من قبلهما في أوروبا . وقد كتب قاسم أمين سلسلة من المقالات جمعت فيما بعد تحت عنوان (أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ) نشرت في جريدة المؤيد متتابعة حتى عام ١٨٩٨ . وفي هذه المقالات يسطر قاسم خواطره عن بعض نواحي الإصلاح الاجتماعي الذي هو أساس لكل إصلاح سياسي(١) .

(١) هناك ملخص لهذه المقالات بضمه كتاب قاسم أمين للدكتور ماهر حسن فهمي (ص ١١٦– ١٣٣)

الحركة القومية والاحتلال الإنجليزى (٣)

الحماية السافرة (١٩١٤ - ١٩٢٢)

مصر أثناء الحرب

قامت الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها أعلن الانجليز الحماية على مصر (١٨ ديسمبر ١٩١٤) . أو بمعنى آخر فرضوها بالقوة على مصر نتيجة لقيام الحرب واشتراك تركيا — صاحبة السيادة على مصر — فى الحرب ضد انجلترا وفرنسا والروسيا. وهكذا صارت الحماية سافرة بعد أن ظلت مقنعة منذ الاحتلال الانجليزى حتى قيام الحرب . وباعلان بريطانيا لحمايتها على مصر والغاء زوال سيادة تركيا عليها ، تتخلص مصر من تلك السيادة بعد أن ظلت مفروضة عليهـا منذ أربعة قرون لم تحرز مصر فى ظلها — فيما عدا النذر اليسير فى فترات من القرن التاسع عشر — أى تقدم فى النواحى السياسية والإجتماعية ، بل زادت فقرا وبؤسا وسوءا . وانحطت فيها كما انحطت فى كل البلاد الخاضعة للدولة العثمانية الحياة الثقافية والفنيـة والأدبية وتأخرت مصر عن العالم الأوروبى المجاور بمدة تقرب من الأربعة قرون.

ولكن اذا كانت مصر قد تخلصت من السيادة العثمانيـة ، فهى فى الواقع قد استبدلت ، أو أريد لها أن تستبدل ، استرقاقا باسترقاق . لقد جاءت الحماية البريطانيه لتقيدها بقيود الحماية مدة سبع سنوات . وكانت قيود الحماية السافرة أشد من قيود الحماية المقنعة والاحتلال فى انتهاكها لحرمة مصر وكرامتها . فازداد اشراف الانجليز على الأمور الداخلية والخارجية وأعطوا أنفسهم حق الدفاع عن البلاد ، وسخروا كل مواردها لخدمة الحرب ولخدمة مصالحهم الخاصة وأهدافهم الاستعمارية . واتخذت مصر قاعدة

لعمليات الانجليز الحربية فى الشرق الأوسط وتحولت البلاد إلى معسكر هائل حشدت فيه أخلاط وأجناس من قوات الامبرطورية. وأصبحت مصر قاعدة للغزو والتسلط وتحركت منها حملة جاليبولى لاقتحام مضيق الدردنيل والاستيلاء على القسطنطينية كبرى القواعد الاسلامية ، والحملات نحو الشام شرقا وليبيا غربا . وتحركت من مصر أيضا حملات المخابرات والدعاة لاثارة العرب على تركيا وحملات التضليل والخداع الكبرى . وأرهقت مصر خلال فترة الحرب فى سبيل امداد القوات الانجليزية بالمواد الغذائية وبالايدى العاملة . وجندت انجلترا مايزيد على المليون من الشعب المصرى وسيقوا قسرا الى معارك الشام ، بعد أن أطلقت عليهم لفظ متطوعين أمام الرأى العام العالمى . كذلك استولت بريطانيا على المحصولات الزراعية بثمن بخس وتحكمت فى أسعار الأقطان . واشتدت السلطات البريطانية فى جمع المواد الغذائية والدواب وارتفعت أثمان الحاجيات .واستخدمت المرافق العامة كالسكك الحديدية واستعملتها لدرجة العطل كما حولت مبانى المدارس الى مستشفيات . وزاد الشعب شقاء خصوصا طبقة الفلاحين والعمال والموظفين (١)

وقد استطاعت انجلترا أن تكبد المصريين طوال هذه الفترة فخفتت أصواتهم خلال مدة الحرب . وشددت الرقابة على الصحف لصالح الحلفاء واختفت فى ظل الرقابة الصحافة الوطنية صحيفة بعد صحيفة . وصارت الاجتماعات محظورة وقامت حركة اعتقالات ونفى وتشريد بمجرد الشبهة أو الوشاية . وكانت مصر خاضعة لانجلترا رأسا ليس لها أمر فى آداء شئونها الداخلية أو الخارجية وأصبح الحكم البريطانى هو المشرف على كل شىء . وفى ظل هذه الاجراءات وفى ظل الحكم العرفى انطوى المصريون على آلامهم وأحزانهم . ورغم السخط الذى كان يعتمل فى النفوس لم تحدث خلال الحرب موجات من التذمر ولم تندلع

---

١ — أنظر : مصر المعاصرة لصفوت : ص٩٣ ، تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية لشفيق غربال : ص ٤٦ ، ثورة سنة ١٩١٩ للرافعى ص ٥٦ .

نيران الثورة . . فالتدابير العسكرية التى كانت قد اتخذتها القيادة العسكرية عملت بشدتها على مجابهة تلك الاحتمالات . ثم أن فشل القوة التركية التى أرسلت الى مصر فى عبور قناة السويس (فبراير ١٩١٥) وارتدادها على أعقابها أمام الانجليز ساعد أيضا على بقاء مصر هادئة طوال فترة الحرب . ومع اطمئنان السلطات العسكرية فى مصر الى الموقف ، فقد ظلت ساهرة معتمدة على الاحكام العرفية لقمع أقل اتجاه الى الثورة . فتبدأ مثلا حركة « تطهير » العناصر المعادية لانجلترا فى مصر ، عقب فشل الحملة التركية ، سواء كانوا من أنصار الخديوى المخلوع (مثل الشاعر أحمد شوقى) ، أم من الحزب الوطنى (مثل عبد الرحمن الرافعى) وذلك بالنفى والاعتقال . ويروى محمد حسين هيكل فى مذكراته أنه كلما زادت الاحوال العالمية تعقيدا وكلما زاد الموقف حرجا بالنسبة للانجليز اشتدت السلطات العسكرية البريطانية فى مطالبة أهل الريف المصريين بغلاتهم ودوابهم ، واشتدت الرقابة على الصحف وتعطل كل مظهر من مظاهر الحرية ، وبقى المصريون سجناء فى بلادهم سواء منهم المعتقل وغير المعتقـــل (١) كذلك تحرم انجلترا على مصر الاتصال باعداء الانجليز أو التعاون معهم . وهى فى خلال الحرب تتفاوض مع العرب على مصير بلادهم وتعطيهم وعودا ما كانت تنوى تنفيذها وتعطى اليهود وعودا حرصت على تحقيقها ، وتعقد من المعاهدات السرية ما شاءت لتقسيم البلاد العربية بينها وبين حليفتها فرنسا .

ومن حيث نظام الحكم تقضى انجلترا على نظام الخديوية وتلغيه ، وكان ذلك نظاما أقرته تركيا لمصر فى عهد اسماعيل ، وتحل انجلترا محله نظام السلطنة . وقد فضلت انجلترا الابقاء على حكم أسرة محمد على ورأت الاستفادة من كل النظم التى تخدم مصالحها . فما كانت مثلا لتقدم على ادخال النظام الجمهورى الى مصر مع أنه أقرب الى نفوس الشعب . بل ونجدها تظهر استعدادها لتولية أمير هندى عرش مصر اذا لم

---

(١) ح ١ - ص ٧٤

تجد من يتعاون معها من أسرة محمد على . ولذلك توجد انجلترا نظام السلطنة فى مصر ولجيه يستمد السلطان سلطته من ممثل الحكومة الانجليزية فى مصر . وتخلع الخديوى عباس ، فهى لم تكن تطمئن اليه ولم تنس مواقفه من كرومر ونزعته إلى الحكم المطلق . وأحلت محله حسين كامل (أخا توفيق) الذى يقبل المنصب فى ظل الحماية والتعاون مع الاحتلال . ولما مات حسين كامل وضعت إنجلترا أخاه فؤاد . ولم يكن لكلى السلطانين فى ظل الحماية نفوذ حقيقى . فالأحكام العسكرية البريطانية كانت هى السائدة فى البلاد ، ولم يحاول أحدهما الاصطدام بممثـــل انجلترا فى مصر أو إنتهاز الفرصة وانتزاع وعد من انجلترا بخصوص مستقبل مصر وحقوقها . ولم يطلب حسين كامل أو فؤاد من انجلترا إعادة النظر فى الحماية والعلاقة بين البلدين فى نهاية الحرب . ولذلك لا يمكن إعفاء كلا من حسين كامل وفؤاد من مسئولية إثبات حقوق مصر فى ذلك الوقت . ولم يفهم هؤلاء النـــاس أن الحكومة الانجليزية كانت فى ذلك الوقت فى حاجة ملحة إلى قيام حكومة شرعية فى مصر ، ولذا فكان يمكنهما انتزاع وعد من الانجليز بأن الحماية إجراء مؤقت . ولم يقف الأمر بانجلترا عند هذا الحد بل نجدها تشرع فى وضع مشروع قانون نظامى لمصر ينزل بها الى مرتبة المستعمرات . ويتلخص هـذا المشروع فى انشاء مجلس نيابى مصرى استشارى بحت ، وبجانبه مجلس شيوخ يملك وحـــده السلطة التشريعية يتكون من خليط من المصريـين والأجانب من الرسميـين كالوزراء المصريين والمستشارين والموظفين البريطانيين ، وأعضاء منتخبين من المصريين والأجانب ويتنخبون بطريقة كثيرة القيـــود والشروط بحيث تكون الأغلبية فى ذلك المجلس للأعضاء الرسميين والأجانب ، والأقلية للمصريين المنتخبين ويقـــدم الإنجليز هذا المشروع إلى رشدى باشا رئيس الحكومة فى أواسط نوفمبر ١٩١٨ ولكن رشدى حمل حملة صادقة على المشروع وأعلن استنكاره له .

هذه العوامل مجتمعة كانت من أسباب تفجير الثورة العارمة عام ١٩١٩ ، كما

كانت أيضا من أسباب الهدوء الذى بدا عليه الشعب المصرى طوال سنى الحرب. ويمكن القول أن ذلك الهدوء كان إنما الهدوء الذى يسبق العاصفة الآتية لا محالة لوجود عواملها . وربما كان المصريون - كما كان المتطرفون منهم - يعتمدون على انتصار ألمانيا فى الحرب وهزيمة إنجلترا كوسيلة يحققون بها الجلاء والاستقلال . وقد كانت هزائم الإنجليز فى الحرب على أية حال مبعث رضى الجانب الأكبر من الشعب ، ومتنفسا لما كان يلاقيه الشعب من الضيق . ثم أن مصر فى هذه الفترة كانت تنقصها الزعامة الحقة والقيادات الحكيمة الأمر اللازم لحركة كهذه مضادة ومعرقلة للعمل الانجليزى فى مصر . فمصر قد أقبلت على هذه الفترة الحرجة من تاريخها وتاريخ العالم مفككة الروابط . ويود البعض أن يقول - دفاعا عن شعب مصر عموما وعن قادة الرأى فيها خصوصا - إن الشعب لو علم فى عام ١٩١٤ ما ستنزله إنجلترا ببلادهم أثناء الحرب وبعد الحرب ، ولو علم القادة مبلغ إستعداد الشعب المصرى للتضحية فى سبيل حريته وكرامته كما حدث عام ١٩١٩ ، لو حدث ذلك لسجل التاريخ فى عام ١٩١٤ موقفا للشعب وزعمائه غير الذى سجل (١).

انتهاء الحرب وقيام الثورة

وتنتهى الحرب وتعقد الهدنة بين ألمانيا والحلفاء (١١ نوفمبر ١٩١٨) ويحين الوقت لحساب الإنجليز لاسيما بعد أن أعلنت مبادىء الرئيس الأمريكى ولسون الأربعة عشر وفى مقدمتها حق تقرير الأمم لمصيرها . ولهذا يغتبط البعض ويتفاءل خيراً بصحوة الضمير فى بعض الدول الكبرى . ولكنهم لايلبثون أن يصدموا بالواقع الذى يميز تغلب روح الجشع والمطامع الذاتية للدول الكبرى ، فلايعنون

---

(١) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية جـ ١ - ص ٥٩ .

قليلا أو كثيرا بتطبيق ذلك المبدأ على منطقة الشرق الاسلامى وغيرها من البلدان المستضعفة. على أى حال يتألف الوفد المصرى (١٣ نوفبر ١٩١٨) فى هذه الظروف وكله أمل فى إبلاغ صوت مصر إلى الانجليز والعالم . وقد تألف الوفد المصرى فى أول الأمر هيئة تتكلم باسم الشعب المصرى وتسعى إلى الاستقلال حيثما وجدت للسعى سبيلا . ولكنها تطورت فيما بعد وأصبحت حزبا سياسيا . وقد تكونت تلك الهيئة من مجموعة من أعضاء الجمعية التشريعية وصحفى هو لطفى السيد وذلك برئاسة سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية. وحتى ذلك الوقت وقبيل حدوث ثورة عام ١٩١٩ لم يكن سعد زغلول بالوطنى المتطرف بل كان من فريق المعتدلين الذى يود التفاهم مع الانجليز حتى يمكن المضى فى طريق الاصلاح الضرورى لتقدم البلاد. ويتقدم سعد زغلول وزميلاه على شعراوى وعبد العزيز فهمى عضوا الجمعية التشريعية إلى المعتمد البريطانى (ونجت) فى ١٣ نوفبر ١٩١٨ وذلك للتحدث اليه فى مطالب البلاد واطلب التراخيص لهم بالسفر إلى لندن لعرض تلك المطالب . ودار حديث بين الوفد وونجت يسوده الاعتدال والتساهل من الجانب المصرى. فسعد يعترف لونجت بأن انجترا أقوى دولة فى العالم وأوسعها حرية ويعترف لها بالأعمال الجليلة التى باشرتها فى مصر . ويطلب الوفد الاستقلال ويبين أن مصر مستعدة — متى اعترفت انجلترا بهذا الاستقلال — أن ترتبط مع انجلترا بمعاهدة صداقة ولكن صداقة الحر للحر لا العبد للعبد، وأن مصر مستعدة لضمان مصالح انجلترا فى الطريق الحيوى إلى الهند .

هذا هو يوم ١٣ نوفبر الذى اعتبرته مصر يوم الجهاد . على أية حال كانت هذه المقابلة من الشرارات التى أطلقت عنان ثورة سنة ١٩١٩ من عقالها . فأنباء مقابلة سعد للمعتمد البريطانى سرعان ماسرت فى البـــلاد باعثة الأمل فى نفوس المصريين بعد ماقاسوه طوال فترة الحرب . وهم لذلك يعقدون آمالهم على الوفد

وقد وجدوا فيه القيادة التى تتكلم باسمهم وتعبر عن آمالهم. ويلتف الشعب حول الوفد رغم وجود منظمات أخرى نافست الوفد أمر المطالبة بالاستقلال وأمر النيابة عن الشعب مثل الحزب الوطنى أو مثل ذلك الحزب الذى كونه جماعة من الشباب وأطلقوا عليه اسم الحزب الديمقراطى . وتتابعت بعد ذلك الظروف والأحداث متلاحقة لتقوى من مركز الوفد أمام الشعب وتزيد الشعب التفافا حوله. ولكن يلاحظ أنه يبدو أن خطة الوفد لم تكن تعتمد على ثورة أو نضال شعبى يحقق للبلاد سيادتها واستقلالها بل كانت تقوم على التفاهم مع الانجليز وإلا ترك لرشدى باشا ورجال الحكومة أمر التحدث إلى انجلترا . كذلك يبدو أنه كان هناك تفاهم بين رئيس الحكومة — رشدى باشا — والقادة على أن يكون هناك مسعيان : أحدهما رسمى يتولاه رئيس الحكومة لدى الحكومة الانجليزية والآخر شعبى يشد أزر الرسميين لدى الشعب المصرى نفسه ولدى الرأى العام فى انجلترا وفى غيرها من الدول وأمام ممثلى الدول فى مفاوضات الصلح .(١)

وتحس الحكومة الانجليزية بخطر الحركة الجديدة التى يتزعمها سعد ، وترفض له التصريح بالسفر إلى الخارج لعرض قضية مصر. وكان ذلك الرفض شرارة أخرى ساعدت على اشعال نيران ثورة عام ١٩١٩ . وغير هذا الرفض من خطة الوفد وجعل من الوفد والانجليز خصمين يصعب التفاهم بينهما . وبدأ الوفد فى الاتصال بمعتمدى الدول الأجنبية فى مصر يعلمهم بتأليف الوفد ويوضح لهم برنامج الأمة فى ست نقاط على رأسها طلب الاستقلال التام والحكم الدستورى . وهذا برنامج أيضا ينطوى على اعتدال وتساهل إلى حد كبير. فهو يعلن عزم مصر على الاستفادة بذوى العلم من أهل البلاد الغربية فى تنفيذ برنامج اصلاحى شامل وعزمها أيضا

(١) انظر مذكرات فى السياسة المصرية ١٩٥١ جـ١ص ٨٢ ؛ وكذلك تاريخ المفاوضات المصرية الانجليزية جـ١ص ٥١ .

أيضا على احترام الامتيازات وتعهدها بالبحث فى وضع ضمانات خاصة بالالتزامات المالية والمحافظة على حياد قناة السويس . ويوالى الوفد الهجوم على السياسة الانجليزية فى مصر ويعلن سعد أن الحماية الانجليزية باطلة لاوجود لها قانونا، بل كانت ضرورة من ضرورات الحرب انتهت بنهايتها لاسيما وأنها تمت من جانب واحد فقط ودون رضاء الجانب الآخر(٧فبراير ١٩١٩).ويؤيد رئيس الحكومة وقتئذ (حسين رشدى) موقف الوطنيين فيقدم استقالته ويلح فى قبولها ، وذلك بعد أن أبلغته الحكومة الانجليزية رفضها الترخيص للوفد بالسفر ورأيها أن يؤجل هو أيضا سفره لعدم مناسبة الوقت ولانشغال وزير الخارجية الانجليزيه. وتقبل استقالة رشدى فى أول مارس ١٩١٩ .

وتوجه السلطات البريطانية إنذارا إلى الوفد المصري (٦ مارس ١٩١٩) بأن يبطل عرقلة سير الإدارة فى ظل الحماية وإلا تعرض الوفد للمعاملة الشديدة بموجب الأحكام العرفية . وهذا يعني تمسك الحكومة الإنجليزية بالحماية على مصر وعدم نيتها الإعتراف بالحقوق الوطنية . ولكن الوفد صمد للانذار . وفى يوم ٨ مارس يلقى القبض على سعد وبعض من أعضاء الوفد وتقلهم فى اليوم التالى باخرة إلى جزيرة مالطة وعلى ذلك تنفجر الثوره فى اليوم التالى (٩ مارس) . وكانت ثورة ضد الحماية البريطانية وما اتصل بها من نظام سياسي واقتصادى وفى سبيل التحرر والإستقلال . وهكذا نرى أن كل الظروف الداخلية والخارجية تؤدى وتمهد لقيام الثورة لاسيا بعد ما عرف عن مبادىء الرئيس ولسون المشهورة وما عرف عن ثورة الروسيا التحررية الكبرى ضد القيصرية ، ثم ما عرف عن تحرر شعوب وسط أوروبا من الحكم القيصرى والنمسوى وانهيار الدولة العثمانية وانهيار سيادتها على مصر . فانفجرت الثورة بين طبقات الشعب المصري وقامت المظاهرات العنيفة واصطدمت بالقوات البريطانية وأزهقت أرواح بريئة طاهرة.

وقامت حركات الإضراب واشتركت فيها طوائف الشعب المصرى وقواه العاملة . وخرجت السيدات فى مظاهرتهن المشهورة (١٦ مارس ١٩١٩) وتعرض لهن الجنود الإنجليز بخشونة وغلظة . وقال الشاعر حافظ أبياته يهزء فيهـــا الجيش الانجليزى بإنتصاره على مظاهرة السيدات ويسخر منه . وحارب الشعب بكل سلاح وجد تحت يديه وقطعت السكك الحديدية ودمرت المحطات وأسلاك التليفون والبرق وهوجمت مراكز الحكومة . وتحولت الحركة القومية من حركة سلبية إلى حركة عنيفة وقتل من الشعب المصرى فى الثورة حوالى الثلاثة آلاف .

وقاومت بريطانيا ثورة الشعب بإستخدام القوة ، كما لجأت إلى سياسة الإعتقالات والإضطهاد والانتقام . وعينت الجنرال « اللنبى » مندوبا ساميا فوق العادة لمصر والسودان وكلفته بأن يتخذ ما يرى لإعادة القانون والنظام . ووصل اللنبى إلى القاهرة يوم ٢٥ مارس ليعمل على إعادة الأمن والنظام إلى مصر ، أى ليقوم بقمع الثورة المصرية . ولكن كلما زاد القمع وزاد عدد الضحايا غلبت مراجل الوطنية . وبدأت إنجلترا تفكر فى تعديل موقفها من الوفد ، والحد من صلفها وكبريائها والسماح لسعد زغلول وأصحابه بالسفر إلى أوروبا (٧ أبريل ١٩١٩) ، ولكن بعد أن اتخذت انجلترا عدتها لكى يرفض مؤتمر الصلح الإستماع إلى مطالب مصر . وتعترف الولايات المتحدة الأمريكية فى أبريل بحماية بريطانيا على مصر ، وفى معاهدة فرساى (مايو ١٩١٩) تعترف المانيا بتلك الحماية أيضا . وبعد أن تم كل ذلك تعلن الحكومة الإنجليزية عزمها على إيفاد لجنة خاصة برياسة اللورد ملنر إلى مصر .

لجنة ملنر :

وبيدو من ذلك أن بريطانيا كانت تريد دراسة المسألة المصرية وحلها بالطريقة

التى تراها .وتألفت اللجنة برياسة ملنر وزير المستعمرات البريطانى وهو من قدامى رجال الإحتلال فى مصر .وبعد كتابة (إنجلترا فى مصر) من المراجع الهامة فى سياسة الإحتلال ، فملنر من الانجليز المتخصصين فى الشئون الاستعمارية بصفة عامة وشئون مصر بصفة خاصة . جاءت اللجنة إلى مصر للتحقيق فى أسباب الثورة المصرية وتقديم تقرير عن الحالة بمصر ووضع دستور لمصر يعمل فى ظل الحماية ويعمل على توسيع نطاق الحكم الذاتى فى مصر وعلى حماية المصالح الأجنبية بها .
ولكن اللجنة وجدت مقاطعة تامة من كل الهيئات . فنشرت بيانا فى الصحف (٢٩ ديسمبر ١٩١٩) تبين فيه أنها جاءت موفدة من الحكومة البريطانية لغرض واحد هو التوفيق بين أمانى الأمة المصرية وما لبريطانيا العظمى من المصالح الخاصة فى مصر وتهيب بالهيئات الممثلة للامة المصرية وبالافراد أن يتبادلوا واللجنة آراءهم ، ومع ذلك استمرت المقاطعة وانصرف النـاس لتنظيمها وتفننوا فيها . فالصحف المصرية والشباب المصرى رأوا فى البيان خدعة قصد بها فشل المقاطعة بعد نجاحها . وردت لجنة الوفد مطالبة « بالاستقلال التام » . ورد الحزب الوطنى مناديا بسياسة « لامفاوضة إلا بعد الجلاء » . وإجماع طبقات الأمة على المقاطعة والاستقلال التام دفع بعض الأمراء إلى إصدار بيـان يؤيدون فيه مطالب الأمة .

وذلك لم يمنع أعضاء اللجنة على أية حال ، معتمدين على أنفسهم من الإتصال سرا ببعض ذوى الرأى الذين اجمعوا على أن مصر لن تقبل الحماية . واستطاعت اللجنة بوسائل متعددة أن تقف على رأى مجموعة من مختلف طبقات الشعب (١) . وبذلك تتمكن اللجنة كما تقول خلال الأشهر الثلاثة التى قضتها فى مصر من معرفة الأفكار والشعور وسبر غور الاتجاهات والنزعات ، وتخرج بنتائج أهمها أنه

---

(١) مذكرات هيكل — جا — ص ١٠١ — ١٠٣ .

لايمكن الوصول إلى تفاهم قبل الغاء نظام الحماية ، وأن « كل حل تفرضه بريطانيا على مصر فرضا لايرضى ولايفى بالغرض ، وأن الحكمة تقتضى بالتماس حل يتفق عليه الفريقان بعقد معاهدة بين البلدين . . . » . والشروط التى يقترحها ملنر ولجنته لعقد مثل هذه المعاهدة تغل يد المصريين فى شئون التشريع والإدارة وتعتبر قيدا على سيادة مصر واستقلالها وتؤكد مضمون الحماية وتضمن لانجلترا مصالحها فى نفس الوقت . فيقول تقرير اللجنة أنه على انجلترا أن تتعهد بالدفاع عن سلامة مصر واستقلالهـــا وفى مقابل ذلك تسترشد مصر ببريطانيا العظمى فى علاقتها الخارجية وتعطيها حقوقا معينة فى الأراضى المصرية . أما هذه الحقوق فهى إبقاء قوة عسكرية بريطانية فى أرض مصر ويكون لإنجلترا نصيب من المراقبة على التشريع المصرى والادارة المصرية فيما يختص بالأجانب . ويقول التقرير أن ذلك لايتنافى مع كرامة مصر ولايتعارض مع استقلالها !! . (١)

وعادت اللجنة الى لندن بعد اخفاقها (مارس ١٩٢٠) . وكان ملنر قد أدرك وهو فى مصر ضرورة الإتصال بالوفد المصرى الذى كان موجودا بباريس وفطن الى أن الوفد بيده وحده مفتاح التفاهم، رغم أن اللجنة أبدت ما يشعر بالنقيض من ذلك تماما (٢). وفى أواخر إبريل (١٩٢٠) زار عدلى باشا يكن باريس وأقنع سعد زغلول بالسفر مع زملائه إلى لندن لمحادثة اللجنة . وغادر الوفد المصرى باريس إلى لندن فى يونيه لذلك الغرض . وفى لندن قدم مشروع انجليزى صرف وآخر مصرى . وانتهت المباحثات إلى مشروع قال ملنر عنه أن الفريقين ارتاحا اليه ، وفيه رأت انجلترا إرضاء القومية المصرية ببعض الشىء بتعديل العلاقات بين انجلترا ومصر . فالمشروع مع اعترافه باستقلال مصر يمنح انجلترا حقوقا وامتيازات

---

(١) شفيق غربال — تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية — جـ ١ — ص ٦٤ — ٦٥

(٢) هيكل — مذكرات فى السياسة، جـ١ — ص١٠٣ والرافعى ثورة سنة ١٩١٩ — جـ٢ (١٩٥٥) ص ١٤٨ .

لصيانة مصالحها ومصالح الأجانب . ولتحقيق ذلك يقترح المشروع عقد محالفة مع انجلترا وتمنح مصر انجلترا حق ابقاء قوة عسكرية في مصر لحماية وصيانة مواصلاتها الامبراطورية وتتعهد مصر أن تتبع سياسة في المجال الدولي لا تتعارض والمصالح البريطانية وألا تعقد مع أية دولة أجنبية أي اتفاق ضار بالمصالح الانجليزية . أما موضوع السودان فقد استبعد عن المشروع . ويلاحظ أن ذلك الاتفاق لم يحز موافقة كل أعضاء الوفد المصري في المفاوضات ، انما تم الاتفاق على عرض ما وصل اليه الطرفان من مباحثات على الرأى العام المصرى ليسبر غوره . وهنا ظهرت بوادر الانقسام بين قادة الأمة . فالحزب الوطني رفض المشروع وله كل الحق في ذلك . وحبذ البعض ذلك المشروع وأشار فريق ثالث بتعديله . وحدث خلاف حول المشروع حتى بين صفوف الوفد أنفسهم . ويقول سعد عن المشروع أن ظاهره الاستقلال وباطنه الحماية . وسرعان مالمحت انجلترا الاختلاف والتنافس بين الساسة المصريين وسارعت الى استغلال الموقف لصالحها الخاص ومناهضة الجوهر الذي يسعى اليه المصريين وهو الاستقلال الحقيقي .

وتعددت المباحثات وتعددت مشروعات الاتفاق . وعاد الوفد الى لندن في أواخر أكتوبر سنة ١٩٢٠ ولكن الطرفين لم يصلا الى اتفاق . وقدم ملنر تقريره الى اللورد كيرزون ، وزير الخارجية (٩ ديسمبر سنة ١٩٢٠) وبذلك تنتهي المباحثات بين الوفد المصري ولجنة ملنر ويغادر الوفد انجلترا . وتكشف لنا هذه المباحثات عن وجهة النظر الانجليزية التي أصر عليها الانجليز حتى حققوها أخيرا في معاهدتهم مع مصر عام ١٩٣٦ ، والتي بها ترغم انجلترا مصر على معاهدة صداقة وتحالف تقوم عليها علاقات مصر وانجلترا ، والتي تعترف باستقلال مصر على أن يكون لانجلترا مركز خاص في مصر وأن ترابط قوات انجليزية بها .

المفاوضات وانقسام القادة — نكسة الثورة :

أخذت الحكومة البريطانية عن تقرير ملنر فكرتين . أولا : ضرورة أبدال نظام الحماية بعلاقة بين مصر وانجلترا تبعث على رضا المصريين . ثانيا : أن قادة مصر يتفاوتون استعدادا لقبول بجوهر التسوية . ويبدو أن ماقام به عدلى يكن من وساطة بين لجنة ملنر والوفد المصرى قد رشحه فى نظر الحكومة الانجليزية ليكون الزعيم المصرى الذى يقبل التسوية فى جوهرها . وتتألف وزارة عدلى يكن (١٧ مارس ١٩٢١) على أثر تبليغ الحكومة الانجليزية للسلطان أحمد فؤاد (٢٦ فبراير سنة ١٩٢١) باعتبار الحماية علاقة غير مرضية ودعوة مصر إلى الدخول فى مفاوضات رسميـــة للوصول الى ابدال الحماية بعلاقة أخرى . وباتصال عدلى بسعد بشأن الاشتراك مع الوزارة فى تلك المفاوضات تبدأ حلقة أخرى من الخلافات بين القادة فى وجهات النظر ليس حول موضوع المفاوضات فحسب بل حول تأليف وفد المفـاوضات أيضا . ويختلف الوفد مع رئيس الحكومة فيمن يرأس وفد المفاوضة عدلى أم سعد وينقسم أعضاء الوفد أنفسهم ويستقيل ستة أعضاء من الوفد من بينهم على شعراوى وأحمد لطفى السيد ومحمد محمود . فسعد قد تشبث برئاسته لوفد المفاوضات بينما رأت أغلبية هيئة الوفد عدم اشتراكه فى المفاوضة مع عدم محاربة الوزارة فيها (١) .

وتشتد الخصومات ويتحول الأمر من كفاح ضد انجلترا الى معارك بخصوص رئاسة وفد المفاوضات . وتقوم المظاهرات فى كل مكان تعلن السخط العنيف ضد الحكومة وتقابل الحكومة من جانبها هذه المظاهرات بالعنف . وفى كل ذلك

---

(١) الرافعى — فى أعقاب الثورة المصرية — (١٩٥٩) — ج ١ — ص ١٠ .

تراقب انجلترا بجذل اختلاف المصريين فيما بينهم وبين بعض وتتدخل القوات الانجليزية فى قمع حركات الاضراب فى الاسكندرية .

وفى مثل هذا الجو تحدث محادثات عدلى - كيرزون ، ويغادر الوفد الرسمى برياسة عدلى البلاد (أول يوليو سنة ١٩٢١) . ولكن هذه المفاوضات تفشل ، فمشروع كيرزون [١] يقرر شرعية الاحتلال كما يمتهن حقوق مصر فى السودان . ومن المؤسف ان الساسة المصريين لم يوحدوا صفوفهم فى هذا الظرف وازاء تعنت الانجليز ، بل انصرفوا الى الشتائم واثارة روح الاختلاف والبغضاء . واتخذت الحكومة الانجليزية من ذلك الخلاف وسيلة لعدم التسليم بمطالب البلاد وادعت أن حالة الاضطراب فى البلاد تستلزم اتباع انجلترا لسياسة التحفظ والتريث .

ويعود الوفد الرسمى من لندن ويقدم عدلى استقالته (٨ ديسمبر ١٩٢١) ، ويدعو سعد الأمة الى مواصلة الجهاد وتعتقله السلطات البريطانية (٢٣ ديسمبر) بعد انذارها له وينفى سعد وأصحابه الى جزر سيشيل فى المحيط الهندى (٢٩ ديسمبر ١٩٢١) . ويقوم الوفد بتنظيم حركة لعدم التعاون والمقاطعة ، وتقع حوادث اعتداء واغتيال لبعض البريطانيين فى مصر .

وظل مركز الوزارة خاليا بعـــد استقالة عدلى أكثر من شهرين وأحجم الكثيرون عن تأليف الوزارة بعد التبليغ البريطانى (٣ ديسمبر ١٩٢١) الذى فهم منه مبلغ اصرار الحكومة البريطانية على ابقاء سيطرتها واحتلالها . ولكن ثروت باشا وضع شروطا لقبوله الوزارة ، وهى شروط تعتبر فى مجموعها حسنة فى ذلك الوقت وتتضمن الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ولكنه أغفل أهم المطالب وهو الجلاء . واقتنع اللورد اللنبى بأن شروط ثروت هى أقل ترضيه

---

(١) انظر خلاصة المشروع فى المرجع السابق ص ٩ — ٢٠

للأمة المصرية فى ثورتها على الحماية وعلى الاحتلال ، وسافر الى لندن لاقناع حكومته بقبولها . وهكذا يجىء تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ المشهور .وهو اعلان من جانب الحكومة البريطانية بانهاء الحماية واستقلال مصر بتحفظات أربعة تتعلق بمواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر ، والدفاع عنها .وحماية المصالح الأجنبية والأقليات ،والسودان .

وهكذا تنتهى ثورة عام ١٩١٩ بعد أن أجبرت الانجليز على تغير موقفهم بشكل ما ، من القضية المصرية . ومع ذلك يمكن القول بأن ثورة عام ١٩١٩ قد فشلت — رغم الظروف المواتية ، ورغم كثرة عدد الضحايا الذين قدمتهم قربانا على مذبح المطالب القومية ورغم استعداد الشعب للسير الى النهاية بعزم وتصميم لتحقيق آماله ـ رغم كل ذلك قد فشلت الثورة فى تحقيق الأمانى الحقيقية للأمة . وقد أجمل الميثاق أسباب ذلك الفشل فى نقط ثلاث . فالصفوف التى تراصت فى عام ١٩١٩ تواجه الطغيان لم تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها . ولم تستطع القيادات الثورية أن تفطن الى الأساليب التى واجه بها الاستعمار ثورات الشعوب فى ذلك الوقت .ولم تستطع أن تفطن إلى أن الاستعمار كشف أن القوة تزيد ثورات الشعوب اشتعالا كما تزيد من تكتل الأمة . ويقدم الاستعمار تنازلات شكلية : يقدم من الاستقلال اسمه دون مضمونه . ويختلف القادة هل يقبلون العروض أم يرفضونها ، أم يعدلونها . وبذلك خلط الزعماء بين تلك التنازلات وبين الجوهر الحقيقى ، هدفهم من الثورة . وزاد الأمر خطورة ذلك الحكم الذاتى الذى منحه الاستعمار والديمقراطية الزائفة التى أتى بها . فوقع الوطن باسم الدستور فى محنة الخلاف على الغنائم . وكانت النتيجة أن استنفذ النزاع الحزبى الطاقة الثورية فيما لاطائل له .

نلاحظ ثانيا أن القيادات الثورية قد أغفلت مطالب التغيير الاجتماعى ولم

تتطلق إلى أهمية الدعوة الى اعادة توزيع الثروة الوطنية وذلك الى جوار الدعوة الى تمصير بعض أوجه النشاط المالى وتحقيق انشاء مصرف مصر مثـــلا ، ولم تستطع هذه القيادات أن تتبين بوضوح أن الثورة لا تحقق غاياتها بالنسبة للتغيير إلا اذا وصلت إلى أعماق المشكلة الاقتصادية والاجتـماعية .

من ناحية ثالثة نلاحظ أن قادة ثورة عام ١٩١٩ لم يأخذوا من تاريخ الأمة العربية وكفاحها عبرا ودروسا يستفيدون منها فى غمار كفاحهم ضد الاستعمار . فلم يمدوا أبصارهم عبر سيناء ولم يربطوا بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية ولم ينتبهوا الى خطورة وعد بلفور ، وبذلك حرم النضال العربى من الطاقة الثورية المصرية . وتعامل الاستعمار مع أمة عربية ممزقة وأنشب أظافره فيها يوزع مناطق نفوذه هنا وهناك دون اعتبار للمشاعر القومية . وهكذا تتكشف ثورة عام ١٩١٩(١)

(١) أنظر الميثاق — الباب الثالث

الاستقلال الوهمى فى ظل الاحتلال (١)

(١٩٢٢ — ١٩٣٦)

دستور عام ١٩٢٣

بصدور تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ تكون انجلترا قد خدرت مصر . وتنجح انجلترا بعدئذ فى إثارة عوامل الاختلاف بين العناصر المختلفة وتنجح فى أن تقيم مصالح للسراى ومن التف حول السراى ،وهى مصالح لا ترتبط كثيراً بمصالح الشعب . وتمر الشهور بعد تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ ، وحتى تأليف وزارة الشعب برياسة سعد زغلول (٢٨ يناير ١٩٢٤) تتميز فترة هامة فى تاريخ مصر . ففى هذه الفترة تم وضع بناء للنظام المصرى ، هذا البناء الذى أدى إلى الخلافات الأساسية فى حياة مصر السياسية بعدئذ . وفى هـــذه الفترة تمت تسوية بعض مشاكل العلاقات المصرية البريطانية على خير ما تشتهى بريطانيا ، وفيها يعقد مؤتمر لوزان (أكتوبر ١٩٢٢ — يوليو ١٩٢٣) لوضع شروط الصلح مع تركيا بعد أن نجحت بقيادة مصطفى كامل فى تمزيق معاهدة سيفر التى كان الحلفاء قد أملوها على حكومة السلطان العثمانى . وفيها أيضاً يتألف حزب الأحرار الدستوريين قبل صدور الدستور ، وتتألف بعدئذ أحزاب أخرى عن طريق الانفصال عن جماعة الوفد أو جماعة الدستوريين .

فبعد أسبوعين من تأليف وزارة ثروت يعلن السلطان فؤاد استقلال البلاد (١٥ مارس عام ١٩٢٢) ويتخذ له لقب « صاحب الجلالة ملك مصر » . وتصريح ٢٨ فبراير قد صادف هوى من نفس السلطان أحمد فؤاد . ولم تكد الحكومة الانجليزية تعلنه حتى قابله بكثير من الارتياح . وأصبح بحكم دولة مستقلة ذات

سيادة من الناحية النظرية ، ولذا يعمل على أن يتمتع بأكثر قدر من الحقوق . ففؤاد كان ميالاً إلى جمع السلطة فى يديه . ولذلك فهو لم يقف موقفا معارضا لحركات انجلترا الهادفة إلى الوقوف أمام تيار القومية الجارف . وهو لذلك أيضا لا يحتج على موقف انجلترا من اعتقال سعد زغلول ، زعيم الشعب وقتئذ . ومنذ أن أصبح فؤاد ملكا بدأت توجد هوة بين السراى والشعب ، الأمر الذى لا يمكن معه أن تستقيم الحياة الديمقراطية النيابية كما تمخض عنها دستور البلاد الذى وضع فى ظل الملكية الجديدة . فهذا النظام — كما ينبغى أن يكون — يقوم على أساس من الثقة بين الشعب ممثلا فى حزب الأغلبية الذى يتولى الحكم ، وبين الملك . ولكن سياسة فؤاد كانت تستند إلى العمل على الحكم المطلق بقدر ما يستطيع . وهكذا كلما زاد فؤاد أوتوقراطية كلما زادت الهوة اتساعا بين الملكية والشعب وفسدت الحياة السياسية .

وألفت وزارة ثروت لجنة لوضع مشروع الدستور وقانون الانتخاب تجمع صفوة من رجال القانون والعلماء والرؤساء الروحانيين والأعيان تتكون من حوالى الثلاثين عضواً ويرأسها حسين رشدى . وبذلت « لجنة الثلاثين » جهداً صادقاً ووضعت مشروعاً لدستور على أحدث المبادىء العصرية . ولكن الملك فؤاد لم يرض عن اتجاهات اللجنة كما تدخل الانجليز لتعديل الدستور المقترح . وطوح الخلاف على مشروع الدستور بوزارة ثروت (٢٩ نوفمبر ١٩٢٢) . وقد نجحت هذه الوزارة بالسير بوزارات الحكومة خطوة فى سبيل تحريرها من نفوذ المستشارين والموظفين الأجانب . ومع ذلك فمركزها كان حرجا إزاء الشعب ، فقد تألفت فى وقت أقصى فيـــه زعماء الأمة عن البلاد بحكم القوة . وتألفت وزارة توفيق نسيم التى أخذت فى تعديل مشروع الدستور . وفى عهدها يتم هذا التعديل كما أراد الملك وكما أمر الانجليز . فالمندوب السامى الانجليزى

يتدخل لتعديل بعض نصوص الدستور وحذف ما كان خاصاً منها بالسودان . ولما لم تستجب الحكومة لمطلبه بسرعة قدم إنذاراً بأنه إذا لم تقبل وجهة نظر الحكومة البريطانية فى أربع وعشرين ساعة فإنها تسترد كامل حريتها فى العمل وتلجأ عند الضرورة إلى أى تدبير تراه مناسباً . ثم تستقيل وزارة نسيم وتجىء وزارة ابراهيم يحيى ويصدر الملك الدستور فى الشهر التالى من تأليفها (١٩ أبريل ١٩٢٣) .

ورغم أن ذلك الدستور قد أكد بعض حقوق الشعب إلا أنه أعطى الملكية سلطات كثيرة . ورغم أن الدستور نص على أن الأمة مصدر السلطات فإن السلطات التى منحها للملك من ناحية ، ثم العلاقة بين الملك والانجليز من ناحية أخرى ، كل ذلك جعل الملك والمندوب السامى البريطانى هما المصدر الحقيقى للسلطات فى كثير من الأحيان . فالدستور قد أعطى للملك حق حل مجلس النواب وتأجيل انعقاده وإصدار المراسيم فى غيبة البرلمان وتعيين الوزراء وإقالتهم وتعيين خمس الأعضاء فى مجلس الشيوخ كما أنه يقترح القوانين . كذلك نص الدستور على أن ذات الملك مصونة لا تمس . وكانت هذه الحقوق يساء استعمالها غالبا ضد مصلحة الشعب . كذلك أوجد الدستور ثغرة للحزبية والأحزاب تشيع التفكك والانحلال للجبهة الداخلية فى وقت كانت الأمة أحوج ما تكون فيه إلى الاتحاد . والانقسام المتمثل فى تعدد الأحزاب — وهذه كانت المنافع الشخصية وليست المصلحة العامة رائدها — بدأ بصورة واضحة بعد تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . ويتكون حزب الأحرار الدستوريين (أكتوبر عام ١٩٢٢) وحزب الاتحاد (يناير ١٩٢٥) وهو حزب ملكى النزعة والمولد ، وحزب الشعب (١٩٣٠) وهو حزب بعيد كل البعد عن روح الشعب والحزب السعدى (بعد عام ١٩٣٧) وحزب الكتلة (إبان الحرب العالمية الأخيرة) . . . .

وفى عهد هذه الوزارات الثلاث (ثروت وتوفيق نسيم ويحيى) واتت مصر فرصة لاخراج العلاقات المصرية البريطانية إلى نطاق دولى وذلك أثناء اجتماع مؤتمر لوزان ، ولكن عناصر الحياة السياسية فى مصر عطلت بعضها البعض الآخر وكان ذلك مما ساعد على ضياع تلك الفرصة . فلم يشترك رسميون أو غير رسميين فى المؤتمر وهكذا تعطل صوت مصر . وجاء مؤتمر لوزان فى النهاية هزيمة لمصر على يد أبنائها . فمن أهم ما جاء بمعاهدة لوزان خاصا بمصر هو تحرر مصر من كافة التعهدات المتعلقة بالديون العثمانية فيما عدا التعهدات الخاصة بالديون العثمانية المضمونة بالجزية المصرية وتدفع مصر هذه القروض كجزء من مدفوعات الدين المصرى العام[1] على أية حال كان المؤتمر يمثل السياسة الجديدة لتركيا الحديثة وهى تخليها عن شعوب الدولة العثمانية وعنايتها بمصلحة تركيا فقط مؤثرة العمل السياسى إلى جانب أوربا على نصرة الشعوب .

وزارة الشعب (١٩٢٤)

وعاد سعد الى مصر (سبتمبر ١٩٢٣)[2] واستعدت مصر لمرحلة أخرى من تاريخها . وأجريت الانتخابات . ولما كانت وزارة يحيى قد راعت الحياد إبان الانتخابات فقد كان من الطبيعى أن تسفر عن فوز يكاد يكون تاما لمرشحى الوفد المصرى . وقبل سعد تأليف الوزارة (٢٨ يناير ١٩٢٤) وهو يعلن فى فى نفس الوقت أن قبوله تشكيل الوزارة لا يعنى اعتراف الوفد بأية حالة أو حق سبق أن استنكره . وهو كذلك يكرر عدم الارتباط بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

---

(١) مادة ١٨ من معاهدة لوزان . أنظر : الرافعى — فى أعقاب الثورة المصرية . جـ١ ص ٨٧ .

(٢) كان سعد قد نفى الى سيشيل (ديسمبر ١٩٢١) ثم انتقل الى جبل طارق (أغسطس ١٩٢٢) وأفرج عنه فى مارس ١٩٢٣ وظل فى أوروبا للاستشفاء ثم عاد إلى مصر .

وقد قابلت وزارة سعد الصعوبات . فالانجليز يخشون الشعب الذى اجمع على وزارته . والوزارة لم تكن تتمتع بثقة الملك الذى كان يرى فى الحكومة أداة تستلهم حكمها من إرادته . والشعب منذ عام ١٨٨٢ كان قد ألف أن تكون الوزارات تابعة للنفوذ الانجليزى وعاش طويلا ينظر إلى الحكومة نظرته إلى خصم يدبر الكيد له، وليس إلى وكيل أمين يرعى مصالحه ويسعى إلى خيره . فكان على الوزارة الجديدة أن تضاعف الجهد للقضاء على هذه الافكار وتكون عند حسن ظن الأمة بها . ثم أن روح العصر صارت بعيدة عن الوئام والاتفاق . وكانت حكومة الوفد تحارب الحكومات التى تسبقها وتستنكر أفعالها وتبرأ منها . وكان الوفد فى تنظيمه الحزبى وسياسته يتجه إلى نظام وأهداف « الحزب الواحد » . وكان يعتقد أن معارضيه لا يملكون وسيلة مشروعة الا الاذعان لكلمة الأمــــة التى أيدته فى الانتخاب وتأييد الوفد بالتالى . فاذا ألح معارضو الوفد فى الخصومة حقت عليهم الشدة. فسعد كان يضيق ذرعا بالمعارضة التى كانت تسبب له الإحراج أحيانا . والى جانب هذه الصعوبات تصادف وزارة الشعب خيبة الأمل . فقد تردت — أولا وقبل كل شىء — فى خطأ الوهم بأن صدقت أن مصر حقيقة مستقلة . (١)

فى هذه الظروف تقوم العلاقات الجديدة بين مصر وإنجلترا فى عهد وزارة الشعب . وأعلن سعد استعداد حكومته للدخول مع الحكومة البريطانية فى مفاوضات « لتحقيق الآمال القومية بالنسبة لمصر والسودان » أى لتسوية الأمور المعلقة بين مصر وبريطانيا بما يحفظ لمصر حقوقها ويتم استقلالها . ووصل سعد إلى لندن (٢٣ سبتمبر) حيث قابل رمزى مكدونالد رئيس أول حكومة للعمال فى بريطانيا . وكان مركز حكومة ماكدونالد حرجا كما كان رئيس الوزارة مشغولا

---

(١) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية . جـ ١ — ص ١٢٩ .

بالانتخابات . فهذه الحكومة قد جاءت معتمدة على حزب الأحرار إلى حد كبير وارتطمت بكثير من الصعاب جعلتها مهددة بالسقوط . ولذا فلم تبذل من جانبها مجهوداً جديا لعلاج المشكلة المصرية . وفى هذه المفاوضات القصيرة الأمد طلب سعد سحب القوات البريطانية من مصر وسحب المستشار المالى والمستشار القضائى وزوال السيطرة البريطانية على الحكومة المصرية ولاسيما ما يتعلق بأمر علاقات مصر مع الدول، ووضع حد لما تدعيه بريطانيا من حماية للاجانب والاقليات فى مصر ومن حق الاشتراك فى حماية قناة السويس . وفى هذه المفاوضات يكرر سعد أيضا ما سبق أن أعلنه عن حقوق مصر فى السودان . ولكن المفاوضات تفشل. فكل من الفريقين المتفاوضين كان يتفاوض لهدف يتعارض مع الآخر : كانت مهمة المفاوض المصرى أن يجعل من الإستقلال حقيقة ومهمة المفاوض الإنجليزى أن يسوى أمر التحفظات الأربعة (الواردة بتصريح ٢٨ فبراير) بما يتفق ومصلحة إنجلترا ووجهة نظرها وعلى أساس اعتراف مصر بذلك . ولهذا كان من المستحيل التوفيق بين الجانبين ولهذا أيضا ظلت المفاوضات تفشل .

ورجع سعد إلى مصر (أكتوبر ١٩٢٤) بعد فشل مفاوضاته فى لندن مع مكدونالد ليجد له خصوما من المصريين جادين فى محاربته بالشغب تارة والدسيسة تارة أخرى . أما فى انجلترا فتستعد الحكومة الإنجليزية لمواجهة ما قد ينجم عن انقطاع المفاوضات . وتتآمر الحكومة الإنجليزية لإجلاء المصريين عن السودان تماما . كذلك تعمل إنجلترا على قطع الطريق على مصر حتى لاتستخدم عصبة الأمم ميدانا دوليا لرفع قضيتها والمطالبة بحقها ولدفع العدوان عنها . وتتاح الفرصة لانجلترا لتضرب ضربتها : ففى ٩ نوفمبر ١٩٢٤ يغتال سيرلى ستاك سردار الجيش المصرى فى القاهرة . ويوجه المندوب السامى البريطانى اللنبى إنذاره الى الحكومة المصرية بلهجة مهينة لمصر وحكومتها وشعبها ، ومنطوية على الرغبة فى التشفى والانتقام،

ففى ذلك الانذار تلويح باستخدام القوة . وفيه تطالب انجلترا أيضا بالاعتذار ومعاقبة الجناة وحظر المظاهرات وطلب التعويض وسحب القوات المصرية من السودان ، وحرية حكومة السودان فى زيادة مساحة الأراضى المزروعة قطنا ، كما تطالب انجلترا أيضا بالعدول عن كل معارضة لرغباتها فى الشئون المتعلقة بحماية المصالح الأجنبية.ويقدم فى نفس اليوم إنذار ثان للحكومة المصرية مفصلا لبعض النقط التى جاءت بالانذار الأول . وهى فى مجموعها تكون نقطا مضادة للمطالب التى طلبها سعد زغلول فى مفاوضاته مع ماكدونالد . وتتمادى انجلترا فى اذلال مصر . فلا تكتفى بقبول الحكومة المصرية لبعض هذه المطالب فى الحال بل مصر على المطالب كاملة وتحتل قواتها جمارك الاسكندرية بالقوة . وتجد انجلترا من الدول الاستعمارية نصيرا لها فى عدوانها وتذهب احتجاجات مصر لعصبة الأمم وبرلمانات العالم أدراج الرياح .

نلاحظ أن مصر بعدئذ لاتنكب فقط بصلاتها بانجلترا ، هذه الصلات التى تحددها بريطانيا على هوى منها ووفقا لمصالحها ، بل تنكب أيضا بأزمات الحياة النيابية فى مصر وأزمات التناحر الحزبى واتباع شتى الوسائل فى غمار هذا النزاع ، والوصول فى ذلك إلى حد خنق الحريات وافساد الذمم والأخلاق وإفساد الحياة السياسية بوجه عام . ويمتص هذا النشاط الضار بمصالح الأمة الجانب الأكبر من مجهود القادة بدلا من تجميعه للصالح العام ولقضية البلاد . وبذلك صار الاختلاف بين الفرق والأحزاب جوهرا فى حد ذاته بدلا من أن يكون وسيلة لغاية هى خير الأمة .

وزارة زيور وما بعدها :

وجاءت وزارة زيور (نوفمبر ١٩٢٤ - يونيه ١٩٢٦) عقب استقالة وزارة

سعد (٢٤ نوفمبر) . وهى وزارة رجعية أنشأتها السراى ، لتسند الملك فى تلك الأزمة ولتنكل بالشعب وتحرمه من مكاسبه التى أقلقت كلى السراى والانجليز ، فتسلم تسليما كاملا بمطالب الانجليز وتعتبر الحكم النيابى فى مصر مسئولا عن انذارات الانجليز . وفى عهد وزارة زيور يستقيل اللنبى ويحل محله جورج لويد وكان من غلاة الاستعماريين وتدرب على وسائل الاستعمار فى الهند . واعتمد فى تنفيذ سياسته فى مصر على الانقسام بين الزعماء المصريين الى حد كبير . وفى عهد هذه الوزارة يحل مجلس النواب(٢٤ ديسمبر١٩٢٤) . وكان البرلمان بمجلسيه قد قرر الاحتجاج على التصرفات الانجليزية لما فيها من اعتداء واضح على سيادة مصر واستقلالها(٢٤ نوفمبر) وإبلاغ الاحتجاج إلى برلمانات العالم وإلى عصبة الأمم . ولكن لم يكن لذلك نتيجة تذكر . وحكومة زيور من جانبها لم تحاول اثارة هذا الموضوع . وكذلك لم تحاول أية دولة من بين الدول الأعضاء فى العصبة عرض النزاع المصرى البريطانى على المجلس . فالدول لم تبد العطف على مصر فى هذه المحنة بل أيد معظمها الحكومة البريطانية فى مطالبها . ونجد صحافة فرنسا تدعو أوروبا إلى التكتل للقضاء على النزعات الاستقلالية لدول الشرق .

وتجرى انتخابات جديدة . وتعلن الوزارة أن الأحزاب غير الوفدية نالت أغلبية فى الانتخابات . ولكن عند انتخابات رئاسة مجلس النواب يفوز سعد زغلول بأغلبية كبيرة . وحينئذ يقدم زيور استقالته معتبرا اختيار المجلس لسعد لرئاسته روحا عدائية ... ولكن الملك يرفض الاستقالة ويحل مجلس النواب. ويذكر اسماعيل صدقى فى مذكراته أن ذلك الاجراء اتخذ لتحقيق الهدوء ورعاية للمصلحة الوطنية العليا !! وأن ذلك الاجراء كان مصريا بحتا ولم يكن للانجليز يد فيه [1].وفى الواقع كان ذلك الاجراء ضروريا لتحقق وزارة السراى الهدف

(١) اسماعيل صدقى ــ مذكراتى - ١٩٥٠ - ص ٣٢

الذى جاءت من أجله . وتتعالى الأصوات بعودة الحكم النيابى الى مصر ويظهر ضعف وزارة زيور واضحا. ولكن انجلترا لاتحرك ساكنا ويقف لويد يتفرج على المعركة الدستورية دون أن يتدخل رغم ضعف الوزارة الظاهر . فانجلترا تريد الاحتفاظ بوزارة زيور لتنفيذ مطالب لها لم تتحقق بعد وكانت تود انتزاع موافقة مصر على نزولها عن واحة جغبوب لإيطاليا . ويتم ذلك بالفعل فى ديسمبر عام ١٩٢٥ . وبذلك لم تكتف وزارة زيور بالإذعان تماما للمطالب البريطانية ، وحل مجلس النواب الأول ثم الثانى ، وتعطيل الحياة الدستورية ، وإفساد أداة الحكم ، بل تمادى فى ارضاء انجلترا التى أرادت أن تجامل إيطاليا على حساب مصر . وتوقع وزارة زيور ـ فى غيبة البرلمان ـ اتفاقية مع إيطاليا تتنازل مصر فيها عن واحة جغبوب . وبعدئذ يبدأ اللورد لويد فى التدخل والانتصار للحكم النيابى . ويتودد لويد إلى الشعب بأن ينتصر له ازاء تدخل السراى فى شئون الحكم وتعطيلها للحياة الدستورية . وبنفوذ لويد يقصى رئيس الديوان الملكى بالنيابة من منصبه (حسن نشأت) ، وكانت الشكوى قد عمت من استفحال نفوذه فى دوائر الحكومة وكان هذا إيذانا بسقوط حزب الاتحاد، الحزب الملكى ، وسقوط الوزارة والتمهيد لعودة الحكم الدستورى .

وأخذت الأحزاب المعارضة للحكومة فى تنظيم معركة الانتخابات والإعداد لها . وفى ذلك اتفقت كلمة الاحزاب (الوفد ، والحزب الوطنى ، والاحرار الدستوريين) . وظهرت روح طيبة من التعاون بين القادة وجاء المجلس الجديد وفديا فى أغلبيته فكان من الطبيعى أن يدعى سعد زغلول لتأليف الوزارة الجديدة. ولكن تدخل لويد حال دون ذلك . فجاءت وزارة عدلى الائتلافية وتلتها وزارة ثروت وهى أيضا ائتلافية (أبريل ١٩٢٧ - مارس ١٩٢٨) . وفى عهدها عادت المفاوضات مع انجلترا . فالعهد البرلمانى الجديد بعد سقوط زيور كان

مثقلا بموقف معقد سببه موقف انجلترا التعسفى وانذاراتها وخطة المندوب السامى (لويد) فى تطبيق تحفظات تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . وزاد العهد ضيقا ليس فقط بقيود بريطانيا بل بالقيود الدولية المتمثلة فى الامتيازات الأجنبية ومطالب الدول . وزاد من شدة هذه القيود أن مصر فى هذه الفترة كانت مقبلة على تطور علمى واجتماعى واقتصادى . فرأت مصر فى المفاوضات مع بريطانيا منفذا قد يؤدى بها الى الخلاص وتحقيق بعض الآمال . ولكن المفاوضات تفشل وتسقط وزارة ثروت . وفى خلال هذه المفاوضات يتوفى سعد زغلول (٢٣ أغسطس ١٩٢٧) وينتخب مصطفى النحاس رئيسا للوفد .

نلاحظ أنه منذ الوقت الذى فيه أرغم المصريون الانجليز على أن يظهروا استعدادهم للاصغاء إلى مطالبهم للتحرر والاستقلال، وذلك فى غمار تلك الثورة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، وحتى عام ١٩٣٦ ، كانت انجلترا طوال هذه الأثناء ترغب حقيقة فى عقد معاهدة يقبلهـــا حزب الأغلبية فى مصر ، معاهدة ترضى مطالب المصريين من الناحية النظرية ولا تتعارض مع مصالح انجلترا ومطالبها من الناحية العملية . لذلك ظلت محاولات الانجليز تفشل فى هذا الصدد ولهذا أيضا كانت انجلترا تقوم بالاجراءات الانتقامية عقب كل فشل من هذا القبيل . وتتدخل انجلترا فى صميم شئون مصر الداخلية فى عهد وزارة النحاس التى أعقبت وزارة ثروت . فنشاط الهيئة البرلمانية قد أزعج لويد . وتتقدم انجلترا بانذار الى الحكومة مطالبة لنفسها بحق التدخل فى التشريع المصرى الداخلى . ولا يضع الملك فؤاد سوى اقالة وزارة الأغلبية البرلمانية متجاهلا بذلك المبدأ الدستورى القائل بأن الأمة مصدر السلطات (يونيه ١٩٢٨) .

وتتعدد محاولات الوصول الى اتفاق بين الجانبين المصرى والانجليزى ولكنها تفشل. كان ذلك مصير محادثات محمد محمود ـ هندرسون (صيف عام ١٩٢٩)

ومحادثات النحاس ـ هندرسون (١٩٣٠)[١] . وهذه المحادثات الأخيرة تتعثر عند تناول مسألة السودان رغم تساهل الفريق المصرى الى حد عدم التمسك الفعلى فى الادارة . وبعدئذ يجىء صدقى ، خصم الوفد ، الى الوزارة . وتبدأ معركة الدستور (يونيه ١٩٣٠ ـ سبتمبر ١٩٣٣) . فيعمل صدقى على القضاء على المعارضة الوفدية ، ويقضى على دستور عام ١٩٢٣ ويسند السلطة كلها الى الملك ويضع دستور عام ١٩٣٠ الرجعى الذى يمنح الملك سلطات واسعة ويشل حركة المجلس التشريعى ويجعل للهيئة التنفيذية حق التشريع . ويقول صدقى أنه أراد بذلك أن يعالج عيوب دستور عام ١٩٢٣ الذى بنى على نمط الدستور البلجيكى . وينقد ذلك الدستور (١٩٢٣) بأنه منقطع الصلة بالماضى وأنه طفرة كبرى فى حياة أى نظام نيابى لاتتحملها حالة مصر وقتئذ ؛ ولهذا وضع لها هذا الدستور الذى يناسب الاحوال بها[٢] !!

وقد احتجت الهيئات السياسية على ذلك . ولكن صدقى لم يكترث لرغبة الشعب أو ثورته لارجاع الدستور ، بل لجأ إلى التنكيل باعدائه ومعارضيه . وهو لذلك يؤلف حزبا جديدا (حزب الشعب) بعد أن تخلى عنه حزب الأحرار الدستوريين ، ويسمى هذا الحزب أول الأمر حزب الاصلاح وقد ضمن لصدقى أغلبية فى برلمانه . كذلك يمتاز عهد صدقى بحوادثه الدامية . ويفشل صدقى فى علاج أمور السياسة فى مصر كما يفشل فى علاج الحالة الاقتصادية بها . وفى هذه المعركة

---

(١) أنظر مشروعات الاتفاقات التى نجمت عن هذه المفاوضات فى الجزء الثانى من (فى أعقاب الثورة المصرية) — ١٩٤٩ — الرافعى ص ٨٣ — ٩٥ ، ص ١٠٤ — ١٠٨ .

(٢) مذكرات صدقى — ص ٤٢-٤٥

معركة الدستور ، تشترك انجلترا أيضا اذ تلوح بأنها مستعدة لأن تشير بعودة الدستور اذا وافقت مصر على معاهدة عام ١٩٣٠ . كذلك تتدخل انجلترا أيضا فى هذا الأمر فى عهد وزارة توفيق نسيم (١٩٣٤ - ١٩٣٦) .

وقد ألغت وزارة نسيم هذه دستور عام ١٩٣٠ (١٩٣٤) . وبدا أنه لم يعد لدى الملك مانع لاعادة دستور ١٩٢٣ . فالسراى بدأت تشعر بالخطر المحدق بمستقبلها بعد فشل تجربة صدقى ، والوفد يقرر ضرورة عودة دستور ١٩٢٣ . ولكن انجلترا تشير بعدم عودة ذلك الدستور ويبدو ذلك فى تصريح لوزير الخارجية الانجليزية . وقد أساء هذا التصريح كثيرا الى مشاعر المصريين وقامت المظاهرات فى القاهرة وفى انحاء البلاد احتجاجا . ويحمل الشباب العبء الأكبر فى مظاهرات نوفمبر وديسمبر عام ١٩٣٥ . وعلى أثر ذلك يكون الوفد والأحرار جبهة وطنية تعمل على الاتفاق مع انجلترا وعلى عودة دستور عام ١٩٢٣ . وترفع الجبهة عريضتها الى الملك مطالبة باعادة الدستور (١٢ ديسمبر ١٩٣٥) . وفى نفس اليوم يبلغ المندوب السامى توفيق نسيم بعدم معارضة انجلترا فى اعادة الدستور ، وفى المساء يصدر أمر ملكى باعادة الدستور . وبذلك تنتهى معركة الدستور بانتصار الشعب بعد عدول انجلترا عن موقفها المعاند على أمل منها فى الوصول الى اتفاق مرضى مع مصر .

معاهدة ١٩٣٦

أما بخصوص الاتفاق مع انجلترا فتتكون لذلك هيئة رسمية ائتلافية من الزعماء يرأسهم مصطفى النحاس (١٣ فبراير ١٩٣٦) . وذلك باستثناء الحزب الوطنى الذى لم يقبل الاشتراك فى المفاوضة لمخالفتها لسياسة الحزب التقليدية « لامفاوضة إلا بعد الجلاء » . وفى خلال ذلك كانت قد تكونت وزارة برئاسة

على ماهر لاجراء الانتخابات . ويموت الملك فؤاد فى هذه الأثناء (٢٨ أبريل ١٩٣٦) وتجرى الانتخابات وينال الوفد أغلبية كبيرة ويتولى الوزارة (١٠ مايو ١٩٣٦) . وفى عهد هذه الوزارة تجرى المفاوضات مع انجلترا بعد أن يهيء لها رئيس الوزراء جوا وديا ومشجعا للانجليز يتجلى فى خطاب تأليفه الوزارة الذى رفعه إلى الأوصياء على العرش . ففيه يذكر أن وزارته ستتقدم إلى البرلمان ببرنامجها « جاعلة نصب عينيها تحقيق استقلال البلاد بابرام معاهدة مودة وتحالف مع الدولة البريطانية الصديقة » . وتتوالى الجلسات ويصل الطرفان إلى معاهدة على خير ما تشتهى انجلترا (٢٦ أغسطس ١٩٣٦) . ويوقعهـــا عن الجانب المصرى لفيف من الزعماء منهم مصطفى النحاس وأحمد ماهر ومحمد محمود واسماعيل صدقى وحافظ عفيفى .

ومن أهم ما يلاحظ على هذه المعاهدة أنها جعلت الاحتلال البريطانى لجزء من بلادنا أمرا مشروعا . وانجلترا من جانبها تعمل على مساعدة مصر على التخلص من نظام الامتيازات الأجنبية وقبولها عضوا فى المنظمة العالمية التى كانت معروفة باسم عصبة الأمم ، وذلك فى مقابل فرض ارادتها على مصر وحمل حزب الأغلبية ومعظم الزعماء الآخرين على الاعتراف بشرعية احتلال انجلترا لمصر ، الأمر الذى كانت انجلترا متمسكة به منذ أن منحتنا الاستقلال الوهمى . وفيما يتعلق بالسودان ، تقر المعاهدة العمل باتفاقيتى ١٩ يناير و١٠ يوليه عام ١٨٩٩ اللتين ضيعتا السودان وفصلتاه عن مصر ، وكانتا قد انتزعتا قسرا من الحكومة المصرية . من ناحية أخرى تترك المعاهدة الباب مفتوحا لمباحثات فى المستقبل ترمى إلى تعديلهما .

وبمقتضى هذه المعاهدة لا تضمن انجلترا مصالحها فى مصر فحسب ، بل وتكفل أيضا ضم مصر إلى جانبها وشدها الى عجلتها تماما فى هـذه الفترة التى تكهرب

فيها الجو الدولى . فهناك مادة مثلا تنص على تعهد كل من الطرفين المتعاهدين بألا يتخذ فى علاقته مع البلاد الأجنبية موقفا يتعارض مع المحالفة وألا يبرم معاهدات تتعارض مع أحكام المعاهدة . وهناك نص حول ما تقدم مصر من مساعدة فى حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها وتشمل هذه المساعدة استخدام الموانى والمطارات وطرق المواصلات ، مع اتخاذ الحكومة المصرية لجميع الأجراءات التشريعية والإدارية التى تكفل فاعلية هذه المساعدة ، مثل اعلان الأحكام العرفية واقامة رقابة على الأنباء . . . الخ . ومن المفهوم أن أنجلترا ، وهى الجانب الأقوى فى التحالف ، هى التى ستعين الحالات التى تقدم فيها المساعدة ولا سيا قيام « الحالة الدولية المفاجئة » .

والبعض يعتبر أن معاهدة عام١٩٣٦ هذه قد أنهت ثورة عام ١٩١٩ . فالذى جمع الوفد حتى هذا التاريخ كان الاتفاق على مقاومة النفوذ البريطانى ومحاولة التخلص منه . وعلى ذلك فبعد اختفاء هذا الهدف تظهر الانفصالات والانقسامات فى حزب الوفد (١) . وهذه المعاهدة على أية حال قد سطرت نهاية حزب الوفد كهيئة تعبر عن أمانى الشعب التى تتلخص فى التحرر والاستقلال الحقيقى . وعلى ذلك يكون حزب الوفد ، كما عرفته مصر منذ قيام ثورة ١٩١٩ حتى عام ١٩٣٦ قد أنتهى . ولعل أبلغ ماقيل عن هذه المعاهدة هو رأى الدكتور هيكل فى مجلس النواب حين قال أن المعاهدة قد سجلت وجهة النظر المصرية الخاصة بالاستقلال تسجيلا نظريا ثم قيدتها من الناحية العملية بأثقل القيود . أما وجهة النظر الانجليزية والخاصة بتوفير الضمانات الخاصة بمصالح بريطانيا وأولاها هو وجود قوات الاحتلال فى مصر، الأمر الذى كانت تصر عليه بريطانيا منذ أيام مفاوضات عدلى ـ كيرزون (١٩٢١)، فان المعاهدة قد سجلتها تسجيلا عمليا . (٢)

(١) أنظر : محمد زكى عبد القادر : محنة الدستور ص ـ ١٢٢

(٢) شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية ـ الانجليزية ج ـ ١ . ص ٢١٣

الاستقلال الوهمى فى ظل الاحتلال (٢)

والإعداد للثورة (١٩٣٦ - ١٩٥٢)

ميثاق منقباد و الحرب العالمية :

هذه فترة مهمة فى تاريخ كفاحنا القومى ، بنهايتها وصل الكفاح إلى أوجه ووصلت اليقظة القومية إلى الذروة بقيام الثورة المجيدة يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢. وفى هذه الفترة أيضا تم التمهيد لقيام الثورة ، وفيها حدثت أحداث عظام لعبت دورها بالنسبة لخطوات ذلك التمهيد .

تبدأ هذه الفترة بعد عقد معاهدة عام ١٩٣٦ . ولم تكن الأوضاع السياسية فى مصر حينئذ تسير سيراً مرضيا رغم أن مركز مصر الدولى كان قد تحسن ، عن ذى قبل ، إلى حد ما . ففى مونترو تبدأ المباحثات حول إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر (أبريل ١٩٣٧) . ويوقع مندبو مصر والدول المهتمة إتفاقية مونترو التى تعلن إلغاء الامتيازات الاجنبية فى مصر تماما وخضوع الاجانب فى مصر للتشريع المصرى (٨ مايو ١٩٣٧) . وهذا بلا شك كسب كبير للقضية القومية . ومساعدة انجلترا الفعالة للحصول على هذه النتيجة ، بالإضافة إلى دخول مصر فى عصبة الأمم (٢٦ مايو ١٩٣٧) ، هى فى الواقع الكسب الأوحد لنا فى صفقة عام ١٩٣٦ مع انجلترا .

ومنذ عقد معاهدة عام ١٩٣٦ والنحاس ، رئيس الوفد ، يميل إلى الحكم المطلق الذى يستند إلى تأييد البرلمان الوفدى له . وأمعن الوفد فى سياسة الإستثناءات والمحسوبيات وحشد أنصاره فى المراكز الهامة فى الدولة ، الأمر الذى أدى إلى

ارتفاع الأصوات المعارضة حتى داخل الوفد نفسه . وضاق النحاس ذرعا بهذه الأصوات فكان أن أقصى بعض أعضاء الوفد ومنهم النقراشى. فى نفس الوقت يتولى فاروق سلطته الدستورية وتنتهى مهمة مجلس الوصاية (٢٩ يوليو ١٩٣٧) . وفاروق كان يريد أن تكون له الكلمة العليا فى تعيين كبار الموظفين ومنح الأوسمة والألقاب . ويتولد التشاحن بين السراى والوفد ويزداد ، وتنشط المعارضة .وفى هذا الجو تدبر المظاهرات من أنصار الوفد ومن خصومه ، وتمتد الحزبية إلى شباب الجامعة والأزهر. وتنتهز السراى هذه الفرصة وتقيل وزارة الوفد (٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) وذلك بسبب « مجافاتها لروح الدستور وبعدها عن احترام الحريات العامة وصيانتها». ويشير كتاب الاقالة بذلك إلى بعض الأمور الدستورية المعقدة التى تتمسك كل من الوزارة والسراى بحقها فيها وإلى سلوك جماعات القمصان الزرقاء الوفدية . وتجىء وزارة محمد محمود التى تحل مجلس النواب وتجرى انتخابات جديدة لم تكن حرة . وفى عهد هذه الوزارة يتم تأليف الهيئة السعدية من المنشقين على الوفد .

فى هذه الظروف تبدأ القصة ، قصة التمهيد للثورة . تبدأ هذه القصة فى منقباد بصعيد مصر وفى عام ١٩٣٨ . فهناك أرسل الملازم جمال عبدالناصر وقد تخرج فى الكلية الحربية فى نفس العام . وكان حينئذ شابا فى العشرين من عمره حديث عهد بهذه السنوات القلقة التى عاشتها مصر قبيل عقد معاهدة عام ١٩٣٦ ، ومظاهرات الطلبة التى اشترك فيها وجرح إبانها (١) والتى كانت تقوم احتجاجا على تحدى الانجليز لمشاعرنا الوطنية. وفى منقباد كان جمال يتابع مع زملائه من الضباط الصغار اخبار العاصمة عن طريق الصحف ويراقب عن كثب سياسة الملك والاحزاب.

(١) انظر : جورج فوشيه — جمال عبد الناصر فى طريق الثورة — ١٩٦٠ — ص ٩٩

وهناك أيضاً كان جمال يقيم على مسافة كيلو مترات من مسقط رأسه (بنى مر) ويشاهد صوراً صادقة للحياة البدائية التعسه التى كان الفلاح المصرى لا يزال يعيشها.

وفى منقباد تلتقى مجموعة من الضباط الصغار، تجمعهم مشاعر واحدة من المراره للأوضاع التى كان عليهـــا الجيش المصرى وقتئذ. فقد وجدوا أنفسهم مثلا يأتمرون بامرة قواد مصريين لا عمـل لهم إلا إذلالهم والخضوع المطلق للانجليز. وهناك يقول الملازم جمال عبد الناصر لأصدقائه أن الانجليزهم أصل كل البلاء فى مصر [١]. وكان جمال بذلك إنما يحدد لاصدقائه رسالة كبرى. وتشهد منقباد عهداً مقدسا يربط بمجموعة من الضباط الصغار بفكرة معينة، كانت نقطة البدء لحركة من أهم حركات ما بعد الحرب العالمية الثانية، حركة قلبت التوازن فى منطقة الشرق الأوسط لمصلحة العرب فى المنطقة وعلى حساب الامبريالزم الغربى والاستغلال الاستعمارى فى العالم. وهكذا تبدأ فترة التمهيد الأول للثورة (١٩٣٨ — ١٩٤٥). ويبدأ الضباط الصغار فى جمع أنصار لفكرتهم. وفى هذه الفترة يقوم نشاط الضباط على أساس أكثره عاطفى. وفيها أيضاً كانت الظروف والأحداث عاملا أساسيا فى تحديد خطوات الضباط. والطريقة التى سار بها الضباط فى هذا الطور من التمهيد والتى ساروا عليها حتى قيام الثورة وما بعدها إنما تكون سراً من أسرار نجاح قيام الثورة ونجاح المحافظة عليها. فهذه المجموعة من الضباط قد اجتمعت على مبادىء اعتنقتها وتعصبت لها. من ناحية ثانية كان الضباط مخلصين لبعضهم اخلاصهم لمبادئهم فلم تتعرض الجماعة للجدل والانقسام ثم الانهيار. ومن ناحية ثالثة لم تتأثر هذه الجماعة بالتيارات الحزبية التى كانت تعصف بمصر فى تلك الفترة [٢].

(١) أنظر: أنور السادات صفحات مجهولة — ١٩٥٤ — ص ٢٤ — ٢٨.

(٢) نفس المرجع ص ١٦٤، وكذلك: عبد الرحمن الرافعى، ثورة ٢٣ يوليو — ١٩٥٩ — ص ١٩.

القطر وفى السودان لم يكن يعنى زوال الفكرة ، بل ظل الضباط حيثما كانوا يعملون للفكرة . وفترة الحرب هذه لاشك عطلت أو أجلت القيام بدور فعال . فالقوات المتحالفة كانت مسيطرة على كل مرافق البلاد واحتلت قواعدنا وطرق مواصلاتنا بل ووجد الجيش المصرى نفسه يحارب إلى جانبهم أحيانا أيضا . وفى السنين الأولى للحرب لم تكن مصر قد حددت موقفها تماما . ومع ذلك لم يكن الأمر فى يد المصريين بقدر ما كان بأيدى الانجليز . فلم يكن بوسع مصر أن ترسم لنفسها سياسة أكثر وضوحا . كانت هناك قيود تفرضها عليها معاهدة عام ١٩٣٦ من ناحية ، وسيطرة انجليزية تامة على البلاد من ناحية أخرى .

ولاتكاد تقوم الحرب حتى تعلن الأحكام العرفية بناء على طلب الحكومة البريطانية . وتعلن حكومة على ماهر (١٩٣٩ - ١٩٤٠) ،التى جاءت عقب إقالة وزارة محمد محمود، أن سياسة الحكومة هى تجنيب مصر ويلات الحرب. وتسقط وزارة على ماهر بعد أن تظهر بريطانيا عدم استطاعتها التعاون معها . وتجىء وزارة حسن صبرى (١٩٤٠) وفى عهدها تناقش مسألة اشتراك مصر فى الحرب وتقوم أصوات تنادى بذلك. ولكن معظم السياسيين يعارضون هذه الفكرة فيلشب الخلاف بين أعضاء الوزارة بسبب هذه المسألة . ويموت حسن صبرى فى هذه الأثناء وتجىء وزارة حسين سرى (نوفبر ١٩٤٠ — فبراير ١٩٤٢) ولكن العلاقات تفسد بينها وبين السراى وتسوء الحالة الاقتصادية إلى حد خطير. وتظهر انجلترا تبرمها وضيقها بحكومات الأقلية التى ينقص حكمها الاطمئنان والاستقرار فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الامبراطورية ، ولهذا تقرر انجلترا أن يتولى الوفد ـ حزب الأغلبية وقتئذ ـ الحكم .

وكانت طريقة فرض الانجليز للوفد لحكم البلاد مهينة للشعب وللجيش وللملك،

رأس البلاد ورمز كرامتها حينئذ . وكان فاروق لا يزال فى أعين الشعب ذلك الملك الشاب المحبوب الذى توسم الخير على يديه بعد أن قدم اليه ملكا مستقيماً وطنيا لاسيا وقد تزوج فى سن مبكرة من ابنة أحد كبار الموظفين من غير أفراد العائلة المالكة (١٩٣٨) . وتأزمت الأمور بين الوفد والسراى التى كانت ترى تأليف حكومة قومية ولكن الوفد كان يرفض ويصمم على وزارة وفدية بحتة . وهنا يتدخل الممثل الانجليزى فى مصر (٤ فبراير ١٩٤٢) ويرسل إنذاره المشهور: « إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى إلى تأليف وزارة فان جلالة الملك فاروق يجب أن يقبل نتائج ذلك »(١). وفى ذلك الإنذار تهديد بالخلع . وجاءت الدبابات البريطانية تحاصر قصر عابدين تأييدا للإنذار . وهكذا تقوم وزارة وفدية لا يفرضها الشعب على الملك كما ينبغى أن يكون الوضع بل تفرضها انجلترا ، خصم الشعب .

وينفرد الوفد بالحكم ما بقى من مدة الحرب . وطوال هذه المدة لم تقم وزارة الوفد بأى مجهود ظاهر يكسب مصر حقوقا أثناء الحرب . فالوفد يخشى إغضاب انجلترا ولم يحاول الوفد بث عراقيل خطيرة أمام انجلترا . بل بات واضحا أن حكومة الوفد قد عزمت على التسليم بكل ما يطلبه الانجليز منها . وأخضعت مصر اقتصادها وكل مرافقها لخدمة المجهود الحربى للحلفاء . والوفد ينتهز هذه الفرصة لخدمة أنصاره وكسب أنصار جدد . وفى تلك الفترة يعرف رأس المال وما يسمى بالاقطاع طريقهما إلى الوفد بانضمام بعض ممثليهما اليه . فالأهواء الحزبية والمنافع الشخصية كانت تسير الأحزاب إلى حد كبير سواء كانت فى الحكم أم خارجه . فالوفد مثلا فى عهد وزارة على ماهر يجاهر

(١) انظر : عبد الرحمن الرافعى ، فى أعقاب الثورة المصرية جـ٣ ـ ١ - ١٩ — ص ١٠٧

بضرورة ضمان مصالح ومطالب مصر بعد الحرب (أبريل ١٩٤٠) . وكذلك في خلال حكم الوفد أثناء الحرب تلتهز المعارضة الفرصة لتكسب نصرا داخليا وتطالب بنفس المطالب تقريبا . هذه الأحداث كلها كان لها أثرها في توجيه الضباط الأحرار — وهذا هو الاسم الذي عرفت به جماعتهم بعد تنظيمها فيما بعد — وفي تطوير الوسائل التي تعمل على تحقيق فكرتهم . وكان لكل ذلك أثره أيضا في استقلال الضباط الأحرار داخل الجيش عن كل مؤثر خارجي وعن كل قيادة خارجية . ومرت الأيام لتزيد الضباط إيمانا بصواب فكرتهم في العمل وتنير الطريق لهم .

كانت حكومة الوفد — يساندها الانجليز — تتحدى الملك ، وكان الملك يتحين الفرص لإقالتها . وكان فاروق قد سيطرت عليه حالة من الرعب بعد اقتحام الانجليز لقصره بالدبابات ، وصار يخشى على عرشه من الضياع كما ضاع عرش اسماعيل وعباس من قبل بسبب التدخل الانجليزي . ويأتي فاروق في تلك الفترة من الأعمال ما يمس كرامة عرشه وكرامة مصر بالتالي . فهو يزور تشرشل في دار السفارة البريطانية ، ويحول قصر رأس التين الى مستشفى عسكري للانجليز ، وهو يرتمي في أحضان جنود أمريكا وضباطهم يلهو ويقضي السهرات معهم . وبعد عام ١٩٤٤ يوغل الملك في تغييره وبذلك يفقد كل ما كان يرجوه المصريين فيه من معاني الوطنية . وصار فاروق يمثل عنصرا من عناصر الخيانة في مصر بعد أن كان — حتى حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ — عنصرا من العناصر الوطنية . فحينئذ كان الاعتداء على قصره اعتداء على مصر حتى أن الضباط الأحرار يحاولون الثأر لهذا اليوم بتدبير عملية لابادة الجنود الانجليز في مصر . ولكنه النظام الملكي الرجعي أولا وقبل كل شيء . وفي ظروف مثل ظروف مصر كان هذا النظام دائما

حائلا دون أى تقدم حقيقى للبلاد . ووجد الضباط الاحرار أنه لابد من القضاء على ذلك النظام حتى يمكن التفرغ بعدئذ لمشكلتى الاقطاع والاستعمار .

مصر بعد الحرب العالمية :

بعد ذلك تبدأ الفترة الثانية من فترة التمهيد الطويل للثورة (١٩٤٥-١٩٥٢) وهذه الفترة مشحونة بأحداث جسام حددت معالم الطريق للضباط الأحرار وعجلت بقيام الثورة . ففيها تحدث حرب فلسطين التى تكشف عن مخازى الملكية وقصور أداة الحكم فى مصر وخيانات الرجعية فى العالم العربى . وفيها يتضح موقف كل من الملك وحزب الأغلبية ازاء المصالح الحقيقية للشعب . وفيها يصل الكفاح ضد الانجليز فى منطقة القناة إلى ذروته، ولكن سرعان ما يصاب بالنكسة عقب حريق القاهرة . ثم لايلبث أن يزداد النزاع بين السراى والضباط الأحرار عنفا وشدة ويصير أكثر سفورا عن ذى قبل ويوقع الضباط بالسراى هزيمة ساحقة ابان معركة انتخابات نادى الضباط . وفى غفلة صحوة الموت التى تحاول فيها الملكية عبثا لم شعثها يضرب الضباط ضربتهم وتقوم الثورة .

وبانتصار الانجليز فى الحرب العالمية الثانية يستغنون عن وزارة الوفد ، فقد أدت مهمتها بالنسبة اليهم على خير مايشتهون . وهنا تلتقى مصالح الملك الذى كان ينتظر ذلك اليوم الذى يتخلص فيه من حكومة الوفد ، ومصالح الاحتلال الذى خشى مناوءة الوفد له والمطالبة بالجلاء عن مصر . ويسرع الملك إلى إقالة وزارة الوفد (اكتوبر ١٩٤٤) ، وتجىء وزارات السعديين أحمد ماهر ، ثم النقراشى . وكان من رأى هذا الحزب انضمام مصر إلى الحلفاء مما أودى بحياة رئيسه أحمد ماهر (٢٤ فبراير ١٩٤٥) . وجاء بعده النقراشى ، وفى عهده تعلن مصر الحرب على المانيا واليابان قبيل حوالى الشهرين من انتهاء الحرب العالمية

الثانية . وتبدأ الحكومة فى أن تخفف من بعض القيود التى فرضتها الحرب وذلك بعد التسليم النهائى لليابان (٢ سبتمبر ١٩٤٥) . فترفع الأحكام العرفية وتبدى الحكومة استعدادا طيبا لتبنى القضية الوطنية وتطالب بالدخول فى مفاوضات مع بريطانيا لإعادة النظر فى معاهدة عام ١٩٣٦ (ديسمبر ١٩٤٥) . والرد البريطانى ولو أنه يقبل مبدأ المفاوضة إلا أنه جاء مخيبـــا للآمال . فقامت المظاهرات الشعبية فى القاهرة والاسكندرية بعنف ضد الانجليز . وانطلقت المشاعر بعد طول كبت فى فترة الحرب . ويقتل فى تلك المظاهرات بعض الطلاب ويصاب فيها الكثيرون منهم . وهكذا تستقيل وزارة النقراشى وتجىء وزارة اسماعيل صدقى (١٧ فبراير ١٩٤٦) .

وكان لتلك الأحداث أثرها فى أن تغير الحكومة البريطانية موقفهـا بعض الشىء ونقلت لورد كيلرن — وكان من غلاة الاستعماريين — وأحلت محله سير رونالد كامبل وكانت له دراية بشئون مصر . وفى عهد صدقى تقوم مفاوضات صدقى — بيفين التى انتهت إلى مشروع وقع بالأحرف الأولى من أسماء المتفاوضين (أكتوبر ١٩٤٦) . ولكن ذلك المشروع قوبل بالسخط . فرغم أنه ينص على وجوب الجلاء عام ١٩٤٩ إلا أنه يربط مصر بعجلة بريطـانيا بصورة دائمة . فهو يدعو إلى الدفاع المشترك كما أنه يكسب بريطانيا نوعا من الوصاية فيما يختص بالأمور التى يتعاون فيها الجانبان المصرى والانجليزى . وفى مذكراته يتخبط صدقى فى ذكر عوامل فشل ذلك المشروع . فتارة يذكر أنها الحزبية فى مصر وأخرى يقول إنها مساعى إحدى الدول الشيوعية الكبرى التى عملت على افشال كل محاولة للتقارب بين مصر وانجلترا ، وثالثة يرجعها إلى دسائس دوائر حكومة السودان الانجليزية وبعض دوائر وزارة الخارجية البريطانية نفسها(١) .

---

(١) انظر مذكرات صدقى: ص ٦١ - ١٤٢ .

على أى حال تسقط قوة الرأى العام حكومة صدقى وتعود وزارة النقراشى (ديسمبر ١٩٤٦) . ويجلو والانجليز عن القاهرة والاسكندرية وبعض المواقع ولكنهم لا يعيرون مطالب المصريين اكتراثا كبيرا . وتضطر الحكومة إلى عرض القضية على مجلس الأمن ، ولكنها لا تنجح . فالحكومة المصرية تطلب الجلاء ووحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى . وفى ذلك لم تكن الدول من رأى مصر . فهناك معاهدة صداقة تربط مصر بانجلترا وتجعل وجود هذا الاحتلال أمراً مشروعا ،والمندوب الانجليزى يشير إلى قبول انجلترا لفكرة الجلاء فى مشروع صدقى ـ بيفن الذى رفضته مصر . ثم أن الدول الأعضاء فى المجلس لم تكن كلها دولا ملكية حتى تكن بعض العطف على مسألة التاج المصرى السودانى . من ناحية أخرى لم يكن ذلك المطلب يتمشى مع الاتجاه السائد فى العالم حول حق تقرير المصير للشعوب. ولو تمسكت مصر وقتئذ بحق كل من السودان ومصر فى تقرير مصيره لتغيرت غالباً نظرة الدول إلى المطالب المصرية . ولا يجب أن ننسى أيضا أن الخلافات الحزبية فى مصر والعوامل الشخصية قد أضعفت مركز مصر أمام العالم ، بينما كان مركز بريطانيا الدولى عام ١٩٤٧ أقوى منه غقب انتهاء الحرب . بعدئذ تتوالى الكوارث على مصر والعالم العربى . فيظهر وباء الكوليرا بمصر فى أواخر عام ١٩٤٧ ويجىء قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين (٢٩ نوفمبر ١٩٤٧) . ويتأزم الموقف بهياج الرأى العام العربى وتصريح بريطانيا بجلائها عن فلسطين فى موعد غايته ١٩٤٨ .

هذا ما كان من الموقف فى مصر عقب انتهاء الحرب . ولا شك أن هذه الأحداث قد أثرت على حركة الضباط الاحرار . فبانتهاء الحرب وزوال قيودها لاحت للضباط فرصة العمل المنظم . وكانت الأوضاع قد تبلورت ولم تعد هناك

فروض تسمح بتفسيرات هذا أو ذاك للقضية الوطنية . ووضع الضباط نصب أعينهم أنه لم يعد هناك سوى العمل من أجل مصر أو العمل ضـــد مصر . وهكذا بدأ جمال عبد الناصر ينظم خطوطه ويحدد أعوانه ويعد العدة لمعركة مصر المرتقبة . كانت مشكلة انعزال الجيش عن الشعب أولى المشاكل التى اعترضته . كان الحاجز بين الشعب والجيش كبيرا وليس من السهل تحطيمه . فالجيش كان الوسيلة التى يستخدمها الحكام ضد الشعب كلما ثار وسخط . وهذه هى صورة الجيش كما رسمها الانجليز للشعب وشاركهم فى اظهارها القصر والأحزاب . وهكذا انعدمت الثقة بين الجيش والشعب وانعزل عن قضاياه .

وإلى جانب ذلك كانت هناك عقبات أخرى أمام الضباط . فهناك الملك الذى كان متحالفا مع الرجعية وأحزاب الأقلية ويعمل بوحى من الاستعمار أو لصالحه الخاص . وهناك الأحزاب . فأحزاب الأقلية كانت تصل إلى الحكم بأية طريقة خلاف الانتخابات النظيفة . وقد وجدت هذه الأحزاب فرصتها بعد حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ للدعاية لنفسها فى المجال القومى. أما حزب الأغلبية فقد بدأ ينحرف عن تمثيل الشعب تمثيلا صحيحا بعد أن ضم اليه الرأسماليين والانتهازيين وربط مصيره بمصالحهم وبعد أن أنهى كفاحه ضد الانجليز . كذلك كانت هناك عناصر الرجعية. وكانت هناك الأمراض الوراثية التى يعانيها شعب مصر ، وهى أمراض خلقية نتيجة لتلك الحقبة الطويلة التى رسخ الشعب تحتها يئن من الفقر والظلم والاهمال، فكانت أمراض التردد والخوف والنفاق والاستسلام . . . الخ. وعلى هذا الضوء بدأ جمال عبد الناصر يحدد أعداء الوطن تحديدا واضحا (١). وكانت الروح التى سادت الجيش قد بدأت تبشر بنجاح كبير خلال أحداث عامى

---

(١) أنظر : أنور السادات : صفحات مجهولة : ص ١١٧ ـــ ١٢١

١٩٤٦ — ١٩٤٧ . فالضباط الأحرار كانوا قد بدأوا فى خلق رأى عام واع بين ضباط الجيش منذ أواخر الحرب العالمية الثانية وذلك حتى يستطيع هـــذا الرأى أن يحرك الجيش كله نحو هدف واحد وبصورة منظمة . وازداد السخط بين صفوف الجيش وأحس الملك وقادة الجيش والسياسيون بذلك وعملوا على ارجاع الجيش إلى ما كان عليه من سلبية . وبدأت حركة ترقيات الضباط تنشر متتابعة فى الصحف وذلك كوسيلة لارضائهم من جانب ولايقاع الفرقة بينهم وبين طوائف الشعب من جانب آخر . ولكن الأحداث جاءت سريعة متلاحقة تكشف الغطاء عن الوجه الحقيقى للجميع وتوجه الجيش نحو المعركة الكبرى .

نكبة فلسطين

ألهبت اعتداءات اليهود على عرب فلسطين مشاعر الشعب العربى فى مختلف البلاد وقرر الشباب العربى خوض المعركة . ولم تستطع الحكومة منع الجماعات الثائرة منهم من خوض الحرب كمتطوعين . واستقر رأى الضباط الأحرار على مساعدة المقاومة فى فلسطين ، فهم كانوا يؤمنون بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا وأن سلامتنا تقتضى أن ندافع عن حدود اخواننا . ووافقت الحكومة بعد تردد على اشتراك الضباط كمتطوعين فى القتال الناشب فى فلسطين [١] . وفى تلك العمليات لمس الأحرار مدى فساد الأداة الحكومية والفساد فى الجيش نفسه. وتعلن مصر الحرب (١٥ مايو عام ١٩٤٨) وذلك فى الوقت الذى يتدهور فيه مركز مصر الخارجى كما يزداد مركز الوزارة ضعفا على ضعف يتحدى الانجليز لآمال مصر ولسياستها فى السودان . ولم تكن مصر مستعدة استعدادا للحرب لاسياسيا ولا حربيا . فلم يكن لديها السلاح أو الاصدقاء الذين يقفون إلى جانبها

(١) المرجع السابق ص ١٧٧ وكذلك فلسفة الثورة ص ٦٣—٦٤

فى تلك المحنة . انما كانت الحرب على أية حال فرصة لتحويل الرأى العام فى مصر عن مناقشة الأمور الداخلية (١) . وكان على الجيش أن يخوض المعركة كأشجع وأشرف ما يكون . وفى الميدان اتضحت الحقيقة المرة ، وهى حقائق كانت - كما يقول ضباط اشتركوا فى حرب فلسطين ثم اشتركوا فى ثورة ٢٣ يوليو - كفيلة بتثبيط أى أهمية . ففى أرض المعركة لم يكن يوجد شىء يصلح للحرب من سلاح أو عتاد أو ذخيرة أو مواصلات. وكان الجيش يحارب فى فلسطين وقيادته الفعلية فى القاهرة . ويرى الضباط أن عدم وجود قيادة حقيقية للجيش هو سبب الهزيمة . فزاد السخط على القيادات وعمل الاحرار على تغييرها وتغيير الأوضاع الشاذة فى البلاد من أساسها . وفى الواقع كان الجيش - كما يقول الرئيس جمال عبد الناصر فى فلسفة الثورة (٢) - يحارب فى فلسطين وأحلامه فى مصر ، وقلوبه تخفق للوطن الذى تركه للذئاب ترعاه. وفى الخنادق فى أرض المعركة كانت خلايا الضباط الأحرار تجتمع وتدرس وتبحث . وكانوا متفقين تماما على أن مصر هى ميدان جهادهم الأكبر ، وانها « فالوجة » أخرى على نطاق واسع . فالشعب فى مصر قد غرر به وحاصرته المشاكل والأعداء ولعبت بأقداره مؤمرات ومطامع وشهـــوات .

وماحدث فى فلسطين بالنسبة للشعب المصرى حدث بالنسبة للشعوب العربية الأخرى . فهذه الشعوب قابلت الحرب فى فلسطين بنفس الدرجة من الحماس . فهناك مشاركة فى الشعور وفى التقدير لحدود سلامتها . فهى أيضا كانت تحس أن حدودها ليست هى التى تفصلها عن جيرانها العرب ، بل أن حدود الشعب العربى فى كل مكان هى حدودها وسلامة هذه الحدود فيها سلامتها. ثم خرجت تلك الشعوب

---

(١) محمد مصطفى صفوت : مصر المعاصرة ص ١٦٢ .

(٢) ص - ١٢/١٣ .

من الحرب بنفس المرارة والخيبة . فكلها تعرضت لنفس العوامل ونفس القوى التى ساقتها جميعا إلى الهزيمة . وبات واضحا أن الذى يحدث فى فلسطين من تشريد للاهالى واغتصاب للحقوق يمكن أن يحــــدث فى أى بلد عربى فى المنطقة مادام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى أسهمت فى اخراج مأساة فلسطين إلى حيز الوجود ، وعلى رأسها الاستعمار وأذنابه فى المنطقة .

وانتهى التدخل فى فلسطين بالهزيمة وهدنة رودس الدائمة . وكان واضحا أن الدول العربية ـ للعوامل التى ذكرت ـ لم تتضامن مع مصر بالقدر الذى كان مفروضا أن يؤدى الى النصر . ومن الميدان عاد الجيش وعاد الضباط الأحرار إلى مصر ليبدأوا العمل فورا . وكان الوقت مناسبا كما كانت الأحداث فى الداخل تتطور بسرعة . ففى الداخل ظهرت قوة الاخوان المسلمين بشكل رأته الحكومة خطرا على سلطانها وعلى مركزها فتحل هذه الجماعة (ديسمبر ١٩٤٨) . ويدفع النقراشى حياته ثمنا لذلك فى أواخر العام نفسة . وجاءت إلى الحكم وزارة سعدية أخرى هى وزارة ابراهيم عبد الهادى ، وهذه شغلت بالموقف الداخلى وبخصومها وفى عهدها نشط القسم السياسى وأهدرت الحقوق والحريات . ويؤلف حسين سرى وزارة ائتلافية ثم وزارة محايدة تمت فى عهدها عملية الانتخابات . وهكذا كانت الأحوال فى مصر تتخبط وظهر التنافر الحزبى بأجلى معانية .

آخر حكومة للوفد ـ الكفاح فى القناة

عاد الوفد إلى الحكم (يناير ١٩٥٠) إثر الانتخابات التى أجرتها وزارة حسين سرى ، وعقب هذه الفترة الطويلة التى ظل فيها بعيدا عن الحكم والتى ناله فيها خصومة بكثير من الاضطهاد. لذلك يرى الوفد فى تلك المرة أن يستفيد من دروس الماضى وأن يحارب خصومه عن طريق التقرب الى السراى ـ السلاح

التقليدى للأحزاب . وكان لتخاذل الحكومة الواضح أثره فى تمادى الملك فى غيه وتدخله فى شئون الحكم، بعدما كان متخوفا من وزارة الوفد التى بدا أن الشعب قد فرضها عليه هذه المرة . ويتمادى الوفد بالتالى فى اعتماده فى سياسته على « الرضاء السامى » وتظهر بدعة جديدة فى التدخل فى شئون الحكم تباركها الحكومة وتسميها « بالتوجيهات الملكية » . وكانت تلك التوجيهات فى الواقع بمثابة أوامر ملكية واجبة التنفيذ . وغالبا ما كانت الوزارة تتخذها حجة للتخلص من مسئوليتها الوزارية مخالفة بذلك روح الدستور . وهكذا وجدت هذه « التوجيهات » طريقها إلى مختلف الوزارات ، وصارت السراى تسيطر على جهاز الدولة . وامتد هذا الطغيان إلى الأداة التشريعية والقضائية . فلا تكاد تثار مسألة التحقيقات الخاصة بصفقات الأسلحة الفاسدة التى أمد بها جيش مصر بفلسطين فى مجلس الشيوخ حتى تصدر المراسيم التى تعصف بكيان مجلس الشيوخ وتخرج منه عددا كبيرا من المعارضين (مراسيم ١٧ يونيه ١٩٥٠) (١) . وتشل حركة النائب العام خلال تحقيقات هذه الصفقات بأمر الملك (٢) . ويضطر كبار الموظفين إلى الاستقالة إذا لم يحوزوا الرضاء السامى . وأصبحت سمعة الحكم المصرى مضغة فى الأفواه فى الداخل والخارج مما حدا بأقطاب المعارضة إلى ارسال كتاب لفاروق يطلبون فيه وضع حد لهذه المفاسد . ومن أصدق ما جاء بذلك الكتاب هذه الفقرة التى تقول « والله يعلم أن الصدور منطوية على غضب تغلى مراجله وما يمسكها إلا بقية من أمل يعتصم به الصابرون » .

---

(١) أنظر : عبد الرحمن الرافعى . مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — ص ٢٠٠ — ٢١٢

(٢) المرجع السابق . أنظر أيضا : محمد حسين هيكل — مذكرات فى السياسة المصرية جـ ٢ ص ٣٠٧

فى هذه الظروف كانت جماعة الضباط الأحرار تعمل فى صمت بعد عودتهم من فلسطين . وكان ذلك وقتا مناسبا للعمل وأمرا طبيعيا أيضا . فغالبا ماتحدث الثورات نتيجة لحروب فاشلة . والفشل فى الحرب لاشك يزلزل قواعد الحكم ويقوض أركان النظام الذى فى عهده قامت الحرب الفاشلة . فالفشل بلا ريب يدعو إلى الشك فى مقدرة القائمين بالأمر وصلاحية نظام الحكم بالتالى . كان تنظيم الضباط الأحرار قد لحقته خسائر كبيرة ابان معركة فلسطين . ولكنهم بدأوا يعملون على اعادة الاتصال من جديد . وتكونت فى أواخر عام ١٩٤٩ هيئة تأسيسية للضباط الأحرار توطئة للسيطرة على الجيش تماما . وفى يناير عام ١٩٥٠ أجريت انتخابات رئاسة الهيئة التنفيذية وانتخب جمال عبد الناصر رئيسا لها بالاجماع . وبذلك بدأ تقليد جديد للمجموعة وهو انتخاب رئيس جديد كل عام . وتم انتخاب جمال رئيسا أيضا فى ينساير ١٩٥١ ، ١٩٥٢ (١) . وفرغ الضباط من وضع أساس للتنظيم كله وأقروا التنظيم العام للتشكيل السرى داخل الجيش . ومضى الضباط يعدون للمعركة الكبرى ، وخرجت المنشورات السرية لتقض مضاجع قادة الجيش والقصر والحكومة . وكانت منشورات ثورية تعكس أهداف الشعب وأمانيه وتنادى بالعدالة الاجتماعية والقضـــاء على الاستعمار وأذنابه وتندد بالأحلاف العسكرية والدفاع المشترك وتكوين جيش وطنى قوى وإيجاد حكم نيابى سليم . وقد قدر الضباط فى عام ١٩٥٠ فترة خمسة سنوات استعدادا للقيام بالضربة الحاسمة . ولكن الظروف السياسية ، وتطور الأحداث فى البلاد بشكل سريع ومثير جعلتهم يقصرون من أمد هذه الفترة .

وفى أكتوبر عام ١٩٥١ يقع حدث هام فى تاريخ مصر القومى . إذ تعلن

---

(١) أنظر : أنور السادات فى صفحات مجهولة (ص ٢٠٤) ؛ وقصة الثورة كاملة (ص ٤٨) ، والرافعى ، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٧ ص ١٠٤ — ١٠٥

الحكومة المصرية الغاء معاهدة عام ١٩٣٦ واتفاقيتى يناير ويونيه عام ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان . وتقدم الحكومة على ذلك أمام الضغط الشعبى المتزايد ونمو الوعى القومى ونقض انجلترا المتكرر لماهدة عام ١٩٣٦ ، وبعد أن يتبين للحكومة الوفدية بجلاء عدم جدوى المحادثات الدائرة بينها وبين الحكومة الانجليزية رغم التساهل الذى أبداه المتفاوضون المصريون . كذلك قدرت حكومة الوفد أن هذا الإجراء سوف يوطد مركزها إزاء الشعب ويصرف الناس عن الحديث عن انحراف الوفد وتهاونه ويرضى هذه الفئة المتحمسة من الشباب الوفدى التى لم يرضها دخول العناصر الرأسمالية إلى الوفد وعبثها بمصالح الشعب. وقد كان لذلك الاعلان فى الواقع نتائج خطيرة لم تكن الحكومة مقدرة لها ، كما لم تكن قد أعدت لكل شىء عدته كما سبق أن أعلنت للشعب . فالأمر لم يتعد تنفيذ بعض الإجراءات المترتبة على الإلغاء ، وكلمات حماسية حول الغاء المعاهدة .

وكما كان الغاء معاهدة عام ١٩٣٦ بداية طيبة لمرحلة جديدة من مراحل كفاح الشعب ضد الاستعمار فقد كان ذلك فرصة أيضا لتوحيد الصفوف وجمع الكلمة . ولكن الوفد لم يقدم على تلك الخطوة واستمر فى سياسته الحزبية . والأحزاب من جانبها، بالإضافة إلى الظروف الداخلية والخارجية ، لم تسهل مهمة الوزارة الوفدية . وهكذا ترك الشعب يخوض المعركة ضد قوات الاحتلال فى القناة . وتبدأ حركة الفدائيين وكانت تهدف إلى تدمير مستودعات العدو ومخازنه وقطع خطوط مواصلاته وتموينه وجعل وجوده فى منطقة القناة مستحيلا . ورغم أنه لم تكن هناك قيادة موحدة لكتائب الفدائيين فقد حدث تكتل بين فئات الشعب . واشترك الضباط الأحرار فى النشاط ، والتحق بعضهم بفرقة الفدائيين التى انطلقت إلى فلسطين بقيادة أحمد عبد العزيز، وذلك بعد احالتهم إلى الاستيداع

معذبيهم (١) ، وقاموا بتمرين الطلبة والعمال والفلاحين وامدادهم بالأسلحة .
وانسحب العمال المصريون من القاعدة بالقناة وهذا أصاب الانجليز بالأضرار .
وقامت المعارك بين المصريين والقوات المحتلة فى مدن القناة . واحتل الانجليز معظم المناطق الهامة هناك وأقاموا فيها الحكم العسكرى وشلوا حركة النقل والإجراءات الصحية . وشهدت الأيام فى أواخر عام ١٩٥١ وأوائل عام ١٩٥٢ احداثا واشتباكات خطيرة فى منطقة القناة .

ويتمادى الانجليز فى اعتداءاتهم فى منطقة القناة ويزيلون حيا بأكمله من أحياء السويس كان يسمى كفر عبده (٨ ديسمبر ١٩٥١) ويشردون نحو ألفين من سكانه . وقد قوبل ذلك الإجراء بالاستنكار فى أنحاء العالم وازداد الأزمة المصرية البريطانية استحكاما . وتبلغ مصر أمر ذلك العدوان إلى هيئة الأمم المتحدة ولكنها لا تعير احتجاج مصر أهمية كبيرة ، فلم يكن لمصر حينئذ أصدقاء أقوياء يؤيدون سياستها . وفى نفس الوقت تقرر الحكومة المصرية سحب سفيرها ـ عبد الفتاح عمرو ـ من لندن (١١ ديسمبر عام ١٩٥١) احتجاجا على الاعتداءات البريطانية المتكررة . كذلك تقرر الحكومة الاستغناء عن خدمات الموظفين الانجليز فى المصالح الحكومية واستصدار تشريع بمعاقبة كل مصرى يتعاون مع السلطات العسكرية الأجنبية وتشريع يمكن المصريين من حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم وبلادهم .

وفى هذه الأثناء يكشف فاروق عن وجهه الحقيقى . فسياسته لم تكن تعمل على التقرب من الشعب بحال . ويتنكر للشعب فى ابان كفاحه ضد الانجليز ويعين حافظ عفيفى ـ وكان معارضا فى الغاء معاهدة عام ١٩٣٦ ـ رئيسا للديوان الملكى ، كما يعين عبد الفتاح عمرو وكان معروفا بميوله الانجليزية مستشاراً للديوان

(١) د . أحمد فريد : كفاح الشباب وظهور جمال عبد الناصر . ص ٨١

الملكى فى الشئون الخارجية. ويفاجأ الشعب بكل ذلك كما تفاجأ به الوزارة الوفدية. ولكن الوزارة تلزم الصمت رغم ما فى ذلك من تعد على حقوقها الدستورية. وبدأت المظاهرات المعادية ضد فاروق تسير فى الشوارع. ودوت الهتافات بسقوطه وسقوط أسرته يطلقها الطلبة والعمال وطوائف المواطنين. وكانت تلك الهتافات المعادية ضد الملك فى الشوارع ظاهرة جديدة فى الحيـــاة السياسية فى مصر - وتعطلت على أثرها الدراسة فى الجامعات والمدارس. وتتكرر هذه الهتافات عندما يضرب طلبة المدارس الثانوية بعدئذ بمناسبة مولد ولى العهد أحمد فؤاد فى أواسط يناير ١٩٥٢. وتمتاز هذه الاضرابات بطابع العنف مع رجال البوليس فى الوقت الذى كان رجال البوليس يقفون إلى جوار الشعب فى كفاحه بالقناه. وكانت الحياة السياسية فى مصر فى الواقع تتدهور تدهوراً سريعاً وكان الموقف يفلت من يد الحكومة يوما بعد يوم. كانت حكومة الوفد تظن أنها بمهادنتها السراى قد اطمأنت الى مركزها فتمضى فى سياستها الحزبية والتعسفية. وهى تعبىء الشعب فى نفس الوقت الذى تساير فيه السراى، وكل من الشعب والملك ناقم على الآخر وحانق عليه. ويستمر تدهور الحياة السياسية. وفى غمار ذلك يحدث حريق القاهرة وتتوالى الوزارات بسرعة.

حريق القاهرة وما بعده :

وكان حريق القاهرة (٢٦ يناير ١٩٥٢) هو رد الفعل الذى انساق إليه الشعب المضلل فى القاهرة نتيجة لمذبحة الاسماعيلية فى اليوم السابق. ففى هذه المعركة احتسب خمسون شهيدا من رجال البوليس وجرح نحو ثمانين منهم (١). وكان ذلك الاعتداء البريطانى تعديا صارخا على حقوق السيادة التى تتمتع بهـــا

(١) عبد الرحمن الرافعى : مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ص ٩٢

الدولة المستقلة كما كان ينطوى على استهتار البريطانيين بالسلطة المحلية واحتقارهم لها . وكانت هذه الحادثة لطمة لمركز الحكومة وسلطتها وعملت على نقصان هيبتها وضعف ثقة الناس بها . فقامت المظاهرات فى القاهرة فى اليوم التالى للمعركة . ولم تلبث المظاهرات أن انقلبت إلى اضطرابات سيطر فيها الغوغاء على العاصمة ، وهؤلاء وراحوا يضرمون النار فى الممتلكات البريطانية وبعض الممتلكات الأوربية والأمريكية .

واحراق القاهرة بالصورة التى تم بهـا ، فضلا عن أنه عمل إجرامى ، فقد أنهى كفاح الأحرار فى القناة وكاد يقضى على كثير من الآمال . وكثر اللغط حول مسئولية هذه الأعمال ولحساب من تمت . وتوجهت الأنظار متهمة إلى الشيوعيين والاخوان المسلمين (١) وإلى السراى والانجليز ، فن المفروض أن هؤلاء هم الذين سيفيدون من هذه الاضطرابات التى كلفت البلاد غاليـا . فانجلترا مثلا خرجت من هذه الأحداث بفوائد سياسية وعسكرية عظيمة .وهناك احتمال كبير بأن عملاءهم فى مصر قد أسهموا فى هذه الأحداث بقصد التقليل من قيمة الحركة القومية وإعطائها صبغة عنصرية وتوجيهها ضد الأقليات . . يؤكد البعض بأن منظمة « اخوان الحرية » ـ التى تأسست باشراف الأجهزة البريطانية الخاصة لتصرف الشباب المصرى عن قضية البلاد وتشغله بالتكتل ضد الشيوعية ـ قد اشتركت فى الأعمال التخريبية فى ذلك اليوم وخاصة هذه الموجهة إلى محلات اليهود ومصابدهم . ومهمـا قيل عن مسئولية هذه النكبة ، فلا يمكن انكار

---

(١) هناك من يعتقد بوجود علاقة وثيقة وتعاون بين القصر وبوليسه السياسى من جهة وبين كل من الشيوعيين والأخوان رغم كل شىء .. أنظر : جورج فوشيه ـ جمال عبد الناصر فى طريق الثورة ـ بيروت ١٩٦٠ ـ ص ٣٠٩

(٢) المرجع السابق ـ ص ٣١١

مسئولية الحكومة وتهاونها ومسئولية الملك ومسئولية الانجليز على الأقل فيما يتعلق بعدوانهم فى الاسماعيلية .

ولم ينقذ القاهرة إلا نزول الجيش بالمدينة فساد الأمن وتوقفت حوادث الحريق وأعلنت الأحكام العرفية. وتوقفت الدراسة فى الجامعات والمدارس وتوالت الأوامر العسكرية بمنع التجول والتجمهر . ونشط الضبـــاط الأحرار وأصدروا منشورا يقول « إن الخونة الموجودين بين المصريين يعتمدون عليكم وعلى جيشكم للوصول إلى أهدافهم . أنهم يعتبرونكم آلة للقمع والقتل ، آلة لاجبار الشعب على قبول نظام لايريده . فليفهم هؤلاء الخونة أن الجيش مسئول عن تحرير البلد وحمايته . لقد نزل الجيش إلى شوارع القاهرة ليضع حدا لمؤامرة الخونة . ولـكنه لن يقبل أن يقوم بدور السفاكين ، لسفك دماء الشعب. ولن نطلق حتى ولا رصاصة واحدة على المظاهرات الشعبية ، ولن نوقف أحدا من هؤلاء الوطنيين المخلصين .. أيها الضباط ... إن البلد فى خطر ويجب أن نحذر من المؤامرات التى تحاك ضده وضدكم . . . الخ[1] .

وأقال الملك وزارة النحاس فى اليوم التالى وتوالت بعدئذ وزارات المستقلين (على ماهر ـ الهلالى ـ حسين سرى ـ ثم الهلالى) . وفرض هذه الوزارات لم يكن يتجاوب مع الشعب، فهذا كان يعنى عودة الحكم المطلق بصورة أخرى . وهكذا كانت الأمور فى البلاد تسير من سىء إلى أسوء كان حريق القاهرة حافزا لبريطانيا لأن تتسمك بموقفها من قضية البلاد لاسيما بعد أن ضعف مركز مصر فى الداخل والخارج . وكثر تدخل السراى فى شئون الوزارة ووضع العقبات أمامها : تستقيل وزارة على ماهر ويجىء الهلالى ليستقيل هو الآخر حينما يحس بأن السراى تميل إلى التغيير ، ويؤلف حسين سرى الوزارة فى جو من عدم

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٣١٣

الاستقرار واستهتار من الملك لتظل فى الحكم حوالى الأسبوعين (٢-٢٠ يوليو). وفى غمار أزمة الجيش يستقبل حسين سرى وتجىء وزارة الهلالى الثانية لتمكث فى الحكم بضعة ساعات ثم تقوم الثورة .

وفى غمار هذه الأحداث ظهرت الروح العدائية للملك فى الجيش بوضوح . فالضباط الأحرار كانوا قد وضعوا الملك منذ زمن فى قائمة أعداء الشعب وجاءت الأحداث تؤكد صواب هذا الحكم . وبات واضحا أن ولاء الجيش للملك أصبح مشكوكا فيه . واتضحت هذه الحقيقة أكثر للأجانب الذين قدروا نتائج ذلك الوضع أكثر مما قدر الملك نفسه ، وحتى بات شائعا فى الدوائر الامريكية - فى أواخر عام ١٩٥١ وأوائل عام ١٩٥٢ - أن أمريكا قد عدلت عن سياسة الاعتماد على الملوك فى الشرق الاوسط [١] . وأظهرت معركة انتخابات نادى الضباط (ديسمبر ١٩٥١ - يناير ١٩٥٢) مدى قوة الضباط الأحرار فى معركة التحدى مع السراى . فادارة الجيش ومخابرات القصر يلمسان تكتل الضباط الأحرار لاسقاط مرشحى القصر فى انتخابات مجلس إدارة النادى . وتصدر رئاسة الجيش أمراً بالغاء الانتخابات . ولكن الضباط يجتمعون فى الميعاد ويرغمون رئاسة الجيش على الاستجابة لمطالبهم . وتجرى الانتخابات وتسفر عن فوز مرشحى الضباط الأحرار وعلى رأسهم اللواء محمد نجيب كرئيس للنادى . ويسقط فى الانتخابات الضباط المعروفون بأنهم صنائع السراى .

وكانت الصدفة العابرة - كما يقول أنور السادات [٢] - هى التى جعلت اسم محمد نجيب يتردد على ألسنة الضباط . فالأمر كان قد صدر بنقل محمد نجيب من سلاح

---

(١) أنظر رواية محمود عزمى عن حديثه بهذا الصدد مع أحد الساسة الأمريكيين . محمد حسين هيكل - مذكرات فى السياسة المصرية جـ٢ ص ٣٧٣

(٢) قصة الثورة كاملة ص ٥٧ - ٦٠

المحدود إلى سلاح المشاة وتعيين أحد عملاء السراى مكانه دون مبرر . وبذا بدأ محمد نجيب فى محنة . فوقف الضباط الأحرار إلى جانبه على أساس اقناعه بعدم تقديم استقالته والاحتفاظ به لجولة أخرى ضد السراى . وكانت معركة انتخابات نادى الضباط . وهكذا جاء ترشيح محمد نجيب لتولى قيادة الثورة . وظل نجيب — كما يقول أنور السادات أيضا — يجهل أمر قيام الضباط الأحرار بتدبير ثورة وانقلاب أو أن بالجيش تنظيما سريا يعد لقلب نظام الحكم ، أو أمر اختياره قائدا للثورة إلا فى الصباح المبكر من يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (١) . كذلك لم يتعرف محمد نجيب إلى الأعضاء البارزين فى اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار إلا عقب نجاح الثورة (٢) . على أية حال ، يمضى الضباط الأحرار فى خطتهم بعد انتخابات النادى وقد زادوا ثقة بأنفسهم وبقرب خلاص هذا البلد مما يعانيه . ثم يفاجأ الجميع بأحداث القاهرة وحريقها . ويكون ذلك حافزا للمجموعة على الاسراع بالقيام بحركتهم .

وجاء شهر يوليو عام ١٩٥٢ بأحداثه التى مرت سريعة متلاحقة : تتألف وزارة حسين سرى بعد لهو وعبث من الملك بتأليفها وفرض كريم ثابت وزيرا بها . وتتأزم الامور بين الوزارة والملك على أثر حل مجلس إدارة نادى الضباط (١٥ يوليو ١٩٥٢) وتدهور الموقف السياسى فى مصر ، وتخبط الوزراء والمسئولين فى اقتراح حلول للموقف . وفى غمار هذا التخبط يضرب الأحرار ضربتهم . وتبدأ مرحلة التحول العظيم فى تاريخ مصر الحديث .

---

(١) أنظر : المرجع السابق : صفحات ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٧

(٢) جورج فوشيه — ص ٣١٧

الطريق إلى الديمقراطية السليمة والاشتراكية العربية

الاشتراكية العربية

الديمقراطية نظام من نظم الحكم . وهى اصطلاح سياسى مأخوذ من كلمة الاغريقية تعنى حكم الشعب . والاغريق القدماء هم أول من عرف هذا النظام فى الحكم . فكان أهل الوحدة السياسية حينئذ ـ من غير العبيد ـ يجتمعون جميعا لمناقشة شتى أمور الوحدة. ويتبارى الخطباء والمتكلمون فى عرض وجهات النظر والجدل والنقد ثم تتخذ القرارات بعد أن يدلى كل بصوته إزاءها . ومن الطبيعى أن يسفر هذا النظام عن صالح الوحدة كجماعة وأن يمنع استئثار فرد أو أفراد بالسلطة لغير مصلحة الوحدة ومع تطور شكل هذه الوحدة بالاتساع وزيادة عدد السكان ، واستحالة اشتراك أهلها كلهم فى الحكم بأنفسهم ، فقد عرف العالم بعدئذ نظام التمثيل أى البرلمانات فى الحكم . وهكذا تطورت فكرة الديمقراطية مع مرور الزمن .

وإذا تغير التطبيق الديمقراطى أومفهوم الديمقراطية لاعتبارات معينة ، فان روح الديمقراطية وجوهرها لا يمكن تغييرها . فالديمقراطية أولا وقبل كل شىء هى حكم الشعب بنفسه ولصالحه. ولذا يحدد الميثاق الوطنى الذى قدم الرئيس جمال عبد الناصر مشروعه إلى القوى الشعبية (مايو ١٩٦٢) وأقره المؤتمر الوطنى (يونية ١٩٦٢) ـ يحدد الميثاق مفهوم الديمقراطية فيقول أنها هى الترجمة الصحيحة لكون الثورة عملا شعبيا ، وهى توكيد السيادة للشعب ووضع السلطة كلها فى يده وتكريسها لتحقيق أهدافه. ولا شك أن ذلك لا يتأتى إلا باتاحة الفرص المتكافئة لجميع أفراد الشعب .

ولكى تطبق الديمقراطية بهذا المفهوم فلا بد من تحرير الشعب اجتماعيا فى

نفس الوقف. فالديمقراطية مع العوز والحاجة والجهل والمرض لا معنى لها . فهي لاتحمل حينئذ من المعنى سوى اسمه. وستظل حينئذ فئة معينة تحكم وتسيطر وتستغل باسم الديمقراطية . ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى تطبيق نظام اجتماعي جديد يكفل السعادة للجميع ، فجاءت الاشتراكية العربية .

وقد تعددت الآراء والأقوال فيما يتعلق بالاشتراكية بشكل عام . كذلك تعددت مذاهبها ونظمها ومدارسها . وهناك تفسير مبسط لها بأنها « نظريات أو حركات اجتماعية (وبالتالى اقتصادية وسياسية) تهدف إلى تنظيم مجتمع يقوم على صالح الغالبية من الشعب وذلك عن طريق الملكية الجماعية والرقابة الجماعية لعناصر الانتاج والتوزيع..... »[1]. وبعبارة أخرى هى سلسلة من التنظيمات والاجراءات التى تحقق الوصول إلى المثل الاشتراكية وأهمها سعادة الجماعة دون النظر للمصالح الذاتية الفردية . وقد حـــدد الميثاق مفهوم الاشتراكية فقال أنها هى الترجمة الصحيحة لكون الثورة عملا تقدميا . وهى اقامة مجتمع الكفاية والعدل ، مجتمع العمل وتكافؤ الفرص ، مجتمع الانتاج ومجتمع الخدمات . وعلى ذلك جاءت الاشتراكية العربية لتكون تعبيرا عن رغبات الشعب وتحقيقا لأمانيه . وهى اشتراكية دعت اليها حاجتنا وتتمشى مع ظروفنا . وفى تطبيقها نستفيد من التجارب الاجتماعية فى العالم ولكن لا ننقلها . وهى اشتراكية دعت تعاليم الدين الاسلامى إلى معانيها ومفهومها . وهى بذلك تختلف عما هو متطرف من الآراء الاجتماعية الأخرى . وهى اشتراكية لا تعتمد على حكم طبقة واحدة بل على التعاون بين أفراد الشعب أجمع ، وتتيح للجميع فرص العيش الكريم ، وتقبل

---

(١) د. يحيى عويس ـ الاشتراكية ـ ص ٦٤

الملكية الخاصة والفردية الغير مستغلة .(١)

والديمقراطية والاشتراكية من ذلك التصوير تصبحان امتداداً واحداً للعمل الثورى. فالديمقراطية هى الحرية السياسية والاشتراكية هى الحرية الاجتماعية. وهما — كما يقول الميثاق — لا يمكن الفصل بينهما . وعلى ذلك تسير الثورة السياسية جنبا إلى جنب مع الثورة الاجتماعية . وقد بدأ الرئيس جمال عبد الناصر يتكلم عن الاشتراكية ويدعو لهـا عام ١٩٥٧ بعد فشل العدوان الثلاثى على مصر . ومنذ ذلك الحين أخذت الثورة فى رفع شعار اقامة مجتمع اشتراكى ديمقراطى تعاونى . وبدأت تركز على ذلك الشعار وتسلط الأضواء على معركة العدالة الاجتماعية والكفاية والتوسع فى الانتاج فى كل نواحيه. كذلك يبين الرئيس فى خطبته فى ذلك العام الحاجة إلى عدالة التوزيع وأن يكون الدخل القومى موزعا بطريقة عادلة بين أبناء الأمة . ويبدأ التحول الاشتراكى طريقه فى اتجاهات أربع فى وقت واحد ، وهى بمثابة الدعامات التى ارتكز عليها المجتمع لتحقيق هذا التحول . هذه الدعامات هى : أولا ، تأكيد سيطرة الشعب على جميع أدوات الانتاج . ثانيا ، وضع أسس اشتراكية تقوم عليها العلاقات الاجتماعية بين القوى المنتجة فى المجتمع. ثالثا، ضمان الحقوق الاجتماعية والاقتصادية الأساسية للمواطنين . رابعا : وضع تخطيط اشتراكى شامل لتحقيق مضاعفة الدخل القومى وتنويع الاقتصاد القومى وتحقيق النمو المتوازن السليم بين قطاعات اقتصادنا المتعددة (٢).

---

(١) انظر : الاشتراكية — من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر — كتب قومية — ١٩٦٤ — ص ٤٦

(٢) انظر : على صبرى — التطبيق الاشتراكى فى مصر — ١٩٦٤ — ٢٩ .

ونحن إذا تتبعنا النمو الديمقراطى الاشتراكى منذ قيام الثورة حتى الآن لتبين لنا أن الثورة — من أول الأمر — كانت تعمل على اقامة قواعد راسخة لبناء مجتمع اشتراكى ديمقراطى تعاونى . فعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ كان أمر اقامة حياة ديمقراطية سليمة من أهداف الثورة الستة التى أعلنتها فور قيامها وهى : (١) القضاء على الاستعمار وأعوانه . (٢) القضاء على الاقطاع . (٣) القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم . (٤) اقامة جيش وطنى قوى . (٥) اقامة عدالة اجتماعية . (٦) اقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وعلى ذلك فالثورة ـ فور قيامها ـ تفرض ارادتها على الملك وحكومته توطئة لطرده . ويتخاذل الملك تحت تصميم الشعب الممثل فى جيشه . تفرض الثورة قائدا عاما جديدا للقوات المسلحة ويسكت فاروق بعد أن يرى جدية الحركة وخطورتها لو قاومها وتذعن حكومته بالتالى . ويظهر رئيسها ، نجيب الهلالى ـ ولم يكن قد مضى على تأليفه الحكومة سوى ساعات ـ استعداده لاجابة طلبات الجيش ولكن الثورة تفرض تغيير الوزارة ، ويستقيل الهلالى فى نفس اليوم ويقبل فاروق الاستقالة . وهكذا تأتى وزارة على ماهر (٢٤ يوليو) التى فرضها الجيش على فاروق . وفى اليوم التالى تزحف قوة من الجيش إلى الاسكندرية لاملاء رغبات الشعب التالية على الملك . وفى الاسكندرية تنضم قوات الجيش والبحرية بها إلى الثورة . وهناك يطلبون من الملك إبعاد ستة من حاشيته ويذعن فاروق لذلك الطلب . وفى اليوم التالى (٢٦ يوليو) يوجه الجيش انذاراً إلى فاروق بالتنازل عن العرش لولى عهده الأمير أحمد فؤاد وذلك بسبب ما « لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع مرافق البلاد نتيجة لسوء تصرفكم . . . » كذلك يشمل ذلك الانذار أنه « قد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك » ، وأنه قد « تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وما تبعها من فضائح

الأسلحة الفاسدة. وأخيرا يطلب الانذار من فاروق مغادرة البلاد قبل السادسة من مساء نفس اليوم .

والجيش يقدم هذا الانذار باسم الشعب إلى الملك المستبد العابث ، معلنا بذلك كلمة الشعب فى نوع من الحكم برم به وفى حاكم انحرف فحق عليه الاقصاء . وجاء ذلك الانذار فى الواقع معبرا عن رأى كل فرد فى ذلك البلد يؤمن بحقه فى الأخذ بنصيب حقيقى فى حكم بلاده ، وبحقه فى أن ينال نصيبا عادلا من ثروتها وخيراتها .

ولم يجد فاروق بدا من التسليم والتوقيع على الوثيقة التى أعدها الجيش لذلك، والتى فيها يقرر فاروق أنه ينزل عن العرش نزولا على إرادة الشعب. وكان ذلك، من الناحية الفعلية ، بمثابة انتهاء لحكم أسرة محمد على فى مصر . وهكذا تحدث الثورة ، وهكذا يتم هذا التغير الخطير فى تاريخ مصر الحديث إذ يخضع الحاكم لارادة المحكوم ويستمد إرادته من إرادته . وهذا هو حجر الأساس فى التطور الديمقراطى . ثم يسير الركب فى الطريق الديمقراطى .

وكان العبء على الثورة ثقيلا . فقد ورث النظام الجديد مجتمعا كان يعيش عهدا مظلما من عهود حياته ، ويعانى الكثير من المشكلات . فهناك مشكلة التخلف الاقتصادى التى كانت تستحكم يوما بعد يوم بسبب التزايد المستمر فى عدد السكان دون أن يقابل ذلك نمو مقابل فى الدخل القومى . وكان الاقتصاد القومى فى حالة تبعية كاملة للخارج، تسيطر عليه القوى الاستعمارية والاحتكارية الأجنبية لمصلحتها . وكانت تلك القوى تتخذ من هذه السيطرة سلاحا لكبت كل محاولة حقيقية للتحرر . وكانت هناك مشكلة الجمود فى التوسع فى الرقعة الزراعية . وكان القطن هو المادة الأولية التى يعتمد عليها اقتصادنا القومى ، وكنا نصدر القطن ونستورد التخلف بدلا منه . وبذلك نمنح العمل والرخاء للغير ونستبقى أسباب

البطالة والفقر لأنفسنا . فالصناعة لم يكن لها سوى نصيب ضئيل فى الاقتصاد القومى . إلى جانب ذلك كانت هناك مشكلة التفاوت الشاسع فى توزيع الثروة الوطنية والدخل القومى بين الطبقات . وهذا أدى إلى مشكلة أخرى أشد خطرا، ألا وهى ترابط المصالح بين الاستعمار فى الخارج وقوى رأس المال المستغل فى الداخل.وأخيراً كانت هناك موجة التضليل الذى كان الشعب المصرى غارقا فيها ، وذلك بقصد الابقاء على هذا النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، وحتى يستكين الشعب ويرضى . وقد تسربت هذه الموجة إلى شتى مرافق حياتنا فى الثقافة والتعليم والأدب والفن ... الخ (١) .

الاصلاح الزراعى

وبدأت الثورة تسير فى الاتجاه الأول فى الطريق إلى التحول الاشتراكى ، وبدأت فى اخراج سيطرة الشعب على وسائل الانتاج إلى حيز الوجود . واتخذت لذلك أساليب متنوعة فى مختلف القطاعات . ففيما يتعلق بقطاع الزراعة مثلا بدأت الثورة بتحديد الملكية الزراعية وأصدرت قانون الاصلاح الزراعى . والثورة باصدارها هذا القانون ـ ولما ينقض شهران على قيامها ـ كانت إنما تضع الأسس السليمة لتطبيق أكثر من هدف من أهدافها .

وجدت الثورة أن على ماهر لم يتجاوب معها فى أول مشروع اصلاحى تقدمت به وهو تحديد الملكية الزراعية . وبدا لها أنه يضع العقبات فى سبيل صدوره . فهو يجتمع بكبار الملاك من معارضى هذا القانون . وهم يتكتلون لاحباط المشروع . وكان يساندهم فى ذلك رجال الأحزاب ممن كان يهمهم بث العقبات

---

(١) أنظر على صبرى — نفس المرجع ـ ص ١٧ـ٢٢

فى طريق الثورة لزعزعة مركزها . وينتهى الأمر بعلى ماهر إلى الاستقالة (سبتمبر ١٩٥٢) وبذلك تتولى الثورة الحكم وتجتمع السلطة فى محيط واحد . وهذا مما يسهل السير قدما فى طريق الثورتين السياسية والاجتماعية فى وقت واحد . وفى ذلك يقول جمال عبد الناصر فى إحدى خطبه : « لقد جئنا بعلى ماهر إلى الحكم فوجدنا رابطة أصحاب الأملاك تطالب بإلغاء مشروع قانون تحديد الملكية الزراعية بكل جرأة وبكل صراحة ، فرأينا أن حكم هذا البلد لا يمكن أن يقوم على طبقة محترفى السياسة ومحترفى الحكم »[1] .

وكان أول عمل لأول حكومة للثورة بعد وزارة على ماهر هو إصدار قانون الاصلاح الزراعى وقانون تنظيم الأحزاب السياسية (٩ سبتمبر ١٩٥٢) . وأهم ماجاء بقانون الاصلاح الزراعى أنه حدد الملكية الزراعية بما لا يزيد عن المائتى فدان للشخص الواحد (تعدل ذلك فى عام ١٩٦١ فصار الحد الأقصى للملكية الزراعية مائة فدان) . ولكن ذلك لا يسرى على الشركات والجمعيات التى تستصلح الأراضى لبيعها أو الشركات الصناعية التى تمتلك الأراضى للاستغلال الصناعى . وقدر ثمن الفدان من الأراضى المستولى عليها بعشرة أضعاف القيمة الإيجارية . وقدرت القيمة الايجارية بسبعة أمثال الضريبة المفروضة على الفدان . وتوزع الأراضى المستولى عليها على صغار الفلاحين بحيث تكون لكل منهم ملكية صغيرة لا تقل عن فدانين ولا تزيد عن خمسة . ويؤدى المالك الجديد ثمن الأرض على أقساط طويلة الأجل . وفى ٢٤ مارس سنة ١٩٦٤ وقع رئيس الجمهورية قانونا باعفاء الملاك الجدد من ثلاثة أرباع ثمن الأرض التى وزعت عليهم طبقا لقانون الاصلاح الزراعى عام ١٩٥٢ . وبذا صار فلاح الاصلاح الزراعى

---

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ٢٣ يوليو ص ٤٢٠

لايدفع غير ربع ثمن الأرض ويعفى من جميع الفوائد ويحتسب له كل مادفعه من الثمن المخفض للأرض .

وهكذا يرى هذا المشروع النور فى عهد الثورة بعد أن باءت الجهود فى هذا السبيل فى العهد البائد بالفشل . فقد بذلت محاولة عام ١٩٤٥ لتحديد الملكية الزراعية إذ اقترح أحد أعضاء مجلس الشيوخ حينئذ عدم جواز زيادة الملكية الزراعية على ١٠٠ فدان مع عدم سريان القانون على الملاك الموجودين وقت صدوره ولا على ورثتهم . ولكن الاقتراح لقى معارضة شديدة فى مجلس الشيوخ وانتهى به الأمر إلى الرفض والاخفاق .

وبتطبيق قانون تحديد الملكية فى عهد الثورة يتسع نطاق طبقة صغار الملاك، ويقضى أو يكاد أن يقضى على طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية ، وكانوا مع قلة عددهم بالنسبة لمجموع الملاك يمتلكون ٢٠٪ من الأراضى الزراعية(١) . وقد كانت أملاك بعض أفراد هذه الطبقة من الضخامة وكان لهم من النفوذ والسلطان على عمالهم الزراعيين ومستأجرى أراضيهم بحيث أطلق عليهم لقب الاقطاعيين نسبة إلى ذلك النظام الذى كان معروفا فى أوربا فى العصور الوسطى والذى كان من أهم مايميز الجهالة والإظلام بالنسبة لهذه الحقبة من تاريخ أوروبا . وبذلك يساعد قانون الإصلاح الزراعى على إيجاد نوع من التوازن الإجتماعى فى المجتمع الزراعى يمهد الطريق للعدالة الإجتماعية والحياة الديمقراطية السليمة ، فضلا عن تحرير الفلاح المصرى وإرجاع أرضه وكرامته إليه .

حل الاحزاب

وتعمد الثورة إلى مجموعة من القرارات لتأمين أهدافها وتحقيقها : فهى تقرر

---

(١) كان هناك ٢,١٣٦ اقطاعى يملكون وحدهم حوالى ١,٢٠٠,٠٠٠ فدان.
أنظر : على صبرى — نفس المرجع — ص ٣٣

حل الأحزاب السياسية (يناير ١٩٥٣) لتعارض وجودها بأوضاعها حينئذ مع الحياة الديمقراطية السليمة ، وبعد مابدا من هذه الأحزاب من إصرار على موقفها وعزم على أن تظل دائما كما هي : تحالفا من الاحتكار والاقطاع ورأس المال المستغل . فالجيش كان قد دعا الأحزاب فور قيام الثورة إلى تطهير صفوفها كما فعل الجيش ، وأن تعلن برامجها محدودة واضحة المعالم . كذلك يعمل رئيس الحكومة وقتئذ (على ماهر) على الأحزاب ويدعوها إلى تطهير صفوفها حتى يمكن اقامة حياة نيابية سليمة . ويشير بصراحة إلى أن الأحزاب فى مصر هى قوة تركيز للتدخل الأجنبى بدلا من أن تكون قوة تركيز للوحدة القومية .

ولكن يبدو أن الأحزاب لم تكن تفكر فى ذلك الأمر تفكيرا جديا . ومن المرجح أنها كانت تعتقد أن ثورة ٢٣ يوليو ليست سوى انقلاب قصير العمر محدود الأمد . وظلت تتربص الفرص للتخلص من الثورة والعودة إلى الحكم . وموقف الاحزاب هذا دعا الجيش إلى تكرار الإنذار والتهديد بالتدخل وقت اللزوم إذا لم يتم تطهير الاحزاب تماما . ولكن الاحزاب تمادت فى غيها . وبدا واضحا أن الحزبية والاحزاب التى سبق أن أفسدت ثورة عام ١٩١٩ ونكستها ، تعود مرة أخرى لتعمل على التفرقة بين صفوف الشعب . بل أن بعض العناصر بها لم تتورع عن الاتصال بدول أجنبية مما أنذر بعودة الفساد . وهكذا يؤدى موقف الأحزاب بالجيش آخر الأمر إلى حلها . ويعلن القائد العام للقوات المسلحة حل الأحزاب السياسية (١٧ يناير ١٩٥٣) ومصادرة جميع أموالها لصالح الشعب ، واعلان فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات حتى تتمكن البلاد من اقامة حكم ديمقراطى دستورى سليم .

ولقد دلت التجارب كما دلت الأحداث فيما بعد على أن الجيش كان على حق فى موقفه من الأحزاب . فالضباط الأحرار كانوا قد قرروا — قبيل الحركة —

أن يقوموا بالثورة ثم يسلموا البلاد المدنيين فى اللحظة التى يفرغ فيها الجيش من عمله الكبير . كذلك قرروا إعادة برلمان الأغلبية المحلول وترك الحكم لحزب الأغلبية يصرف الأمور فى البلاد ريثما تجرى الانتخابات . وكان الجيش بذلك يريد ضرب المثل للسياسيين وأن يكون قدوة للعمل فى سبيل الوطن والحكم الصالح النزيه دون اعتبار لرغبات أو مطامع شخصية (١) . ولكن الجيش أخطأ التقدير . وفى ذلك يقول الرئيس جمال عبد الناصر : « لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لاتنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا إلى الهدف الكبير ... ثم فاجأنى الواقع بعد ٢٣ يوليو .. قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير ... وطال انتظارها . . لقد جاءتها جموع ليس لها آخر .. ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال ! كانت الجموع التى جاءت أشياعا متفرقة ، وفلولا متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير ... وساعتها أحسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته فى هذه الساعة ، وإنما من هذه الساعة بدأت.. (٢)» .

فبعد أن ضرب الجيش ضربته وقام بالثورة يوم ٢٣ يوليو ، توافد أصدقاء الضباط على القيادة يعضدونهم ويزودونهم بالنصائح بينما قبع رجال السياسة فى بيوتهم ولجأوا إلى الترقب والحذر وانتظار ما يأتى به الغد . ولم يبدأ الساسة من جميع الاتجاهات فى التوافد إلى مقر القيادة إلا بعد أن عرف فى منتصف يوم

(١) أنور السادات : صفحات مجهولة ـ القاهرة ١٩٥٤ ـ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥

(٢) فلسفة الثورة ص ٢٠ ـ ٢١ .

٢٦ يوليو أن فاروق قد وقع التنازل وأنه وافق على مغادرة البلاد فى الساعة السادسة من نفس اليوم . وهنا بدأت الهيئات السياسية تعد نفسها لمعركة سياسية جديدة . واتضح أن الحكم كان هدف هذه الأحزاب . بل إن البعض منها تمادى إلى حد التظاهر بفرض وصايتها على الثورة واعتبار ذلك وضعا طبيعيا ومسألة مسلما بها .. واتضح تماما أن الثورة كانت فى واد ، ورجال السياسة فى واد آخر .

اعلان الجمهورية

وإلى جانب إلغاء الأحزاب ، تعمد الثورة إلى الغاء بعض الأوضاع التى كانت سائدة فى العهد البائد وتميزه . وهى إجراءات لا بد منها لاقامة الحياة الديمقراطية السليمة . فدستور عام ١٩٢٣ مثلا لم يكن يتيح للأمة بشكل جدى وعلى أن تكون مصدر السلطات كما كان ينص عليه . بل كانت به ثغرات أتاحت للملك أن ينفذ منها إلى طريق الاستبداد والطغيان . ويعلن على ماهر أن ذلك الدستور لم يكن يساير الديمقراطية الحرة فى تطورها . وعلى ذلك تعلن الثورة سقوط ذلك الدستور (ديسمبر ١٩٥٢) . توطئة لوضع دستور جديد يتفق وأهداف الثورة .

وتكونت لذلك لجنة من خمسين عضوا يمثلون مختلف الهيئات والطوائف (يناير ١٩٥٣) . واشترك فى تلك اللجنة وفديون ودستوريون وسعديون واخوان مسلمون وأعضاء من الحزب الوطنى . وانتخبت هذه اللجنة من بينها لجنة من خمسة أعضاء لبحث نظام الحكم . وأجمعت هذه اللجنة على أن نظام الحكم يجب أن يكون جمهوريا على أن يستفتى الشعب فى ذلك الأمر . وقد استندت اللجنة فى هذا القرار إلى أن النظام الملكى يقوم فى الأصل على أساس من

إنكار لسيادة الشعوب وأن نظام الوراثة فى الحكم نظام فاسد لا يتفق ومصلحة الشعب ويجر فى آخر الأمر إلى أوخم العواقب . وعلى ذلك فهناك تعارض وجفاء لاشك فيهما بين النظام الملكى والحكم الديمقراطى . كذلك تستدل اللجنة فى بيانها بسابقات تاريخية تظهر فساد النظام الملكى وعدم مسايرته للعصر الحديث واتخاذ كثير من الدول للجمهورية نظاما للحكم وهجرانها النظام الملكى الذى تدل الدلائل على أنه فى طريقه إلى الزوال . كذلك تشير اللجنة إلى ما لاقته مصر من محن فى ظل النظام الملكى الذى فرضته أسرة محمد على والدول الأجنبية على مصر .

ويتبع ذلك الغاء النظام الملكى واعلان الجمهورية . ففى يوم ١٨ يونيه عام ١٩٥٣ تعلن الثورة ـ باسم الشعب ـ الغاء النظام الملكى مع إلغاء الألقاب من أسرة محمد على التى انتهى حكمها . واعلان الجمهورية على أن يكون للشعب الكلمة الأخيرة فى نوع الجمهورية واختيار شخص الرئيس . ويشير ذلك القرار التاريخى باعلان الجمهورية إلى أن فاروق كان « حجر الزاوية الذى يستند إليه الاستعمار » وإلى أن تاريخ أسرة محمد على فى مصر كان سلسلة من الخيانات التى ارتكبت فى حق الشعب . وهكذا ينتهى حكم أسرة محمد على الذى بدأ فى مايو ١٨٠٥ . وهكذا أيضا ينهى الشعب المصرى حكم هذه الأسرة بعد أن رفع الشعب نفسه مؤسسها ـ محمد على ـ إلى منصب الولاية بإرادته ورغبته . ويصير يوم ١٨ يونيه عيدا وطنيا رسميا باسم « عيد الجمهورية » .

وفى نفس العام تقرر الثورة مصادرة أموال الملك السابق وممتلكاته لصالح الشعب (سبتمبر ١٩٥٣) . ومن هذه الممتلكات ٤٨ ألف فدان من الأراضى الزراعية . كذلك تقرر الثورة استرداد أموال الشعب من أسرة محمد على وذلك بمصادرة أموال وممتلكات هذه الاسرة ، ولاسيما بعد أن تبين أن الكثيرين من أفرادها يقومون بتهريب أموالهم إلى الخارج . وقد كانت الثورة كريمة فى معاملتها لهم . فقد منحت من يستحق منهم مرتبات شهرية كما سمحت لهم بالبقاء فى قصورهم .

وانتهى فترة الانتقال ، التى سبق أن تحددت بثلاث سنوات ، فى ١٦ يناير ١٩٥٦ ، وعلى ذلك تضع الثورة دستورا جديدا يعلنه الرئيس جمال عبد الناصر . وكان برنامجه هو برنامج الثورة . وأهم ما احتواه ذلك الدستور أنه جاء تعبيرا عن ارادة الشعب . كذلك يقرر الدستور فى المادة الأولى أن مصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة وأنها جمهورية ديمقراطية وأن الشعب المصرى جزء من الأمة العربية. وبذلك يكون ذلك الدستور أول دستور مصرى يقرر أن الشعب المصرى جزء من الأمة العربية . وهكذا تخرج فكرة القومية العربية إلى الوجود بصورة عملية ورسمية ، لا سيا وقد نص الدستوران السورى (١٩٥٠) والأردنى (١٩٥٢) على ذلك الأمر أيضا . ويختار الدستور النظام الجمهورى الرياسى نظاما للحكم . ويكفل ذلك الدستور الحرية والأمن والطمأنينة وتكافؤ الفرص لكل المصريين. ويعمل على التوافق بين النشاط الإقتصادى الخاص والنشاط الاقتصادى العام . كذلك يعترف بالملكية الخاصة وينص على تشجيع الدولة للادخار والتعاون . ومما يميز هذا الدستور أيضا أن المرأة فى مصر تكتسب لأول مرة حق الانتخاب وحق عضوية المجالس النيابى . ثم يستفتى الشعب على الدستور وعلى رياسة الجمهورية (٢٣ يونيه ١٩٥٦) ويسفر الإستفتاء عن شبه إجماع من الشعب على الدستور وانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية .

خطوة أخرى تخطوها الثورة فى طريق الإشتراكية والحرية الإجتماعية وهى مقدمة كما رأينا ولازمة لممارسة الحرية السياسية ، وهى القضاء على الإحتكار ويتمثل ذلك فى عملية التمصير ، والعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات وحفظ كرامة المواطن وحقه فى الحياة وصدور قوانين يوليو الإشتراكية .

تمصير الاقتصاد القومى — قوانين يوليو الاشتراكية :

بعد تأميم قناة السويس وشن الدول الإستعمارية حربا اقتصادية ضدنا ظهر

جليا مدى الخطورة التى يتعرض لها الإقتصاد القومى من جراء السيطرة الخارجية عليه . وظهر واضحا مدى حاجة البلاد إلى سيطرة أبنائها على مراكز التحكم فى اقتصاديات بلادهم . وعلاوة على تجميد أرصدتنا ، بعد التأميم ، بهذه الدول كإجراء انتقامى ووسيلة من وسائل الحرب الاقتصادية التى شنوها علينا ، تعمد الدول إلى الإمعان فى الاضرار باقتصادياتنا وترسل التعليمات لعملائها ومؤسساتها والبنوك الأجنبية فى مصر بالعمل على عرقلة الاقتصاد المصرى، وبالفعل تمتنع هذه البنوك عن تمويل محصول القطن أو التمويل الصناعى والتجارى وتعمد إلى شل حركة المعاملات التجارية وزعزعة مركز مصر الإقتصادى وإشاعة الذعر فى الداخل والخارج .

وعلى أثر العدوان الثلاثى على مصر فرضت الحراسة على مؤسسات وأموال الرعايا البريطانيين والفرنسيين فى مصر . وتسلم الحراس المصريون بنوك وشركات ومؤسسات الأعداء فى مصر ومنها شركات التأمين والبترول والتعدين والمياه والكهرباء وبلغ عددها ١٥٠٠ مؤسسة. وخلال فترة الحراسة تبين بوضوح مدى تغلغل السيطرة الأجنبية حقا فى شتى مرافق الحياة الإقتصادية فى بلادنا ومدى خطرها . وعلى ذلك فبعد اخفاق العدوان الثلاثى على مصر تصدر قوانين تمصير الإقتصاد القومى وتحريره من السيطرة الأجنبية ويتمخض عن ذلك :

١ ـ إنشاء المؤسسة الإقتصادية (١٣ يناير ١٩٥٧) لتنمية الإقتصاد القومى ووضع سياسة استثمار أموال المؤسسة ـ التى تتكون من أنصبة الحكومة فى رؤوس أموال الشركات المساهمة ومن رؤوس أموال المؤسسات العامة التى تتبع المؤسسة الاقتصادية ـ وذلك بما يحقق مصلحة الإقتصاد القومى .

٢ ـ تمصير البنوك . ويتم ذلك فى اليوم التالى (١٤ يناير ١٩٥٧) وبهذا

تقوم بأعمال البنوك فى مصر شركات مساهمة مصرية يملك المصريون أسهمها كما يتولى مصريون ادارتها . وقد اتضح أن البنوك الأجنبية فى مصر لا يزيد رأسمالها عن ٥,٢ مليون جنيه ولكنها كانت تتحكم فى نحو مائة مليون جنيه من جملة ودائع البنوك التجارية ، وأن البنوك الفرنسية والانجليزية كان لها رأسمال مستغل فى مصر لا يزيد عن ٢ مليون جنيه ولكن ودائع المصريين فيها كانت تقرب من ١٠٠ مليون جنيه .

٣ ـ تمصير شركات التأمين . ويصدر بذلك قانون بنفس اليوم . وهذه الشركات فى الواقع جهاز هام يساعد على إيجاد استقرار اجتماعى فى البلاد وذلك بتشجيع الأفراد على الإدخار ومواجهة مخاطر الحياة فى اطمئنان . كذلك تملك هذه الشركات أموالا كثيرة تكون جزءا كبيرا من المدخرات القومية التى يمكن إستغلالها فى الاسهام فى تمويل نهضة البلاد الإقتصادية . ومن المعروف أنه حتى عام ١٩٥٤ كانت تمارس أعمال التأمين فى مصر ١٣٥ شركة منها ١٢٣ شركة غير مصرية تمتلك فى مصر أموالا تبلغ نحو عشرين مليون جنيه من مجموع أصول شركات التأمين التى تبلغ ٣٨ مليون جنيه .

٤ ـ تمصير الوكالات التجارية . ويصدر قانون بذلك مع قانون تمصير شركات التأمين . وهذه الوكالات لها أهميتها فى النشاط الإقتصادى للبلاد . فهى التى تمد الأسواق المحلية بما تحتاج اليه من الخارج من معدات وآلات ودواء وتموين .... الخ . وكانت هذه الوكالات بطبيعة الحال تتحكم فى أسعار الحاجيات الضرورية المستوردة كما كانت وسيلة لتهريب النقد إلى الخارج تحت ستار العمليات التجارية .

وأخيرا فبصدور قوانين يوليو الإشتراكية عام ١٩٦١ يبدأ مجتمعنا الإشتراكى

يستكمل ملامحه الأساسية وتكون الثورة الاجتماعية قد وصلت إلى مداها المطلوب، ويجسم الميثاق هـــذه المعانى فيقول : « إن قوانين يوليو عام ١٩٦١ ، بالعمل الاشتراكى العظيم الذى حققته تعد بمثابة أكبر انتصار توصلت اليه قوة الدفع الثورة فى المجال الاقتصادى . . . ان هذه القوانين ـــ إمتداد لمقدمات سبقتها ـ كانت جسراً عبرته عملية التحول نحو الاشتراكية بنجاح منقطع النظير . . . ان القوانين يوليو المجيدة والطريقة الحاسمة التى تمت بها والجهود الموفقة الشجاعة التى بذلها مئات الألوف من أبناء الشعب العاملين فى المؤسسات التى انتقلت ملكيتها إلى الشعب بهذه القوانين فى الفترة الحرجة التى أعقبت عملية التحويل الواسعة المدى قد مكنت من حفظ الكفاية الإنتاجية بهذه المؤسسات ودعمها ...»

ومن أهم ما جاء بهذه القوانين تأميم جميع البنوك وشركات التأمين ، واشتراك الدولة فى رأس مال ٩١ شركة بنسبة لا تقل عن ٥٠ ٪ ، وتحديد ملكية الفرد فى رأس مال ١٥٩ شركة بما لا يزيد عن عشرة آلاف جنيه . كذلك تنظم هذه القوانين توزيع أرباح الشركات على أساس ٧٥ ٪ من الأرباح للمساهمين ، ٢٥ ٪ تخصص للموظفين والعمال بها ، وتحتم اشتراك العمال والموظفين فى مجالس إدارة الشركات بعضوين فى المجلس عن طريق الإنتخاب بالاقتراع السرى وعلى ألا يزيد أعضاء المجلس عن سبعة أعضاء . وتحدد هذه القوانين الحد الأعلى للمرتبات. فلا يجب أن يتجاوز المرتب فى أى مؤسسة أو شركة ٥٠٠٠ جنيه فى العام للفرد. وتحدد الحد الأدنى لأجور العمال بحيث لا يقل أجر العامل اليومى عن ٢٥ قرشاً كما تحدد ساعات العمل للعمال فى المؤسسات الصناعية (٤٢ ساعة أسبوعيا). وتتناول هذه القوانين أيضاً أمر الحد من الدخول المرتفعة فتفرض ضرائب تصاعدية تبلغ ٩٠ ٪ من مجموع الإيراد الكلى الصافى إذا زاد عن عشرة آلاف جنيه .

التنظيمات الشعبية

وبدأ لاقامة حياة ديمقراطية سليمة تلجأ الثورة إلى تكوين تنظيمات شعبية تمثل إرادة وآمال الشعب وتؤكد سيادته ، على أن تتجمع السلطة العليا فى يدها ويتم تكوينها بالإنتخاب المباشر الحر . وسارت التجربة الجديدة فى خطوات متتابعة . وكان علينا أن نستفيد من أخطاء أو مزايا كل خطوة ، حتى وصلت التجربة إلى مرحلة النضج بتكوين الإتحاد الإشتراكى العربى .

وكخطوة فى هذا السبيل تعلن الثورة قيام أول تنظيم شعبى بعد الغاء الأحزاب وإنشاء هيئة التحرير (٢٣ يناير ١٩٥٣) . وكان هذا الأمر طبيعيا ولازما بعد أن وضعت الثورة حدا للحرب الطاحنة بين الأحزاب والتى كانت تستنزف جهود الأمة وتعطل جهادها وتطيل أمد عبوديتها . فكانت الحاجة فى الواقع ماسة إلى وجود هيئة تنظم جهود الشعب على إختلاف طوائفه وطبقاته وتنسيق جهود العاملين فى مختلف الميادين . فجاءت هيئة التحرير وعلى رأس أهدافها اجلاء القوات الأجنبية عن وادى النيل دون قيد أو شرط وتحريره من أى إستعمار سياسى أو إقتصادى أو إجتماعى . واستطاعت هيئة التحرير أن تلبى حاجات النضال القومى خلال فترات الكفاح من أجل حرية الوطن واجلاء المستعمر عن البلاد .

والإتحاد القومى خطوة أخرى فى سبيل الحياة الديمقراطية السليمة . وقد نص دستور يناير عام ١٩٥٦ (المادة ١٩٢) على تكوين المواطنين لإتحاد قومى يعمل على تحقيق الأهداف التى من أجلها قامت الثورة وبناء الأمة بناء سليما من النواحى السياسية والإقتصادية والإجتماعية . كذلك ينص ذلك الدستور على أن يتولى

الإتحاد القومى الترشيح لعضوية مجلس الأمة . وكانت الثورة ترجو أن يكون الاتحاد القومى إتحادا للامه العربيه ، كأول سبل الأمن فى بناء الوطن . فالاتحاد هو الدعامه التى لا يمكن بناء أمة أن يرتكز على غيرها ، والأمة فى حاجة إلى أن تعبىء نفسها وتحشد مواردها وإمكانياتها بلا فرقة ولا فتنه ولا احقاد .

كذلك كانت الثورة ترمى إلى جعل ذلك الاتحاد جـــدارا منيعا يحول دون الإستعمار و تقسيم العرب وسدا منيعا أمام قوى الرجعية . لذلك ينص الدستور المؤقت للجمهورية العربية المتحدة (عام ١٩٥٨) على أن يكون المواطنون إتحادا قوميا « للعمل على تحقيق الأهداف القومية ولحث الجهود لبناء الأمة بناء سليما من النواحى السياسية والاجتماعية والإقتصادية » .... ولكن الثورة أخطأت التقدير . وذلك كما يقول الرئيس جمال عبد الناصر فى بيانه (١٦ أكتوبر سنة ١٩٦١) الذى واجه فيه بصراحة وشجاعة الدروس التى تلقيناها من انتفاضه الرجعية فى سوريا فى سبتمبر ١٩٦١ . فقد تسللت الرجعية إلى الإتحاد القومى وتمكنت من شل فاعلياته الثورية وحولته إلى مجرد وجهة تنظيمية لا تحركها قوى الجماهير ومطالبها الحقيقية .

وهكذا تكون هذه التنظيمات الشعبية التى قامت أو جرت محاولات اقامتها بعد الثورة قد عجزت عن تحقيق دورها وقصرت دونه . ومع ذلك فدروس الفشل هذه قد أفادت بلا شك عند قيام التنظيم الشعبى الأخير ، وهو الإتحـــاد الاشتراكى العربى . وفى مشروع التنظيم الشعبى الذى قدمه الرئيس جمال عبدالناصر إلى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية (٢ يوليو ١٩٦٢) ، تتضح معالم أسباب هذا الفشل . وظهر أن قوى الثورة فى مواجهتها لحتمية التغيير الإجتماعى لم تكن قد استطاعت أن تحدد دليلا للعمل الثورى تلتقى عليه الجهود . من ناحية ثانية كان

الفكر الثورى ـ وهو يتطلع إلى الوحدة الوطنية ويدرك ضرورتها الحيوية داخل الوطن وفى مواجهة الظروف المحيطة به ـ قد وقع فى الخطأ وتوهم أن الطبقة المحتكرة، التى كان لابد أن تسلبها الثورة امتيازاتها الإستغلالية ، يمكنها أن تقبل الوحدة الوطنية مع قوى الشعب صاحبة المصلحة فى الثورة. من ناحية ثالثة، ونتيجة لذلك فقد ضاع عنصر الإلتزام فى التنظيمات الشعبية .

الاتحاد الاشتراكى العربى

وعلى ضوء تجربة الإتحاد القومى يتكون الإتحاد الإشتراكى العربى . وقد سبقت ذلك التكوين دراسات حول حماية الثورة الإشتراكية ووسائل تمثيل شعبى حقيقى ووضع كل طاقات العمل تحت تصرف القوى الشعبية . وتتمخض هذه الجهود عن تكوين المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ، ثم الإتحاد الإشتراكى العربى.

ففى ٤ نوفمبر سنة ١٩٦١ يصدر الرئيس جمال عبد الناصر بيانا سياسيا يحدد فيه تنظيم العمل الشعبى. ونص البيان على تشكيل لجنة تسمى اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية لدراسة الطريقة التى يمكن بها اختيار ممثلين للقوى الشعبية فى مؤتمر وطنى بطريقة الإنتخابات . كذلك يقرر ذلك البيان أن للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبيه مهمتين أساسيتين : أولا ، إصدار ميثاق وطنى . ثانيا ، تحديد طريقة تكوين القواعد الأساسيه للاتحاد الإشتراكى العربى .

فالعمل الثورى الوطنى يجب أن يرتبط بميثاق محدود وواضح. وغايات العمل الوطنى والوسائل الوطنيه الى هذه الأهداف يجب أن تكون وحدها الأساس التى تجتمع عليه القوى الشعبيه للوطن . والميثاق الوطنى والإرتباط به سوف يكون أساس الإنتخابات العامه التى تجرى فى الجمهورية لإنتخاب اللجان الأساسية للاتحاد

الإشتراكى العربى فى كل قرية وكل مدينة . ويتولى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية وضع القواعد التى تجرى الإنتخابات على أساسها ، وتكون هذه اللجان التأسيسية المنتخبة هى قاعدة المؤتمر العام للاتحاد الإشتراكى الذى يعتبر السلطة الشعبية العليا فى البلاد والذى يقرر طريقة وضع الدستور الدائم للجمهورية العربيه المتحدة .

وتمت عمليه الإنتخابات للمؤتمر العام للقوى الشعبيه (فبراير ١٩٦٢) بانتخاب مجموعة ضخمة ممن يمثلون مختلف مجالات الفكر والعمل فى الجمهورية . وإلى هذا المؤتمر (١٧٥٠ عضوا) قدم الرئيس جمال عبد الناصر مشروع الميثاق (٢١ مايو ١٩٦٢) . وجاء الميثاق بأبوابه العشرة يعكس ويظهر أفكار وأمانى الشعب العربى ويرسم الخطوط العريضة لمجتمع سعيد فى ظل الحرية والكفاية والعدل . وقد تعرض الميثاق للديمقراطية السليمة وحدد أسسها وعلى رأسها تحرير الفرد من الإستغلال وتأمينه على مستقبلة والقضاء على سيطرة طبقة من الطبقات وتأكيد سيادة وسلطة مجموع الشعب الممثل فى الإتحاد الإشتراكى العربى . وأقر المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية الميثاق الوطنى (٣٠ يونيو سنة ١٩٦٢) . وبعدئذ يتكون الإتحاد الإشتراكى العربى ويتم تشكيل لجانه (١٩٦٣) . وتتم عملية انتخاب مجلس الأمة داخل نطاق الإتحاد الاشتراكى العربى (ابريل ١٩٦٤) .

ويصدر دستور مارس ١٩٦٤ المؤقت (٢٣ مارس) منظما للحياة السياسية والإجتماعية فى مصر لحين انتهاء مجلس الأمة من وضع دستور دائم . وقد جاء فى الاعلان الدستورى أن ذلك الدستور يصدر استنادا إلى الإرادة الشعبية التى صنعت ثورة ٢٣ يوليو وحققت به بدء الثورة الشاملة السياسية والاجتماعية والقومية ، وتأكيدا للميثاق الذى أقره مؤتمر القوى الشعبية ، وتتويجا لمرحلة التحول العظيم التى فيها تم ـ بالتطور السلمى والثورى معا ـ تحقيق سيطرة الشعب على ملكية وسائل الانتاج وإدارتها ، تمكيناً للديمقراطيه الاجتماعيه وهى باب الديمقراطية

السياسيه ومدخلها الحقيقى والسليم .وأخيرا ، كما يذكر البيان ، يجىء ذلك الدستور تمكينا من التقدم إلى مرحلة الانطلاق العظيم وتعزيزا لفاعلية وقدرة تحالف قوى الشعب العاملة .

وجاء بذلك الدستور أن الجمهورية العربيه المتحدة دولة ديمقراطية اشتراكية تقوم على تحالف قوى الشعب ، وأن الشعب المصرى جزء من الأمة العربية وأن السيادة للشعب (مادة ١ ، ٢) . ويحدد الدستور أنواع الملكيات بملكية عامة وملكية تعاونية وملكيه الدولة على أن تكون رقابه الشعب شاملة للقطاعات الثلاثة ومسيطرة عليها كلها (مادة ١٣) ويشتمل الدستور بشكل عام على أبواب ستة تناولت مسائل الدولة والمقومات الأساسية للمجتمع والحقوق والواجبات ونظام الحكم وأحكام عامه وأحكام إنتقالية . ويضمن الدستور للمصريين المساواة أمام القانون فى الحقوق والواجبات العامة كما يضمن إستقلال القضاء كذلك يضمن الدستور اشراف الهيئة التشريعية على الهيئة التنفيذية وحقها فى إتهام الوزراء وتقديمهم للمحاكمة . ولمجلس الأمة أن يسحب الثقة بالحكومة أو الوزير ، وفى هذه الحالة تسقط الحكومة أو يستقيل الوزير . كذلك يحتوى الدستور على ما يحول دون الهيئة التنفيذية ومحاولة الاستغلال أو إساءة استخدام النفوذ بأى طريقة.وحدد الدستور مدة رياسة الجمهورية بست سنوات. ويرشح مجلس الأمة رئيس الجمهورية ويتم ذلك بناء على إقتراح ⅓ أعضائه على الأقل ثم يعرض الترشيح على المواطنين لإستفتاءهم فيه وذلك بعد حصول المرشح على أغلبية من ثلثى أعضاء المجلس .

العدوان الثلاثى على مصر (١)

مقدمة — الاتجاه الجديد بعد الثورة

الثورة والحياد

منذ أن قامت الثورة وقد وجدت ـ وفيما يختص بسياستها الخارجية ـ أنه عليها أن تراعى أمرين كانا من الأهمية بمكان فى ذلك الوقت ، وهما اجلاء المستعمر عن وادى النيل ، والوقوف موقف الحياد إزاء الكتل العالمية . وكلا الأمرين كان يعمل على توكيد وضمان الإستقلال الحقيقى للبلاد ، وهو ما كانت تهدف إليه الثورة .

وفضلا عن أن الثورة قد تم الاعداد لها وتنفيذها باحكام ونجاح وبسرعة مذهلة بحيث جعلت العالم أمام الأمر الواقع ، فإن روح الحياد التى بدت فى الثورة منذ أول يوم واتخاذها شكلا مصريا بحتا ، كانت من العوامل التى ساعدت على نجاح الثورة فى أولى مراحلها بما لم يدع فرصة لاحدى الدول للتدخل . وآثرت الدول السكوت وانتظار ما يأتى به الغد .

وفى بيان الثورة الأول يطمئن الجيش الأجانب فى مصر على مصالحهم وأرواحهم ويعتبر نفسه مسئولا عنهم . ويؤكد الجيش ضماناته هذه للسفارات الأجنبية ويتخذ من الإجراءات ما هو كفيل بتحقيق هذه التأكيدات . ثم أن الشعب كان على درجة من الوعى ، كما كان متطلعا إلى المحافظة على ثورته ، بحيث لم يحدث ما يعكر صفو الحركة وجلالها فى نظر الدول. وبدا للعالم واضحا جليا أن الثورة حركة مصرية داخلية هدفها الإصلاح ، وأنها لا تتصل من قريب أو بعيد بأية

عوامل خارجيــــة ولا سيا ما كان خاصاً بالناحية الشيوعية . لذا تتخذ الدول الأجنبية ومن بينها إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكيــة ، موقف الحياد إزاء خلع فاروق وتعتبر كل من إنجلترا وأمريكا هذه الثورة من شئون مصر الداخلية. وتعلن وزارة الخارجية الإنجليزية أنها لا تنوى التدخل وتبلغ ذلك إلى الحكومة المصرية . كذلك تبلغ الحكومة الأمريكية حكومة مصر أنها تعتبر ما حدث فى مصر مسألة داخلية .

ولا شك أن سياسة الحياد هذه كانت تتفق مـع مصالح مصر والسلام والعالم أجمع . فموقعها الجغرافى فى ملتقى القارات الثلاث تقريباً، ووجود قناة السويس المرفق الذى يخدم مصالح العالم ـ فى مصر ، ذلك يحتم عليها إتباع سياسة الحياد . والدول لا تجهل هذه الحقيقة ، ولذا فهى تعمل وتوافق على أن تنص الاتفاقات الخاصة بالقناة على الحياد . ويتضح ذلك فى شروط عقد إمتياز حفر واستغلال القناة من سعيد باشا إلى ديلسبس (يناير ١٨٥٦) وفى معـــاهدة الاستانة بين الدول (أكتوبر ١٨٨٨) .

لذلك تتمسك الثورة بسياسة الحياد من مبدأ الأمر . وتتوالى الأحداث ويزداد تمسك الثورة بهذا المبدأ ، كما يزداد المبدأ تبلورا ووضوحا فى الأذهـان مع تصريحات الرئيس جمال عبد الناصر فى إتفسيره لموقف مصر من هذا الحدث أو ذاك . وترفض مصر الانضمام إلى حلف الدفاع عن الشرق الأوسط ترعـاه وتباركه الدول الغربية (١٩٥٣) .فالأحلاف العسكرية مع الدول الكبرى ليست سوى صورة أخرى من صور السيطرة . وحكومة الثورة لم تكن بناسية أن الغرب هو الذى أرسى قواعد إسرائيل فى فلسطين ومدها بالمعونات الإقتصادية والحربية . ولهذا لا يرى الرئيس جمـال عبد الناصر وسيلة للدفاع عن المنطقة خيرا من ميثاق الضمان الجمـــاعى بين الدول العربية . ثم تشترك مصر فى مؤتمر

باندونج ولعقد صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية وتعترف بالصين الشعبية وتؤيد وتعاون الحركات التحررية فى نطاق سياستها الخاصة بمحاربة الإستعمار . والثورة تتبع هذه السياسة بعزم وتصميم وإيمان غير عابئة بالتهديدات أو المغريات .

ثم تبدأ مصر فى تحديد موقفها من الصراع بين المعسكرين الغربى والشرقى . ويعلن الرئيس جمال عبد الناصر أن مصر تقف ضد الإستعمار الغربى وضد السيطرة الشيوعية وأنها لن تحكم من لندن ولا من موسكو بل من القاهرة وبمعرفة أبنائها (سبتمبر ١٩٥٤) . ويوضح الرئيس أيضا لانتونى إيدن — وزير خارجية بريطانيا حينئذ — عقب اتفاق الجلاء وقبل توقيع حلف بغداد ، أن مصر ترفض الإشتراك فى أى حلف من الأحلاف العسكرية ، وترفض ربط ميثاق الضمان الجماعى العربى بأى حلف من الأحلاف (فبراير ١٩٥٥) . ويشرح الرئيس سياسة مصر الخاصة بالحياد ونبذ الأحلاف قائلا أن مصر قد بدأت مرحلة من مراحل تحريرها وهى تهدف إلى التخلص من كل نفوذ أجنبى تخلصا كاملا . وهى تعتبر كلى الشيوعية والإستعمار خطرا . ولكن اذا كان على مصر أن تتفق مع أى دولة فسيتم هذا الاتفاق طبقا لمصلحة مصر ودون أى ضغط أجنبى (مارس ١٩٥٥) . كذلك يعلن الرئيس أننا نعادى من يعادينا ونسالم من يسالمنا (مايو ١٩٥٥) وأن سياسة مصر لا شرقية ولاغربية بل مصرية صميمة تعمل لمصر وللوطن العربى الأكبر (يونيه ١٩٥٦) . وهكذا يتبلور ويتضح شعار من أهم شعارات الثورة فى ذلك المضمار وهو الحياد الإيجابى . وهو حياد لا يمنع مصر من عقد صلات على مختلف الأشكال والمستويات فى نطاق مصالحها مع مختلف الأمم . وهو حياد أيضا لا يمنع مصر من القيام بنصيب فى النشاط الدولى والعالمى والإسهام فى حل مشاكل العالم والعمل على نشر الرفاهية والسلام فى العالم .

تحرير السودان

وإذا استعرضنا أبرز نواحي نشاط الثورة في المجال الدولي في السنين الأولى لقيامها نراها تتركز حول الكفاح ضد الاستعمار ، والتمسك بالحياد . وفي سبيل اقصاء المستعمر عن وادي النيل تعقد الثورة اتفاقيتي السودان (فبراير ١٩٥٣) والجلاء عن مصر (يوليو ـ أكتوبر ١٩٥٤) مع بريطانيا . وفيما يختص بالاتفاق حول السودان ، نجد أن الثورة قد وضعت نصب أعينها إجلاء الانجليز عن وادي النيل . وهي بعقدها اتفاقية السودان مع انجلترا التي ترمي إلى استقلال السودان وتقرير مصيره ، وذلك قبل عقدها لاتفاقية الجلاء عن مصر ، إنما تكون قد آثرت السودان الشقيق على مصر (١) . وهي تكون بذلك أيضا قد قطعت خط الرجعة على الانجليز الذين كانوا خلال النصف الأول القرن العشرين يدعون دائما المحافظة على حقوق السودانيين بينما هم يهدفون إلى فصل السودان عن مصر وعرقلة العلاقات بين البلدين ونشر الدعاية الباطلة ضد مصر .

واستقلال السودان متعلق إلى أكبر الحدود بقيام الثورة المصرية وبناء مصر من جديد على أساس مختلف كل الاختلاف عن الماضي . فكان أن زالت فكرة التاج وانتهت النظرية السياسية القديمة . وتقوم السياسة الجديدة للثورة على أسس عملية قبل كل شيء . ومن الطبيعي أن تتأثر قضية السودان بالآراء الجديدة للثورة . ولم تعد هذه القضية تفهم كما كانت تفهمها حكومة عام ١٩٤٦ مثلا حينما نادت بوحدة وادي النيل تحت تاج مصر . فهذه الفكرة لم تجد حينئذ تجاوبا في المحافل الدولية . فالعالم كان مقبلا على فترة قوى فيها صوت الشعوب وعلا فيها صوت

---

(١) د . محمد مصطفى صفوت . الجمهورية الحديثة ـ ١٩٥٨ ـ ص ٢١٥

الحرية بينما ولى عهد مد سيطرة التيجان بلا رجعة . ولذلك ، فالثورة فى ابان محاولاتها لحل القضية السودانية تكون أكثر استفادة من تجارب الماضى وأكبر فهما وتقديرا لظروف الحاضر سواء ما يتعلق منها بالسودان أو بالعالم .

وبهذا الشكل تعالج الثورة مسألة السودان التى ظلت معلقة عقب إلغاء الحكومة المصرية لمعاهدة عام ١٩٣٦ واتفاقيتى السودان عام ١٨٩٩ بالتالى (١٩٥١) . وتتفق وجهة نظر حكومة الثورة فى مصر مع ميثاق هيئة الأمم المتحدة وحق الشعوب فى تقرير مصيرها . وتفطن الثورة إلى أنه من العبث فرض حل لقضية مشتركة من جانب واحد ، وأن إحترام حق السودان الشقيق فى تقرير مصيره خير كفيل بتوثيق الروابط بينه وبين مصر . وعلى هذا الاساس يستأنف الجانب المصرى المباحثات حول السودان مع إنجلترا عقب الثورة . وتتضح وجهة نظر حكومة الثورة فى هذا الموضوع فى مذكرتها المؤرخة بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٥٢ التى تقول « تؤمن الحكومة المصرية إيمانا وطيدا بحقوق السودانيين فى تقرير المصير وممارستهم لها ممارسة فعلية فى الوقت المناسب وبالضمانات الكافية...»(١). وفى نفس الوقت يمهد الجانب المصرى ، بعد قيام الثورة ، لتوحيد كلمة الأحزاب السودانية التى كانت على خلاف دائم . وهكذا تستمر المحادثات بين الجانبين المصرى والإنجليزى حتى يصل الطرفان إلى اتفاق « بشأن الحكم الذاتى وتقرير المصير للسودان » .

وبمقتضى هذا الاتفاق تحدد فترة انتقال يمارس فيها السودانيون الحكم الذاتى الكامل وذلك تمهيداً لانهاء الإدارة الثنائية وتصفيتها . وخلال فترة الإنتقال هذه يمارس الحاكم العام للسودان سلطاته وفقا لقانون الحكم الذاتى الذى اتفق عليه

(١) د . محمد مصطفى صفوت — مصر المعاصرة ١٩٥٩ — ص ٢٣٥

الطرفان ويعاونه فى الحكم لجنة خماسية تسمى بلجنة الحاكم العام تؤلف من اثنين من السودانيين وعضو مصرى وعضو باكستانى وآخر بريطانى . كذلك تقرر تكوين جمعية تأسيسية منتخبة لتقرير مصير السودان . ويكون ذلك التقرير إما بالارتباط بين مصر والسودان على أية صورة وإما الإنفصال عن مصر والاستقلال التام . وتنسحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان عندما يقرر البرلمان السودانى رغبته فى إتخاذ التدابير لتقرير المصير . واجتاز السودانيون مرحلة الإنتقال التى وضعتها الثورة (ثلاث سنوات) بنجاح . وبعدها شاهد العالم مولد دولة عربية شقيقة فى إفريقيا تكافح إلى جانب مصر فى سبيل العروبة وفى سبيل تحرير قارة أفريقيا . وهكذا تتكون جمهورية السودان ، ويكون ذلك مرتبطا بقيام الثورة فى مصر .

الجلاء

وفيما يختص باتفاق الجلاء عن مصر ، فالمباحثات تدور بين الجانبين المصرى والبريطانى حول ذلك الموضوع من أبريل ١٩٥٣ حتى أكتوبر ١٩٥٤ . وفى هذه الأثناء كانت الثورة تعالج قضية الجلاء بعزم وإيمان دون التقيد بأى نوع من الدفاع المشترك أو الارتباط بمحالفة عسكرية مع بريطانيا . وفى خلال هذه المدة أيضا ، وهى مدة لابأس بها للقيام بمباحثات حول موضوع ما وقصيرة بالنسبة لتاريخ المباحثات الحافل مع بريطانيا والذى يتميز بالمماطلة والتسويف ، كانت الثورة تنظم المقاومة المسلحة ضد الإنجليز فى القناة . كذلك كان الانجليز يماطلون ويسوفون فى التسليم بالجلاء ربما أملا منهم فى إنقلاب داخلى أو إنقسام يضعف جبهة المقاومة ويتيح لهم فرصة إملاء الرغبات ، ولكن الثورة استطاعت أن تقبض على زمام الأمور وازداد الكفاح عنفا فى القناة مما كان يسبب تعثر المفاوضات أحيانا .

وتستأنف المفاوضات بين الجانبين في يوليو ١٩٥٤، وصلابة موقف المفاوضين المصريين والظروف الدولية التي كانت قائمة وقتئذ، هذا أدى إلى وصول الطرفين إلى إتفاق بشأن الجلاء. فالحكومه البريطانية لم تشأ غلق باب المفاوضات نهائيا بعد أن فطنت إلى أنه من العبث أن تحتفظ بقوات في مكان يكن أهلها كل حقد وعداء، لا سيما وقد ترجم هذا الحقد وهذا العداء إلى أعمال أحالت حياة هذه القوات في المنطقة جحيما. من ناحية أخرى نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية، وقد باتت تعتقد أن لها مصالح حيوية في الشرق الأوسط وفي قناة السويس على اعتبار أنها مجرى مائي يخدم دول العالم، رأت أن من الخير لها استقرار الأحوال في هذه المنطقة لاسيا بعد ذلك الاضطراب والقلق الذي سببه إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ وإصرار إنجلترا على بقائها في القناة. ولعل خشية الولايات المتحدة من تسرب النفوذ الشيوعي إلى المنطقة، مستغلا ما بها من إضطراب وما يجرى فيها من أحداث، قد حدا بها إلى الضغط على إنجلترا لتقبل الاتفاق مع مصر.

وقبل الجانب البريطاني مبدأ الجلاء، وأسفرت المباحثات عن إتفاق يتضمن المبادىء الرئيسية للاتفاق المقترح لتنظيم الجلاء (٢٧ يوليو ١٩٥٤). ووقع الاتفاق النهائي على الجلاء (١٩ أكتوبر ١٩٥٤) ويتضمن تفصيلات عملية الجلاء. وقد أنهت هذه الاتفاقية معاهدة التحالف بين البلدين المعقودة في ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ وكل ما يتعلق بها من المذكرات المتبادلة والاتفاق الخاص بالاعفاءات والميزات التي تتمتع بها القوات البريطانية في مصر وجميع ما تفرع عنها من اتفاقات أخرى (مادة ٢). وبمقتضى اتفاقية الجلاء كان على القوات البريطانية أن تجلو جلاء تاما عن الأراضي المصرية خلال فترة عشرين شهراً (مادة ١) وتبقى أجزاء من قاعدة السويس في حالة صالحة للاستعمال ومعدة للاستخدام. وفي حالة هجوم مسلح من دولة من الخارج على أي بلد طرف في معاهدة الدفاع المشترك بين دول

الجامعة العربية المؤقتة فى القاهرة (١٣ إبريل ١٩٥٠) أو على تركيا ، تقدم مصر لانجلترا من التسهيلات ما قد يكون لازما لتهيئة القاعدة للحرب وإدارتها إدارة فعالة (مادة ٤) . كذلك تقر هذه الاتفاقية أن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر (مادة ٨) وتبدى الدولتان عزمهما على احترام إتفاقية القسطنطينية (٢٩ أكتوبر ١٨٨٨) التى تكفل حرية الملاحة بها ، ويتفقان على أن يسرى إتفاق الجلاء لمدة سبع سنوات[١] .

ويتم الجلاء يوم ١٣ يونيو ١٩٥٦ ويتخذ يوم ١٨ يونيه عيدا للجلاء ، ففيه رفع جمال عبد الناصر العلم المصرى على مبنى البحرية فى بورسعيد . ولا شك أن مصر قد كسبت كثيرا بهذا الاتفاق الذى أرغمت بريطانيا على قبوله ، والذى جعل إسرائيل تولول وتعد الاتفاق خطرا يهدد سلامتها . وما كاد الاتفاق يبرم حتى ارتفعت الأصوات فى بريطانيا معارضة له فى مجلس العموم وفى مجلس اللوردات وفى الصحافة البريطانية . وصارت الحكومة البريطانية عرضة للهجوم عليها من أنصارها وخصومها السياسيين على السواء . ووصفت بعض الصحف البريطانية ذلك الاتفاق بأنه أعظم استسلام فى تاريخ بريطانيا منذ أن تخلت عن الهند ، وأنه سوف يؤثر على سمعتها فى الشرق الأوسط .[٢]

حلف بغداد :

وموقف الثورة من حلف بغداد يؤكد عزمها على إتباع سياسة الحياد الايجابى وعدم الانضمام للاحلاف بوجه عام كما ينطوى على تصميم فى المضى فى

---

(١) انظر نص الاتفاق بصحيفة الجمهورية ٢٠ أكتوبر ١٩٥٤ .
(٢) انظر : صفوت — انجلترا وقناة السويس . ص ٢١٠ — ٢١٩ وأيضا صلاح سالم — الجلاء — ص ٥٣ — ٦٤ .

مكافحة الاستعمار وأعوانه . ويوقع حلف بغداد بعد أن يئست الدول الغربية من حمل مصر على الانضمام اليه كما يئست من قبل من حملها على الانضمام إلى الحلف الاستعماري المعروف باسم منظمة الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط (١٩٥١) أو حمل حكومة الثورة على الانضمام إلى تلك المنظمة ، وعلى ذلك يوقع الميثاق المعروف باسم حلف بغداد (٢٤ فبراير ١٩٥٥) بين العراق وتركيا على أساس من التعاون بين الدولتين فى الدفاع وفتح الحلف لدول الجامعة العربية وغيرها من الدول التى يهمها أمر السلام فى المنطقة . ولم تلبث انجلترا ، وهى الموعزة بإنشاء هذا الحلف ، أن انضمت اليه فى ابريل ١٩٥٥ . ثم انضمت اليه باكستان وإيران واشتركت الولايات المتحدة فى بعض لجانه .

وتلت توقيع هذا الحلف فترة صراع بين الاستعمار وأعوانه وأذنابه فى المنطقة ، والذى اتخذ من ذلك الحلف وسيلة لتحقيق أهدافه من ناحية ولعزل مصر من ناحية أخرى ، وبين سياسة مصر التى تهدف إلى الحياد وحمل لواء القومية العربية ومحاربة الاستعمار بشتى صوره . وتتجه بريطانيا إلى الاردن فى محاولة لربطه بحلف بغداد . فبريطانيا كانت تعتبر الاردن مركزا أماميا للعراق . وكان إيدن يرى أن سياسة بريطانيا فى الشرق الأوسط وسلطانها فى هذه المنطقة يعتمدان على نظام نورى السعيد فى العراق . وكانت بريطانيا حينئذ تعتمد على هذا الحكم وذلك العهد فى مقاومة ذلك الأسلوب الجديد الذى أتى به عبد الناصر ، والذى يهدد المصالح البريطانية فى المنطقة تهديدا كبيرا .

ولكن عداء عبد الناصر المكشوف لحلف بغداد الذى بدأ فى أوائل عام ١٩٥٥ لم يلبث أن أصاب الحلف وبريطانيا بالخيبة والصدمات تلاحقهما . ففى ديسمبر من ذلك العام قدم تمبلر مشروعه إلى وزارة المفتى بالأردن . ويقضى هذا المشروع بإلغاء المعاهدة الاردنية الانجليزية المعقودة عام ١٩٤٨

واستبدالها باتفاق خاص تنفيذا للمادة الأولى من ميثاق بغداد الذى ينص المشروع على أن تتعهد حكومة الاردن بالإنضمام إليه (١) . ولكن الوزارة تستقيل إزاء ضغط الرأى العام الاردنى وتخلفها وزارة المجالى التى لم تبق فى الحكم سوى ثلاثة أيام أمام ثورة الشعب واصراره على عدم الدخول فى أحلاف استعمارية بالاردن. وجاءت وزارة أخرى لتنقذ الموقف ولكن حظها لم يكن بأكثر من سابقتها . وفى مستهل شهر مارس (١٩٥٦) يطرد جلوب من الاردن وذلك عقب فشل تمبلر فى إدخال الاردن فى حلف بغداد وما تبع ذلك من إضطرابات ومظاهرات. وهذا قضى على كل أمل لبريطانيا فى محاولة ثانية لضم الاردن إلى حلف بغداد . كان ذلك ، بالاضافة إلى نشاط الثورة فى باندونج وبريونى ، مما غير وجهة نظر حكومة إيدن تماما إزاء مصر فى الفترة ما بين نوفمبر ١٩٥٥، ويونيو ١٩٥٦ (٢) ودعا إلى عدم المضى فى تنفيذ مشروع السد العالى ، رغم أن هذا العرض كان قد قدم عن طريق خطوة مشتركة قامت بها بريطانيا وأمريكا فى نوفمبر ١٩٥٥ .

وينتهى الأمر بإنتصار القومية العربية . فتقوم ثورة ١٤ يوليو بالعراق (١٩٥٨) . ورغم إنحراف هذه الثورة ، فان العراق العربى لايلبث أن يقوم بالثورة تلو الأخرى لتقويم نفسه . كذلك تقوم الوحدة بين سوريا ومصر عام ١٩٥٨ . ورغم إنتكاس هذه الحركة فقد أفدنا بلاشك من هذه التجربة . ثم تقوم ثورة اليمن على الاستبداد والرجعية . ويسير الركب العربى وراء رائد القومية العربية — الرئيس جمال عبد الناصر — ولايكاد الرئيس يعلن خطر القواعد العسكرية الأجنبية على الوطن العربى حتى تستجيب ليبيا إلى هذا البيان وتظهر

---

(١) أنظر نص المشروع فى « هذه الاحلاف » لعبد القادر حاتم — ص ٩١ — ٩٣ .

(٢) ارسكين تشايلدرز — الطريق إلى السويس — تعريب خيرى حماد . ص ١٧٧ .

رغبتها فى تصفية القواعد العسكرية الانجليزية والأمريكية فى أراضيها ويوافق البرلمان على ذلك الامر .

مؤتمر باندونج

وكما أتبعت الثورة من بادىء الأمر سياسة عربية اتسمت بإصرار الثورة على نبذ سياسة الأحلاف الأجنبية والاصرار على ميثاق الضمان الجماعى العربى كخير وسيلة للدفاع عن المنطقة ، تؤمن الثورة أيضا من بادىء الأمر بسياسة التضامن الآسيوى الافريقى . وقد أقر الميثاق ـ فيما بعد ـ هذا المعنى فى الباب العاشر منه إذ جاء فيه : « إذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية فهو يؤمن بجامعة أفريقية ويؤمن بتضامن آسيوى أفريقى .... يؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ويؤمن برباط روحى وثيق يشده إلى العالم الاسلامى ، ويؤمن بانتمائه إلى الامم المتحدة وبولائه لميثاقها الذى استخلصته من آلام الشعوب فى محنة حربين عالميتين ... أن شعبنا يعيش على الباب الشمالى لافريقيا المناضلة وهو لا يستطيع أن يعيش فى عزلة عن تطورها السياسى والإجتماعى والاقتصادى ..... ان شعبنا ينتمى إلى القارتين اللتين تدور فيهما الآن أعظم معارك التحرير الوطنى وهو أبرز سمات القرن العشرين . ان شعبنا عقد العزم على أن يعيد صنع الحياة على أرضه بالحرية والحق ، بالكفاية والعدل ......»

وتشترك مصر فى مؤتمر باندونج (١٨ ـ ٢٤ أبريل ١٩٥٥) لترفع صوت الحق وصوت الإنسانية عاليا فى ذلك المحفل الدولى الذى ضم مندوبى ٢٩ دولة تمثل أكثر من نصف سكان العالم . وقد ظهرت الفكرة إلى عقد هذا المؤتمر فى مايو عام ١٩٥٤ خلال عقد مؤتمر من الهند وباكستان وسيلان وأندونيسيا وبورما فى مدينة كولومبو . واتفقت هذه الدول الخمس على دعوة الدول الآسيوية

والأفريقية لعقد مؤتمر عام فى أندونسيا . ورغبة فى إنجاح المؤتمر اتفق الداعون على جملة أمور أثارت القلق فى نفوس الدول الاستعمارية . فهم يقررون دعوة الصين الشعبية ويستبعدون اسرائيل واتحاد جنوب أفريقيا . وبات واضحا أن أهداف المؤتمر ترمى الى تحرير الشعوب الآسيوية والأفريقية ومحاربة الاستعمار والتفرقة العنصرية .

وينعقد المؤتمر ويهاجم المندوبون الاستعمار والتفرقة العنصرية ويطالبون بالسلام والاستقرار فى العالم . وفى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر ـ ممثل مصر فى المؤتمر ـ يرحب الرئيس بالتعاون بين دول آسيا وأفريقيا كما يحدد شروطا خمسة لتحقيق السلام فى العالم : وذلك بالحد من التسليح وتمسك الامم المتحدة بميثاقها ومبادئها واحترام الدول لالتزاماتها الدولية ووقف أساليب الضغط السياسى التى تستخدمها الدول الكبيرة مع الدول الصغيرة لتنفيذ مآربها واخيرا تصفية الاستعمار .

وجاءت قرارات المؤتمر لتعكس أمانى ورغبات نصف سكان الارض ، وتعكس أيضا وجهة النظر العربية التى مثلها الرئيس جمال عبد الناصر فى المؤتمر أصدق تمثيل . وبذلك يكون المؤتمر بمثابة انتصار لمصر والعرب . وقد عالجت هذه القرارات أمر التعاون الاقتصادى بين الدول الافريقية والآسيوية كما عالجت أمر التعاون الثقافى بينها وتضع القواعد لتنظيم ذلك التعاون . وتؤكد القرارات حقوق الإنسان وحق تقرير المصير وتنادى بنبذ التكتلات العسكرية والامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأية دولة من الدول الكبرى . كذلك تطالب القرارات بتصفية الاستعمار كحل لمشاكل الشعوب التابعة . ويؤيد المؤتمر أيضا حقوق شعب فلسطين العربى ويدعو الى تطبيق قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين ويؤيد موقف اليمن فى قضية عدن والجنوب العربى . كذلك يدعو المؤتمر الى التعايش السلمى بين الأمم على أساس من سيادة

هذه الأمم والمساواة بين الاجناس واحترام حقوق الإنسان .

وحينما يعود الرئيس من باندونج يعلن للشعب خطة المستقبل في سياستنا ، فيقول : « إن بلادنا اليوم لها كيان مستقل وشخصية مستقلة وانها حينما تتصرف من وحى هذا الاستقلال انما تتصرف فى الداخل وهى كاملة الاستقلال ، وفى الخارج وهى تشعر أنها كاملة الاستقلال » . ويركز الرئيس على هذه السياسة المستقلة التى تصبح من سمات سياستنا الخارجية . ويقول : « إننا فى تصرفنا اليوم بالنسبة للسياسة الخارجية نتبع سياسة مستقلة » (١٩ مايو ١٩٥٥) .

الصفقة التشيكوسلوفاكية

وفى نفس العام ، تتبع مصر انتصارها فى باندونج بانتصار آخر . ففى سبتمبر من ذلك العام (١٩٥٥) تعقد مصر صفقة الاسلحة مع تشيكوسلوفاكيا ، وبها تورد تشيكوسلوفاكيا ما تطلبه مصر من سلاح بدون قيد أو شرط . وكانت هذه الصفقة فى الواقع عملا خطيرا له دلالته فى تاريخ مصر الحديث . فقد حرصت انجلترا منذ احتلالها مصر (١٨٨٢) على التحكم فى أمر تسليح الجيش المصرى ـ ان كانت هذه القوة التى تسيطر عليها بريطانيا تسمى جيشا حينئذ بالمعنى المفهوم . وعلى ذلك يظل الجيش المصرى، بهذه الطريقة وطوال هذه المدة ، ضعيفا وأقرب الى قوة بوليسية منه الى جيش على استعداد لخوض المعركة دفاعا عن الوطن . ولكنه على أية حال كان كفيلا بأداء الغرض منه ، من وجهة النظر الانجليزية ، وذلك كأداة للقضاء على الاضطرابات فى البلاد ولاسيما « الثورات ذات الصبغة الدينية » كما كانوا يقولون . لذا تغلق المصانع التى كانت موجودة بمصر وتزال البحرية وتعطل

ترسانة الاسكندرية . وتصير مهمة الجيش الأولى — كما أرادها له الانجليز — المحافظة على الأمن ورد غارات البدو (١)

وتقوم الثورة وتعلن أن من أهم أهدافها تقوية الجيش المصرى . ولكن دول المعسكر الغربى كفت أيديها عن امداد الجيش المصرى بما يطلبه من سلاح الا بشروط معينة رأت فيها مصر مساسا بسيادتها ، وذلك فى الوقت الذى أغدقت فيه هذه الدول السلاح على اسرائيل ، بحجة العمل على توازن القوى فى المنطقة . وتتوالى تبعا لذلك اعتداءات اسرائيل على المواقع المصرية فى قطاع غزة (١٩٥٥) ربما لارغام مصر على قبول السلاح بالشروط التى يفرضها الغرب أو لتخويف مصر من مغبة موقفها فى باندونج . فكان على مصر أذن أن تدخل معركة أخرى فى حرب تثبيت الاستقلال ، وهى معركة تحديد معالم شخصيتنا الدولية ورسم مسلكنا فى عالم شاء أعداؤنا أن يزرعوه بالمشاكل حولنا . كانت مصر قد طلبت السلاح من أمريكا ومن بريطانيا . أما أمريكا — فكما يقول الرئيس (٢٢ يوليو سنة ١٩٥٧) فقد سكتت ثم وعدت ثم عدلت وعادت إلى السكوت . أما بريطانيا — وكانت لاتزال تحتفظ بجزء من ثمن سلاح تقاضته منا وتأخرت فى توريده — فقد رأت أن تساوم فى مسألة تمس شخصيتنا الدولية ، وسألتنا ماذا سيكون عليه موقفنا فى باندونج أولا .

ولكن مصر لم تشأ أن تجعل من حاجتها الى السلاح سدا يحول بينها وبين الشخصية الدولية التى كنا نصر على تحديد معالمها وتأكيد دورها فى توفير السلام . وبرزت شخصية مصر فى باندونج ، وعادت مصر من باندونج بعد أن أوضحت معالم شخصيتها الدولية لتجد معركة الحصول على السلاح فى انتظارها . وهكذا

---

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : مصر المعاصرة ص — ٦٠

تبدأ نقطة التحول وتتجه مصر إلى الحصول على السلاح من أى مكان . وتتم صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية — احدى بلاد الكتلة الشرقية — وتكون صفقة تجارية بحتة تدفع فيها مصر ثمن السلاح منتجات مصرية .

وقد قوبلت أنباء هذه الصفقة بالانزعاج الشديد فى عواصم الغرب التى كانت تتخذ من أمر وصايتها على منطقة الشرق الأوسط موضوعا مسلما به ، والتى لم تكن تتصور أن تبلغ مصر من «الجرأة» حدا يخرج بها عن نطاق هذه الوصاية. وأبلغت بريطانيا مصر قلقها البالغ من جراء هذه الصفقة واعتبرتها تسابقا فى التسلح . وحاولت الدول الغربية تهديد مصر وتحويلها عن هذه السياسة المستقلة ولكنها فشلت . وهكذا تتحرر مصر من اعتمادها على الغرب فى تزويد الجيش بالسلاح والذخيرة وتستكمل حريتها الحقيقية وتقضى على النفوذ الأجنبى وتحطم قيود السيطرة الاستعمارية . كذلك تعمل هذه الصفقة على رفع مركز مصر بين الشعوب العربية ويقابل العالم العربى الخطوة المصرية بالفخر والاعجاب .

الاعتراف بالصين الشعبية

ومع ذلك فلم تكن هذه الخطوة — صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية — سوى وخزة بسيطة للاستعمار بالنسبة لسلسلة الصفعات القوية التى وجهتها الثورة للاستعمار . فمصر تستمر فى سياستها الاستقلالية وتظهر الدليل للعالم على تحررها التام من التبعية لأية سياسة ولا سيما السياسة الغربية . وتعترف مصر بدولة الصين الشعبية (١٦ مايو ١٩٥٦) على اعتبار أن حكومة الصين الشعبية تمثل ٦٠٠ مليون نسمة ، وعلى ذلك فمن الحماقة تجاهلها . ثم أن الصين الشعبية احدى دول باندونج وقد اعترفت بها ٢٣ دولة . وذلك فضلا عن أن الصين الشعبية كانت قد اشترت قطننا مصريا بمبلغ ١٦ مليون جنيه وقد جاء قرار مصر بالاعتراف بالصين الشعبية

ردا حاسما على تسليح الدول الغربية لاسرائيل . وأثار القرار غضب أمريكا مما دفعها — فيما بعد — الى سحبها لتمويل مشروع السد العالى عقابا لمصر . ولكن مصر ترد الضربة بأقوى منها وتعلن تأميم شركة قناة السويس .

مؤتمر بريونى

نلاحظ — كما قال الرئيس فى يوليو سنة ١٩٥٦ — أن مصر منذ أن أعلنت سياستها الحرة المستقلة بدأ العالم ينظر إلى مصر ويعمل لها وللقومية العربية حسابا كبيرا . كذلك تنمو مصر فى المجال الدولى وتكبر قيمة الأمة العربية . وعلى هذا الأساس عقد مؤتمر بريونى . فى بريونى ، الجزيرة اليوغوسلافية جنوبى تريستا — يجتمع ثلاثة من أقطاب الحياد فى العالم يمثلون قارات أفريقيا وآسيا وأوروبا . ويعقد مؤتمر بريونى (١٨ — ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦) من الرئيس جمال عبد الناصر ، والرئيس اليوغوسلافى تيتو ، ونهرو رئيس وزراء الهند ، وذلك لبحث سبل اقرار السلام فى العالم وتوكيد سياسة الحياد .

وهم لذلك يؤكدون مبادىء مؤتمر باندونج ويحبذون سياسة التعايش السلمى . وهذا شعار جديد إنتشر فى العالم ، وقد ذكر أول ما ذكر فى ديباجة المعاهدة التى أبرمت بين الصين الشيوعية وبين الهند (٢٩ أبريل ١٩٥٤) . وكانت مصر ويوغوسلافيا من بين الدول التى عكفت على دراسة هذا الإتجاه الجديد « التعايش السلمى » والتعمق فى بحث مراميه . فأنصار السلام فى العالم كانوا يرون بشكل عام أن هذه العبارة تحمل معنى القضاء على الحرب الباردة التى أرهقت العالم . وكان خروشوف يضيف إلى ذلك المعنى تفسيره بأن « سياسة التعايش السلمى تفترض أيضاً أن العلاقات بين الدول يجب أن تكون قائمة على المساواة التامة فى الحقوق وتبادل المنافع » (١) . وشارك الرئيس تيتو

---

(١) أنظر : بطرس غالى — دراسات فى السياسة الدولية ص ٢٣ — ٢٩ .

خروشوف هذا الرأى ، كما رأى تيتو أيضاً أن مبادىء التعايش السلمى مسجلة فى ميثاق الأمم المتحدة . وقد أيد الرئيسان المصرى واليوغسلافى هذا المذهب فى يناير سنة ١٩٥٦ .

كذلك رأى أقطاب بريونى أن السياسات التى انتجتها حكوماتهم قد اسهمت إلى حد ما فى تخفيف حدة التوتر الدولى وتوطيد العلاقات بين الشعوب . وتتناول قرارات بريونى منطقة الشرق الأوسط على اعتبار أنها منطقة يسودها التوتر . وتذكر أنه «فى الشرق الأوسط زادت المصالح المتعارضة للدول الكبرى من المصاعب التى تحف بالموقف ويجب البحث فى تلك المشاكل من حيث هى وحماية المصالح الاقتصادية المشروعة مع اقامة أية حلول على أساس حرية الشعوب التى يهمها الأمر. وأن حرية شعوب هذه المناطق وحسن نياتها لازمان لا للسلام وحده بل لحماية المصالح الاقتصادية المشروعة أيضا». كذلك تؤيد القرارات ما جاء بمؤتمر باندونج خاصا بفلسطين، وتؤكد أن الموقف فى فلسطين مثار خطر على السلم العالمى . وتتناول القرارات أيضا قضية الجزائر وتعتبر أن الموقف هناك بالغ الأهمية ويتطلب اهتماما عاجلا من وجهة نظر الحقوق الطبيعية لشعب الجزائر ولدعم السلام هناك . ويعبر الرؤساء الثلاثة عن عطفهم التام على رغبة شعب الجزائر فى الحرية ايمانا منهم بأن السيطرة الاستعمارية غير مرغوب فيها اطلاقا .

ومؤتمر بريونى فضلا عن أنه جاء نصرا لقضايا الحرية والسلام والحياد فى العالم فقد كان نصراً دوليا لمصر ونصرا لسياستها. وكرمت يوغوسلافيا — شعبا وحكومة — مصر فى شخص الرئيس جمال عبد الناصر . وبات واضحا أن مصر مصرة فى عزم على اتباع طريق الحياد وعدم الانحياز . وقد أضاف هذا المؤتمر إلى عوامل استياء الولايات المتحدة من السياسة المصرية .

العدوان الثلاثى على مصر (٢)

الغرب وسياسة عبد الناصر

اتبعت إذن حكومة الثورة فى مصر سياسة لم تجد قبولا من الدول الغربية . ووجدت هذه الدول فى الثورة المصرية وفى شخص قائدها خطرا مباشرا يهدد مصالحها فى الشرق الأوسط . فمصر تتخذ طريق الحياد ، وهى ترفض الارتباط بالأحلاف العسكرية فى غير نطاق الجامعة العربية ، وهى ترفض أى معونة عسكرية أو اقتصادية مشروطة . فهذه الشروط سوف تكون قيدا على سيادة مصر واستقلالها وتحد من نشاطها فى سبيل نصرة الشعوب العربية والاسلامية التى تسعى إلى التحرر ،وتحد من نشاطها الذى يرمى إلى تأييد قضية الحرية فى العالم بشكل عام .

ولم يرق للغرب هذا الدور الذى تلعبه مصر فى السياسة الدولية،وهو دور كان على مصر أن تقوم به بدافع من المسئوليات التى ألقيت على عاتقها عقب الثورة وهى مسئوليات جسام إزاء الشعب العربى ، وإزاء الشعوب الأفريقية ، وإزاء العالم . ولم يرض الغرب عن السياسة الاقتصادية المستقلة التى اتبعتها مصر كما ساءه صفقات مصر التجارية مع دول الكتلة الشيوعية . وانتاب الغرب القلق للدور الذى لعبته مصر فى باندونج واعترافها بالصين الشعبية واشتراك الرئيس المصرى فى مؤتمر بريونى والدور الفعال الذى قام به هناك .

كل ذلك أصاب الغرب بالدهشة والعجب والذهول فالغرب كان قد تعود أن يرى مصر عاملا سلبيا لا إيجابيا فى الميدان الدولى . فمن بعد الاحتلال البريطانى ومن قبل ذلك أيضا ، وحتى قيام ثورة عام ١٩٥٢ وقد تعود الغرب أن يرى مصر وهى تدور فى عجلة السياسة البريطانية فى المجال الدولى وفى الاقتصاد وفى كل شىء

تقريبا. ثم وقف الغرب يتفرج على مصر وقد نما مركزها فى الشرق الأوسط نتيجة لقيام الثورة بها ، ويشاهد بهلع السياسة التى تتبعها حكومة الثورة والنجاح الذى تلاقيه فى المنطقة . فهى تقف بالمرصاد لحلف بغداد الذى أنشأته ورعته بريطانيا ثم باركته الولايات المتحدة الأمريكية . وهى تقف وراء فشل بريطانيا فى حمل المملكة الأردنية الهاشمية على الانضمام إلى ذلك الحلف وطرد جون جلوب، المستشار العسكرى البريطانى للملك حسين ، فى أوائل شهر مارس عام ١٩٥٦ . كل ذلك أصاب الحكومة البريطانية وسياستها بالمرارة والفشل ودعا إلى تغيير وجهة نظر الحكومة البريطانية إزاء مصر تماما .

وفى نفس الوقت تغير الحكومة الفرنسية من وجهة نظرها هى الأخرى إزاء حكومة الثورة وقائدها جمال عبد الناصر بعد أن تفشل فى مساومته على موقفه من قضية الجزائر . وتتخذ فرنسا بذلك موقفا لايتسم بالود إزاء مصر والعرب . ففى مارس عام ١٩٥٦ تفقد فرنسا كلا من تونس والمغرب اللتين حصلتا علـــى إستقلالهما . وبذلك تتفرغ فرنسا لأمر الجزائر وتبذل جهدها للاحتفاظ بها . ولكن عبدالناصر يتولى من القاهرة أمر مساندة الثورة الجزائرية علانيــة كما يتــولى أيضا مساندة حركات التحرر فى العالم العربى . وبذا صار أمر عبد الناصر والثورة المصرية بالنسبة لفرنسا مرتبطا بالجزائر . فلكى تبقى الجزائر فرنسية فلابد من الاتفـاق مع عبـد الناصر أو الإطاحة به وبالثورة فى مصر . وعلى ذلك تعرض فرنسا صداقتها عـلى مصر ومواصلة سياستها القائمة عـلى عدم الإكتراث بحلف بغــداد مقابل أن تنفض مصر أيديهــا من القضية الجزائرية وتتوقف عن تأييد الثورة هناك (١). يحدث ذلك فى منتصف مارس ١٩٥٦ تقريبا والناس يتحدثون حينئذ عن صفقات أسلحة فرنسية لإسرائيل رغم إنكار كل

---

(١) أنظر تشايلدرز — الطريق إلى السويس . ص ١٦٣

من فرنسا وإسرائيل . ويتكلم وزير الخارجية الفرنسية (بينو) عن عبث إتباع سياسة معادية لعبدالناصر بالنسبة لفرنسا . ولكن الرئيس المصرى يرفض العرض الفرنسى ، فهذا يعنى تخلى الثورة فى مصر عن واجب من أبرز واجباتها .

وقد سبب هذا الرفض الحرج للوزير الفرنسى بينو الذى انقلب عدواً سافراً للثورة فى مصر ولزعيمها . وهنا تتلاقى أهداف فرنسا وإسرائيل . ومن هنا جاء هذا التقارب بينهما الذى جر فيما بعد إلى التحالف العسكرى الذى ظهر أثره إبان العدوان على مصر فى أكتوبر من نفس العام . ومن إبريل عام ١٩٥٦ وقد بدأ سيل من الطائرات المقاتلة الفرنسية المعروفة باسم (ميستير) يتدفق علانية على إسرائيـــــل .

تأميم قناة السويس

وتلجأ دول الغرب يساونها حلف بغداد إلى سياسة عزل مصر ومحاربتها سياسيا واقتصاديا .وذلك بقصـــد إضعاف شأن مصر وتحطيم القومية العربية الناشئة وحتى يتمكن الاستعمار فى الشرق العربى . ولكن مصر تمضى فى سياستها المناهضة للاستعمار وتمضى الدول الغربية فى سياستها لعزل مصر ويصل بها الأمر إلى تكشف عن حقدها أمام العالم وتسحب كل من بريطانيا وأمريكا عرضها تمويل السد العالى غير عابئة بوعود أو تقاليد إلا بما يمليه عليها حقدها لفشل سياستها ونجاح السياسة المصرية الجديدة .ففى أواخر عام ١٩٥٥ وأوائل عام ١٩٥٦ كانت قد جرت مباحثات بين مصر والبنك الدولى للانشاء والتعمير . ويتم اتفاق مبدئى على عقد قرض لمصر بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار لانشاء السد العالى . كذلك تبدى كل من أمريكا وبريطانيا استعدادها لتقديم عون مقداره ٧٠ مليون دولار للمساهمة فى تنفيذ المرحلة الأولى من المشروع. فدول الغرب قد رأت حينئذ أنه من صالحها

معاونة مصر فى تنفيذ مشروع السد العالى ، وذلك رداً على صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية . وكانت دول الغرب ترمى من ذلك إلى وقف إتقدم النفوذ الروسى وانتشار الشيوعية من ناحية ، كما كانت تنتظر أن تسير مصر فى فلكها من ناحية أخرى .

ولكن الحكومة الأمريكية تعلن فجأة (١٩ يوليو ١٩٥٦) سحب هذا القرض لتمويل مشروع السد العالى وتتبعها إنجلترا فى اليوم التالى وترفض بدورها تمويل المشروع . وعلى ذلك يسحب البنك الدولى عرضه السابق على مصر . وكان البيان الأمريكى فى تفسيره لسحب عرض الولايات المتحدة يهدف بوضوح إلى خلق العقبات السياسية والاقتصادية فى سبيل مصر . ففيه إغراء للدول التى تنتفع بمياه النيل (السودان وأثيوبيا وأوغندا) لكى تعارض فى إنشاء السد العالى . كذلك يدعو البيان إلى التشكك فى مركز مصر المالى ومقدرتها على الوفاء بالتزاماتها . وكان من الواضح أن هناك أسبابا دفعت أمريكا إلى ذلك القرار تخالف الأسباب التى ذكرتها فى ذلك البيان . فأمريكا قد ساءها بلا شك إتخاذ مصر لسياسة الحياد وعدم الانحياز . وفى هذا المجال ينبغى أيضا إعتبار النفوذ الصهيونى فى كل من أمريكا وانجلترا .

وكان رد مصر على هذه الخطوة الأنجلو — أمريكية التى قصد بها جرح كرامة مصر وكبريائها وإحراج مركزها السياسى والاقتصادى ، صفعة قوية وجهتها مصر للاستعمار أصابته بالذهول والدوار ، وأفقدته حتى القدرة على التصرف بحكمة وروية ، فأقدم على عمل من أعمال الطيش قوض أركانه فى الشرق الأوسط وزلزل كيانه فى العالم أجمع : ففى يوم ٢٦ يوليو من نفس العام يعلن الرئيس جمال عبد الناصر من الأسكندرية تأميم الشركة العالمية لقناة السويس ، وهى شركة مساهمة مصرية .

وينص ذلك الإعلان على أن ينتقل إلى الدولة جميع ما للشركة من أموال وحقوق وما عليها من التزامات، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة على إدارتها حينئذ ويتولى إدارة مرفق المرور بالقناة هيئة مستقلة مصرية تكون لها جميع السلطات فى سبيل إدارة المرفق دون التقيد بالنظم والأوضاع الحكومية . كذلك ينص الإعلان على أن تجمد أموال الشركة المؤممة وحقوقها فى جمهورية مصر وفى الخارج ويحظر على البنوك والهيئات والأفراد التصرف فى تلك الأموال إلا بقرار من الهيئة المصرية التى تتولى إدارة المرفق . أما المساهمون وحملة حصص التأسيس فيعوضون عما يملكونه من أسهم وحصص بقيمتها مقدرة بحسب سعر الإقفال السابق لتاريخ العمل بقانون التأميم فى بورصة الأوراق المالية فى باريس . ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الشركة المؤممة (١) . وهكذا تعود القناة إلى أصحابها وتستطيع مصر الانتفاع بموارد القناة فى بناء مصر إقتصاديا وإقامة المشروعات الحيوية .

وقرار التأميم هذا لم يكن مجرد رد على موقف إنجلترا وأمريكا من مشروع السد العالى فحسب . بل هو نتيجة طبيعية وعمل حتمى يقتضيه الدفع الثورى فى طريقه لتحقيق الثورتين السياسية والاجتماعية معاً . فالشركة وإن كانت شركة مساهمة مصرية إلا أن ذلك كان من الوجهة القانونية النظرية فقط . أما فى واقع الأمر فكانت هذه الشركة أجنبية تساند الاستعمار ويساندها . وكانت إدارتها فى باريس ويديرها مجلس مكون فى معظمه من الفرنسيين والانجليز . أما فى مصر فكانت الشركة تكون دولة داخل الدولة. لذلك جاء ذلك التأميم نتيجة طبيعية

---

(١) انظر نص القانون والمذكرة الايضاحية له فى : قناة السويس – حقائق ووثائق – ص ٢٦٠ – ٢٦٧

لقيام الثورة التى يبدو أنهـا كانت تقوم بدراسة ذلك الموضوع بعنـاية وحرص لوقت طويل قبل سحب أمريكا وانجلترا لعرضهما الخاص بتمويل مشروع السد العالى ، كما أنه من المعتقد أن هذا التأميم كان فى « أجندة » السياسة المصرية منذ وقت غير قصير (١) .

موقف الدول

وكان قرار مصر الجرىء بالتأميم بمثابة كارثة ومفاجأة للدول الاستعمارية بقدر ما كان مفاجـأة سارة للشعب العربى بأسره . فعلاوة عـلى ما ينطوى عليه هذا القرار من الإضرار بالمصـالح التى تدعيهـا الحـكومات الاستعمارية فى مصر والشرق العربى، فهو يحمل فى طياته أيضاً إيذاناً بضياع هيبة هذه الدول ونفوذها فى الشرق الأوسط، وهو مثل ستقوم الدول العربية الأخرى بلاشك على باحتذائه إذا ما استسلمت إنجلترا وفرنسا لذلك القرار. وأيدت بعض صحف لندن الحـكومة البريطانية فيما ذهبت إليه وقالت أنه إذا ما ترك عبـد الناصر يفعل ما يشاء ستهدم مصالح إنجلترا والدول الغربية فى الشرق الأوسط . كذلك ظنت الحكومة الانجليزية ، وشاركتاها فى الظن الحـكومتان الفرنسية والأمريكية ، أن عبد الناصر سوف يستخدم القناة لأغراض سياسية وقوميـة . لذلك تحتج الحـكومتان البريطانية والفرنسية على ذلك القرار ويعلنان أنهما يرفضان الاعتراف بتأميم القناة وأنهما ستتخذان جميع التدابير اللازمة لسلامة رعاياهما واحترام مصالحهـم (٢٧ يوليو ١٩٥٦) .

وبذلك وضحت نية العدوان على مصر عقب قرار التأميم مباشرة . كذلك دلت تصريحات آنتونى إيدن — رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ — على أن

(١) انظر مقالة الدكتور محمد انيس (مصر فى المعترك الدولى) ـ العدوان الثلاثى عـلى مصر — ص ٤٠

السياسة الاستعمارية الانجليزية لم تكن تنوى التسليم لمصر بالقناة حتى بعد انتهاء عقد امتياز الشركة . وهكذا يكشف الاستعمار العالمى فى ثورة الحنق والغضب، عن نواياه ازاءنا. ويكشف أحد الباحثين فى مسألة قناة السويس عن هذه النوايا ويبين أنها كانت مبيتة من الدول الاستعمارية منذ عام ١٩٥٠ بل وربما قبل هذا التاريخ ، حين شعرت هذه الدول بقرب أجل التزام القناة. فقد ظهرت بين محفوظات شركة قناة السويس وثائق توحى بأن الدول كانت تدبر مؤامرة استعمارية لتدويل قناة السويس وادارة هذا المرفق المصرى بمعرفة لجنة دولية، على غرار اللجنة الدولية التى كانت تنظم الملاحة وتشرف عليها فى نهر الدانوب الذى يعرق أراضى دول عديدة من وسط وشرق أوروبا . وقد وجدت بين هذه المحفوظات فتوى مؤرخة فى سنة ١٩٤٩ لأحد كبار العلماء الفرنسيين ، وهو أستاذ للقانون الدولى فى باريس ، تقول بأن لشركة قناة السويس طابعا دوليا وأن المنتفعين بالملاحة فى القناة هم الذين يحق لهم أن يديروا الحركة الملاحية فيها (١) .

ولكن مصر تصمد أمام تهديدات بريطانيا وفرنسا وترفض حتى تسلم احتجاجات الدولتين ، وتعلن أنها تحترم حرية الملاحة فى القناة ، وتحمل بريطانيا وفرنسا ما قد يحدث نتيجة الاساءة والعدوان. وتلجأ الدول الى الضغط الاقتصادى والسياسى على مصر والى التهديدات باستخدام القوة. فتجمد بريطانيا وفرنسا وأمريكا أموالنا لديها لعرقلة اقتصادنا . وتصدر الدول الثلاث ، بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، بيانا (٢ أغسطس سنة ١٩٥٦) بعد اجتماع وزراء خارجيتهم فى لندن يعارضون فيه قرار التأميم بحجة الصفة الدولية للقناة . ويقترح البيان عقد مؤتمر دولى من الدول

---

(١) انظر مقال الدكتور مصطفى الحفناوى عن مؤامرة التدويل — قناة السويس ،حقائق ووثائق — ص ١٨٩ .

الموقعة على معاهدة الآستانة والدول الأخرى التى لها مصلحة حيوية فى استخدام القناة ، ويتحدد يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٦ لعقد هذا المؤتمر فى لندن.

وتبعت هذا البيان مظاهرات حربية واقتصادية للضغط على مصر . فتقرر الحكومة الانجليزية دعوة جزء من احتياطى الجيش وتتحرك بعض الوحدات من بريطانيا، ويبدو النشاط فى الأسطول الفرنسى . ويعزون هذه الاجراءات إلى قرار تأميم القناة التى - كما يقولون - تتوقف عليها الحياة الصناعية لاوروبا الغربية . وفى بيانه يوم ٨ أغسطس ١٩٥٦ بين سير أنتونى ايدن ،رئيس حكومة بريطانيا ، رأى الحكومة البريطانية وموقفها إزاء تأميم مصر للقناة ويبرر الاجراءات التى اتخذتها بريطانيا بهذا الخصوص .فيحمل حملة شديدة على الرئيس المصرى ويقول أن تأميم القناة قد أوجد حالة خطيرة وأن وضع القناة تحت إشراف دولى مسألة حياة أو موت بالنسبة لبريطانيا . وهو فى ذلك البيان ينسب لبريطانيا وللدول حقوقا ليست لها . فيشير إلى أن الرئيس المصرى قد أمم شركة القناة دون مشاورات سابقة مع الدول ودون رضاها . وهو يفرض وصايته على مصالح الدول ويبدو أكثر فهما لمصالح مصر أكثر من أهلها !! فيقول أنه صحيح أن القناة تجرى فى أرض مصر ولكنها ليست حيوية لها كما هى حيوية لغيرها من دول العالم . كذلك يردد إيدن فى ذلك البيان نغمة التدويل ويقول « ولو أننا جميعا اشتركنا فى إنشاء نظام دولى للقناة وانفقنا إيراداتها على تحسينها فإن ذلك يمكن أن يعود بالرفاهية على الشرق والغرب ... وعلى الدول التى تنتج البترول وتلك التى تشتريه » (١)

ولكن مصر لا تأبه للتهديد وترد عليه بالاستعداد لمجابهته . ويصدر

(١) انظر : د. صفوت - مصر وقناة السويس - ص ٢٢٧

قرار جمهـــورى (٩ أغسطس سنة ١٩٥٦) بانشاء جيش التحرير الوطنى وقبول المتطوعين من سن ١٨ إلى ٥٠ . ويأخذ المواطنون فى التدريب على القتال وتمدهم الحكومة ـ فى كل الجمهورية ـ بالسلاح . من ناحية أخرى تفند مصر الحجج الواهية التى يستند اليها هذا البيان الثلاثى.وتؤكد حقها فى التأميم الذى هو من صميم السيادة المصرية.فشركة القناة شركة مصرية وتخضع للقوانين المصرية رغم أن أسهمها كانت فى يد الأجانب ورغم أن مجلسى إدارتهـا كان يتكون فى معظمه من الأجانب . وهى شركة لم تقم قط على إتفاق بين دولتين ، بل كانت إمتيازا لفردناند ديلسبس ليؤسس الشركة (فرمان الإمتياز الأول فى ٣٠ نوفمبر عام ١٨٥٤) ، وإمتيازا آخر له يحوى شروط إنشاء وإستغلال القناة (فرمان الإمتياز الثانى فى ٥ ينـاير ١٨٥٦) . وليس هناك أى إتفاق أو أية معاهده خاصة بالشركة ذاتها ، ولـكن الاتفاقيات والإجتماعات الدولية التى مست القناة تناولت أمر حرية الملاحة بهـا فحسب . فالحكومة المصرية بتأميمها للقناة إذن إنما تمارس حقاً طبيعياً لها .

وترفض الحكومـة المصرية تدويل القنـاة كما تستنكر المؤامرة الدولية التى تهـدف إلى اجاعـة الشعب المصرى زارهابه . كذلك ترفض مصر فكرة عقد مؤتمر لندن وترفض هذه الدعوة . ولـكنها تدعو إلى عقد مؤتمر عالمى من الدول الموقعـة على معاهدة الاستانة (١٨٨٨) الخاصة بقناة السويس وكذلك الدول التى تمر سفنها بقناة السويس وذلك لوضع إتفاق يؤكد ويضمن حرية الملاحة فى القنـاة . وكان اقتراح مصر هـذا نصراً سياسيا : إذ لاقى قبولا فى المحيط الدولى وأظهر للعالم نيات مصر الحسنة .

ولـكن الدول الغربية تعقد مؤتمر لندن (١٦ أغسطس ـ ٤ أكتوبر سنة

١٩٥٦) . وذلك للنظر فى شأن من شئون مصر الداخلية دون استشارة مصر فى عقده أو موافقتها على الإشتراك فيه. واجتمع فى المؤتمر مندوبو اثنتين وعشرين دولة دعيت على هوى الدول الداعية، ويمثلون فى جملتهم دول حلف الأطلنطى ودول الكومونولث البريطانى ودول الشرق الموالية لبريطانيا وفرنسا وأمريكا أو الدول التى تخضع لاتجاهات هذه المجموعة. وقدم المؤتمر عدة اقتراحات ولكن مصر رفضتها . فمصر لم تكن تقبل هيئة دولية لإدارة القناة أو أى إشراف دولى على إدارتها ، وكان المشروع الامريكى يرمى إلى تدويل إدارة القناة . ومع ذلك وجدت دول فى ذلك المؤتمر مثل الهند والروسيا اللتين دافعتا عن حق مصر فى سيادتها على القناة ورفض فكرة الإشراف الدولى وإقامة هيئة دولية رغم إرادة مصر لإدارة ممتلكات مصرية . ولكن أغلبية أعضاء المؤتمر وافقت على المشروع الأمريكى وأنهى المؤتمر جلساته فى ٢٣ أغسطس .

وفى خلال فترة انعقاد المؤتمر تحاول الدول الاستعمارية بكل الطرق ارغام مصر على الخضوع لوجهة نظرها . وتدبر مؤامرة انسحاب المرشدين الأجانب من القناة (١٤ سبتمبر) وذلك كخطوة أولى لعرقلة الملاحة فى القناة واضعاف مركز مصر واحراجها بالتالى ، واظهارهـــا أمام العالم بمظهر العاجز عن إدارة القناة . ولكن مصر أحبطت هذه المؤامرة واستمرت الملاحة منتظمة فى القناة . وتلجأ بريطانيا وفرنسا إلى عرض أمر القناة على مجلس الأمن (سبتمبر سنة ١٩٥٦) . وفى نفس الوقت ، تنشط كل منهما فى الاستعدادات الحربية للعدوان على مصر . وتتدفق الحشود العسكرية على قبرص وتتوالى اتصالات فرنسا باسرائيل ، وتتحدث بريطانيا وفرنسا عن إنشاء قيادة عليا مشتركة ضد مصر ، وتهددان بالحرب إذا لم تقبل مصر الإشراف الدولى على القناة . وفى مجلس الأمن تطلب

كل من انجلترا وفرنسا بحث الموقف الذى ترتب على انهاء إدارة الشركة العالمية للقناة . وكان الواضح أن هـــدف الدولتين هو صرف الإنظار عن إستعداداتهما العسكرية للعدوان على مصر وتبرير موقفهما أمام شعوبهما وأمام العالم ، وذلك بعد ما بدأ من قلق هذه الشعوب التى كانت تميل إلى إنهاء المشكلة بالطرق السلمية .

ولم تكن هذه المناورات بخافية على مصر . وتبدو مصر أمام العالم بموقف المدافع عن حقوقه والراغب فى السلم . وهى تطلب بدورها دعوة مجلس الأمن إلى الإجتماع للنظر فى التدابير العسكرية التى تتخذها كل من بريطانيا وفرنسا والتى من شأنها تهديد الأمن والسلام العالميين . ويجتمع مجلس الأمن (٥ أكتوبر سنة ١٩٥٦) ، فى اليوم التالى لإ نفضاض جلسات مؤتمر لندن الفاشل ، بعد أن أخفق فى تهديد مصر والضغط عليها . وبعد عدة جلسات يصل مجلس الأمن إلى ست نقاط يجعلها أساسا للوصول إلى حل سلمى للمشكلة . ويرى أن تدور مفاوضات بشأنها مباشرة بين بريطانيا وفرنسا ومصر . وهى نقاط تتناول مسألة حرية العبور فى القناة وإحترام سيادة مصر وعزل ادارة القناة عن سياسة أية دولة والرسوم بالقناة وتحسين القناة ثم حل الشئون المعلقة بين شركة القناة السابقة وبين الحكومة المصرية عن طريق هيئة للتحكيم . وكان ذلك القرار فى صالح مصر إلى حد كبير . وتحدد يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ موعداً لهـــذه المفاوضات ، ووافقت مصر على ذلك فوراً . أما بريطانيا وفرنسا فقد تلكأتا فى الرد لأنهما كانتا قد دبرتا أمر العدوان المسلح على مصر .

العدوان على مصر ونتائجه

وفى اليوم المحدد لإجراء هذه المفاوضات تشن إسرائيل عدوانها على مصر.

باتفاق سابق مع بريطانيا وفرنسا . بدأ العدوان الصهيونى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ . وأخذت القوات المصرية تتحرك شرقا، وأسفرت المعارك الأولى عن تفوق القوات المصرية وسيطرتها على الموقف لاسيما فى المجال الجوى ، رغم عنصر الغدر والمباغتة . ومـــع أن بريطانيا أعلنت يوم بدء الهجوم أنها ان تستغل هذه الفرصة للتدخل فانها توجه فى اليوم التالى ـ بالاشتراك مع فرنسا ـ إنذاراً إلى كل من مصر وإسرائيل بوقف الأعمال الحربية وسحب القوات العسكرية إلى مسافة عشرة أميال من قناة السويس ، وأن تقبل مصر إحتلال القوات الفرنسية والبريطانية لبورسعيد والاسماعيلية والسويس. وهددت الدولتان بالتدخل لضمان اجابة هذا المطلب . وبذا تتكشف المؤامرة بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وتدبيرهم لأمر ذلك العدوان .

ولكن مصر رفضت ذلك الإنذار وإعتبرته إعتداء على حقوقها وكرامتها وخرقا لميثاق هيئة الأمم المتحدة . كذلك تطلب مصر عقد مجلس الأمن للنظر فى أمر هذا العدوان وإعـــلان التعبئة العامة وقطع علاقاتها السياسية مع كل من بريطانيا وفرنسا .

وهكذا يتضح أن هذه المؤامرة الثلاثية كانت تفتقر إلى كل قيم خلقية وسياسية وحتى إلى تقرير سليم للأمور وحكم صائب على الأحداث ونتائجها . وهى مؤامرة كانت تعتمد أولا وقبل كل شيء على القوة الغاشمة وعلى عنصر الغدر والمباغتة ومجابهة العالم بالأمر الواقع ، بعد احتلال البلاد بسهولة . فقد توقعوا الفرقة والإنقسام فى الداخل وكذلك الهرج والمرج اثر تقديم الإنذار ونزول القوات الانجليزية والفرنسية إلى البلاد . ولكنهم أخطأوا التقدير، ووقفت مصر كتلة واحدة وراء ثورتها ، وأعلنت أنها سوف تقاتل ولن تسلم ، وصمدت أمام

العدوان ببسالة استحقت اعجاب العالم بموقفها وعطفه على قضيتها. وهكذا تنتصر مصر فى النهاية ويتحطم حلم بريطانيا فى استعادة سيطرتهـــا على الشرق العربى. ويتحطم حلم فرنسا فى القضاء على الثورة الجزائرية عن طريق القضاء على أكبر حركات التحرير فى الشرق العربى ،وتتحطم أحلام الاستعمار عامة فى القضـاء على القومية العربية .

وتضع الثورة خطة لاحباط مؤامرة الدول الثلاث بعدأن تكشفت خطتهم. وتقرر الانسحـاب السريع للجيش المصرى من منطقة سيناء إلى منطقـة القناة للدفاع عنها. وتم الانسحاب فى يومين بخسائر تعد طفيفة إذا قيست بما قد يحدث فى حالة التطويق والحصار . وبذلك أنقــــذ الجيش المصرى من خطر التطويق وأنقذت مصر من خطر سحقها وإحتلالها لقمة سائغة . وحينما أخـذت القوات الجوية البريطانية والفرنسية تضرب القاهرة والإسكندرية ومدن القناة بالقنابل لجأ المصريون إلى سد مداخل القناة للدفاع عنها . وكان ذلك العمل بمثابة ضربة محكمة قاصمة للعدو . وبذلك لم يتكرر الخطأ الذى وقع فيه عرابى من قبل حين استمع إلى ديلسبس ورفض سد القناة .

وفى هــــذه الأثناء يظهر الشعب فى مصر من الروح العالية والوطنية الحقة والايمـان بالله وعدالة قضيته والاستبسال فى الدفاع والتكتل والإلتفاف حول رئيسه ما أثار أعجاب العـالم وما جعله جديرا بهذه الحرية التى ناضل من أجلها حتى حصل عليها ثم ناضل ثانية ليحافظ عليها . ولا تزال مدينة بور سعيد إلى اليوم أسطورة فى تاريخ الكفاح ولا تزال أسماء شهداء ذلك العدوان حية عالقة فى الأذهان تحكى قصة الغدر وقصص البطولة والبسالة .

وظلت الطائرات تضرب بور سعيد من يوم ٣١ أكتوبر حتى ٥ نوفمبر .

وفى ذلك اليوم بدأت القوات الفرنسية والانجليزية الجـــوية فى النزول إلى بور سعيد . كذلك بدأت القوات البحرية فى النزول بعد ضرب المدينة بمدافع الأسطولين البريطانى والفرنسى . وتستسلم بور سعيد بعد مقاومة عنيفة وقتال عنيد فى الشوارع والمنازل . واستمد المصريون لصد الزحف جنوبى بور سعيد.

وفى تلك الظروف توجـــه الروسيا انذارها بلسان رئيس وزرائها إلى بريطانيا وفرنسا (٥ نوفمبر) وفيه تعلن عن تصميمها على استخدام القوة للقضاء على عدوانهما ، وتذكرهما بأن الروسيا أقوى منهما كثيراً ، وتهددهما بالضرب بالصواريخ الموجهة . وكان ذلك الانذار بمثابة هزيمة سياسية لبريطانيا وفرنسا لا تقل فى أهميتها عن أكبر هزائمها الحربية فى التاريخ . ويجىء ذلك الانذار عقب القرار شبه الاجماعى من الجمعية العامة للامم المتحدة يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٦ (٦٤ دولة من ٧٦) بوقف اطلاق النـــار وانسحاب القوات الأجنبية من الاراضى المصرية . والروسيا بذلك إنما تمضى فى سياستها الجديدة فى الشرق الأوسط القائمة على أساس مد يد الصداقة للعرب . فقد ساء الروسيا أن ترى هذه السلسله من المنظمات والمحالفات السياسية والحربية والاقتصادية التى أقامتها دول الغرب كمحالفة شمال الاطلنطى (أبريل ١٩٤٩) ، وحلف جنوب شرق آسيا (سبتمبر ١٩٥٤) ، وحلف بغداد (فبراير ١٩٥٥). ولذلك تؤيد الروسيا كل الدول التى رفضت الدخول فى مثل هـــذه الاحلاف . والعرب إلى جانب ذلك يملكون منابع غنية للبترول، وهو بترول تعتمد عليه دول الغرب فى السلم وفى الاستعداد للحرب . ولذلك فقد وجدت الروسيا فى سياسة مصر ، التى تحتل مكانا هاما بين العرب ، ما يخدم خططها إزاء الغرب . وهى لذلك ومنذ اللحظة الأولى فى أزمة السويس ، تؤيد مصر فى موقفها .

نلاحظ أن المقاومة المصرية للعدوان كانت مستمرة باستماتة قبل قرار هيئة

الأمم والانذار الروسى وبعدهما . وازاء هذه المقاومة العنيدة الباسلة من الجانب المصرى وإزاء الرأى العام العالمى المتمثل فى قرار هيئة الأمم المتحدة والانذار الروسى تستجيب الدول المعتدية لقرار هيئة الأمم وتقرر وقف القتال صباح الاربعاء ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

وخلال هذه الازمة كانت الشعوب العربية تعلم أن نكسه الثورة المصرية على يد المطامع الاستعمارية إنما هو انتكاس لقضية الشعب العربى فى كل مكان . فكان للعدوان على مصر أثر عميق فى نفوس الشعوب العربية ، التى هبت كلها غاضبة تؤازر الشعب العربى فى مصر بكل ما يمكن أن تقدمه . ذلك التضامن العربى فى هـــذه المحنة كان فى الواقع مظهرا رائعا من مظاهر الشعور بالقومية . فالشعوب العربية تضرب احتجاجا وتضامنا مع مصر يوم أفتتح مؤتمر لندن (١٦ أغسطس). وخلال العدوان تنسف أو تعطل أنابيب البترول فى سوريا والعراق والسعودية وقطر والاردن . وفى سوريا تعلن الحكومة عزمها على الاشتراك بجيشها فى القتال ولكن مصر ترفض ذلك شاكرة حتى لايتسع نطاق القتال مما زاد من عطف العالم على مصر . وفى ليبيا ترفض الحكومة أن تتخذ بريطانيا من البلاد قاعدة حربية للهجوم على مصر . وتقوم المظاهرات العدائية هناك ضد بريطانيا كما تقوم أيضا فى أمارات الخليج العربى . كذلك تبادر البلاد العربية إلى أيواء الطائرات المصرية لتنجو من تدمير جحافل الأساطيل الجوية المعتدين فى إغاراتها على المطارات المصرية .

ورغم تسليم الدول المعتدية بقرار هيئة الأمم المتحدة فهى تظهر التباطؤ وتتلكأ فى الانسحاب أول الأمر ، ولكن الظروف تضطرهم إلى تنفيذ القرار والانسحاب . فالقوات المحتلة فى مدينة بور سعيد تلاقى الأمرين من المقاومة الشعبية المنظمة ومن هجمات الفدائيين ، والملاحـــة كانت معطلة فى قناة السويس ومصر ترفض البدء فى تطهير القناة وإعدادها للملاحة قبل انسحاب آخر جندى

من المعتدين . وتعطيل الملاحة فى القناة ونسف أو تعطيل أنابيب البترول فى البلاد العربيه قد أصاب الدول المعتدية وأوروبا الغربية عامة بأضرار بالغة . فتناقص البترول العربى ومرور ناقلات البترول حول أفريقيا أدى الى ارتفاع أسعار البترول . وهذا هدد غرب أوروبا بأزمة اقتصادية وأعلن وزير المالية البريطانى فى أوائل ديسمبر سنة ١٩٥٦ أن بلاده تواجه كارثة اقتصادية . هذا علاوة على أن الحملة قد كلفت الدول المتعدية كثيرا . وهكذا يتم انسحاب الجيوش المعتدية من منطقة القناة يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ كما يتم انسحاب القوات الصهيونية نهائيا فى مارس ١٩٥٧ . ويعاد افتتاح قناة السويس للملاحة رسميا فى ١٠ أبريل ١٩٥٧ وذلك بالنسبة للسفن التى تدفع الرسوم للهيئة المصرية لادارة القناة .

واعتداء بريطانيا على الأراضى المصرية كان بمثابة الغاء لاتفاقها الأخير مع مصر . فالحرب عادة تقطع جميع العلاقات بين الدول المتحاربة وتلغى الاتفاقات السياسية بينها . وذلك فضلا عن أنه لم يكن من المعقول أن تعود بريطانيا إلى استخدام قاعدة القناة بعد ذلك العدوان . لذلك تلغى مصر (أول يناير ١٩٥٧) اتفاق ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ الخاص بالجلاء وكل ماجاء حوله . وبذلك تؤكد مصر استقلالها وتضيف الثورة الى قائمة انتصاراتها نصر آخر . لاسيما وأنه قد صار لمصر ، بمقتضى هذا القرار ، الحق فى مصادرة كل ما كان موجودا بالقاعدة البريطانية من معدات ومنشآت ومخازن ومصانع تملكها انجلترا وتتوالى الازمات على الدول المعتدية والحكومات التى دبرت العدوان . ويتخلى إيدن عن الحكم (٩ يناير ١٩٥٧) وتسقط وزارة جى موليه (٢١ مايو ١٩٥٧) .

بعد العدوان الثلاثى ــ الثورة فى المجال الدولى (١)

الدائرة الافريقيـــة

مصر وافريقيا

لاشك أن مصر قد استفادت كثيراً من تجربة العدوان عام ١٩٥٦ . فمصر خرجت من تلك المعركة منتصرة واكتسبت تجارب كان لها شأن كبير فى مستقبلنا . فهذه التجربة أبانت لنا سياسة الحياد . وفى خلال المحنة ، استطعنا أن ننال تأييد دول الكتلتين الشرقية والغربية معاً . وارتفع مركز مصر فى المجال الدولى بعد ما نالت إعجاب العالم فى غمار الأزمة ، ثم بعد مابدا منها من رغبة محققة فى حفظ السلام فى العالم . فكان من الطبيعى أن تزيدنا هـذه التجربة تمسكا بسياسة الحيـــاد .

وفى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى بور سعيد (ديسمبر ١٩٥٧) يحدد الرئيس الأسس التى تبنى عليها مصر سياستهـا العالمية . وأولى تلك الأسس هى العمل من أجل السلام . ذلك يتطلب نبذ كل من الأحلاف والكتل العسكرية واتباع سياسة عدم الانحياز. وأبان أننا ضد الحرب ومع السلام ولهذا فنحن ضد الأحلاف العسكرية لأن ذلك معناه الحرب أو الاستعداد لها . فسياسة الحيـاد الإيجابى إذن وعدم الإنحياز إنما قامت تأكيداً لسياسة العمل من أجل السلام . لأن العالم إذا إنقسم إلى معسكرين وأصبحت دول العالم منقسمة . . . . جزء منها مع هذا المعسكر وجزء منها مع المعسكر الآخر فلابد أن تقوم حرب . . . (١)

ولكن هذه السياسة لاتعنى أن نبقى بمعزل من أحداث العـالم . فهى سياسة

---

(١) مصلحة الاستعلامات ــ الكتاب السنوى (١٩٦٣) ــ ص ٤٥

تهدف أيضاً إلى تحقيق مبادىء إيجابية فى حياة الشعوب الآسيوية الأفريقية ، تهدف إلى تأييد حق الشعوب فى تقرير مصيرها ومساندة الشعوب لنيل إستقلالها والعمل على إنهاء سياسة القوة . فمصر إذا كانت تهتم بالمشاكل العالمية عامة من أجل السلام ، وإذا كانت سياستنا الخارجية حين تعمل من أجل السلام إنما تتخذ لنفسها ما يحقق المشاركة الايجابية الفعالة فى الميدان الدولى كالعمل على تحريم الأسلحة الذرية ونزع السلاح ، فان مصر تهتم أيضا وبوجه خاص بالمشاكل الأفريقية الآسيوية . ويؤكد الرئيس جمال عبد الناصر ذلك حين يقول (يناير ١٩٦١) : « كنا نرى مشاكل أفريقيا هى جزء من قضية السلام العالمى ، ومن ثم فان تعاوننا أخذا وعطاء مع بقية الشعوب ، وشعوب آسيا فى الطليعة منها والمقدمة ، أمر حيوى لدفع الكفاح الأفريقى إلى أهدافه »

ولا شك أن إنتصار مصر فى معركة السويس كان نصرا لمعركة الحرية فى وكل مكان ، وفى أفريقيا بوجه خاص . وهذا النصر ، كما يقول الرئيس ، قد أعطى بلا شك إشارة الأمل إلى عديد من شعوب القارة المناضلة . فهذا الانتصار ، بالاضافة إلى ما سبقه من إنتصارات الثورة فى ميدان مكافحة الاستعمار ، قد قوى من عزائم شعوب أفريقيا المتطلعة إلى التحرر والتقدم . ومنذ قامت ثورة ٢٣ يوليو وقد أخذت موازين القوى فى المنطقة تتغير . فمصر عملت على تحرير السودان وتم ذلك بمقتضى إتفاقية فبراير سنة ١٩٥٣ . ونادت الثورة بالحرية الكاملة للسودانيين فى تقرير مصيرهم فقطعت بذلك السبيل على الانجليز لاتخاذ موقف المدافع عن مصالح السودان . وظهر واضحا أن مصر تؤمن وتعمل على وحدة معركة الشعوب الأفريقية . فتقوى الآمال ، وتشتد الثورة التى كان قد أشعلها التونسيون فى أوائل عام ١٩٥٢ وتعلن الثورة فى مراكش عام ١٩٥٣ وتنفجر الثورة فى الجزائر عام ١٩٥٤ ويسرى التيار الثورى فى كل أنحاء

أفريقيا ، وتتحرر شعوبه إلا النذر اليسير منها . فنى نهاية الحرب العالمية الثانية لم تكن توجد غير ثلاث فقط من الدول الأفريقية المستقلةوهى مصر وليبيريا وأثيوبيا تضاف اليها دولة إتحاد جنوب أفريقيا . وهذه وإن كانت توجد فى أفريقيا إلاأنها لا تعد فى الواقع دولة أفريقية .وفى نهاية عام ١٩٦٠ لم يكن قد بقى دون استقلال أو دون سير فى الطريق نحو الحكم الذاتى غير المستعمرات البرتغالية فى غينيا وأنجولا وموزمبيق ، والممتلكات الأسبانية الصغيرة ، والمحميات البريطانية فى جنوب أفريقيا .

وتتكون منظمة الوحدة الأفريقية (مايو ١٩٦٣) من ٣٢ دولة أفريقية. وفى نفس العام تستقل كل من زنجبار وكينيا ويصيران بعدئذ الدولتين ١١٢ ، ١١٣ فى الأمم المتحدة . وفى العام التالى (١٩٦٤) تستقل كل من (نياسالاند) ـ وتسمى مالاوى و(روديسيا الشمالية) وتسمى جمهورية زامبيا . ومن المحتمل ـ فى غضون بضعة سنوات ـ أن تكون القارة التى يربو عدد سكانها على مائتى مليون نسمة قد تخلصت كلها من آخر سيطرة سياسية أجنبية وأن يتولى شئونها أبناؤها الأفريقيون (١) .

والثورة تهتم بأفريقيا من بادىء الأمر . ونحن باهتمامنا بأفريقيا إنما نفعل ما يمليه علينا موقفنا وصلاتنا التاريخيةومصالحنا مع أجزاء القارة المختلفة . وفى ذلك يقول الرئيس جمال عبد الناصر فى فلسفة الثورة « فاذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية وهى دائرة القارة الأفريقية ، قلت دون إستفاضة ودون إسهاب : إننا لن نستطيع بحال من الأحوال — حتى لو أردنا — أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من

---

(١) جيمس دى وروبرت مانزو ، أفريقيا تتكلم ، ترجمة عبد الرحمن صالح ص ٧٠

البيض ومائتى مليون من الافريقيين ... لانستطيع لسبب هام وبديهى هو أننا فى إفريقيا ... ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى القارة والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله ... ولن نستطيع بحال من الاحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء . ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد مياهه من قلب القارة ... ويبقى أيضا أن السودان - الشقيق الحبيب - تمتد حدوده إلى أعماق افريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها ... والمؤكد أن افريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوروبية يحاول الآن اعادة تقسيم خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى افريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا « يعنينا » (١)

والدور الذى يمكن أن تقوم به مصر الى جوار دور الامم المتحدة فى مجال العمل على إنماء الدول الافريقية لم يعد ينكره أحد (٢) وصار أمرا يعمل له حساب فى المجال الدولى . فالتنمية فى افريقية قد حدثت بسبب دخول رأس المال والخبرات الفنية والادارية التى أتت بأكملها غالبا من أوروبا (باستثناء ليبيريا التى اعتمدت على الولايات المتحدة) . والجزء الاكبر من التنمية حدث عقب الحرب العالمية الاخيرة . وعلى ذلك فحركة التنمية الاخيرة هذه يمكن أن تكون المرحلة الاخيرة للحكم الاستعمارى فى افريقيا على اعتبار أن الوصاية والمساعدة والاشراف والتعاون ما هى الا صور متعددة للاستعمار . وكان من المسلم به أن ذلك الوضع

---

(١) فلسفة الثورة ص ٧١ - ٧٢

(٢) انظر : ليجيل هيزاتين : البعث الجديد لافريقيا ترجمة رياض عبد المجيد - ص ١٠١

لن يستمر بافريقيا ، وأنه على الزعماء الافريقيين أن يقرروا شكل المساعدة التى ينبغى الحصول عليها بعد انتهاء الاستعمار . من هنا يجىء أهمية الدور الذى يمكن ـ والذى يجب ـ أن تقوم به مصر فى ذلك المضمار .

فالقارة الافريقية لا تزال ينقصها وضع التخطيط للتنمية . وما زالت القارة تنتظر أن يدرسها أبناؤها دراسة اقليمية شاملة . وهناك نقص شديد فى المعلومات عن القارة ، الامر الحيوى واللازم قبل البدء فى العمل فى تنمية البلدان الافريقية ، وهذا مجال واسع للمساعدات من مصر . فالجامعات المصرية ومراكز البحوث المصرية يمكن أن تقوم باستكمال الدراسات التى تقوم فى مختلف المجالات العلمية فى افريقيا . وهناك أيضا نقص فى عدد الرجال المدربين . وهذا نتيجة طبيعية لحصول بلدان افريقيا على الاستقلال وارتحال عدد كبير من الموظفين والفنيين والاداريين الاجانب بالتالى . ومن الممكن ان تقدم مصر الكثير فى هذا المجال أيضا كما فى مجالات التعليم والتقدم الصناعى والتجارى والاجتماعى ومختلف المجالات .

ومن أبرز مظاهر اهتمام مصر بافريقية بعد الثورة انشاء ادارة للشئون الافريقية فى وزارة الخارجية المصرية . وتسهم الصحافة المصرية والاذاعة المصرية بنصيب كبير فى مضمار مؤازرة حركات التحرر الافريقية . وتصدر بالقاهرة مجلة خاصة بالشئون الافريقية هى مجلة « نهضة افريقية » وتهدف الى تنمية الوعى القومى الافريقى ونشر البحوث التى تهم كل افريقى فى مجاله الحيوى . وتحرص هذه المجلة على ملاحقة الاحداث التى تمر بالقارة الافريقية ، بحيث أصبح من الممكن لقارىء هذه المجلة أن يستوعب تماما مشكلات القارة ومستقبلها . وكذلك تتأسس فى القاهرة (١٩٥٧) رابطة تسمى رابطة أفريقيا لزيادة الروابط والتعاون بين المصريين ومواطنى الاقاليم الافريقية بمختلف الوسائل وجمع الجهود المهتمة بالشئون الافريقية فى مختلف الميادين (١) .

(١) انظر : د. على ابراهيم عبده ـ مصر وافريقية فى العصر الحديث ـ ١٩٦٢ ـ ص ٢٤٧

مصر والصومال :

وفى الصومال ، كان لمصر ـ بفضل ممثلها فى المجلس الإستشارى المرحوم ـ كمال الدين صلاح ـ دور بارز فى الأحداث التى أدت الى استقلال البلاد . فالامم المتحدة كانت قد قررت (١٩٥٠) أن يوضع الصومال تحت الوصاية الدولية وأن تكون ايطاليا السلطة القائمة بالادارة حتى حصول الصومال على الاستقلال وذلك بعد عشر سنوات من موافقة الجمعية العامة على اتفاقية الوصاية . وفى نفس الوقت يساعد ايطاليا فى الادارة ويقدم لها النصيحة مجلس استشارى يتكون من ممثلين لكولومبيا ومصر والفلبين .

وقد عمل كمال الدين صلاح فترة تمثيله لمصر فى ذلك المجلس (ابريل ١٩٥٤ — ابريل ١٩٥٧) على الاسراع بانهاء الوصاية حتى تضمن الصومال استقلالها فى اقرب وقت . وكان له دور بارز فى احباط المناورات التى تقوم بها بعض الدول ذات المصلحة فى وضع العقبات فى سبيل تطور الصومال ونموه واستقلاله . وكان حريصا على أن يستعيد الصومال شخصيته الافريقية والعربية وذلك بتقوية الروابط بينه وبين مصر وسائر البلاد الافريقية . فتوفد مصر المدرسين المصريين ورجال الدين للعمل هناك والتدريس فى المدارس القائمة أو التى أنشأتها مصر على نفقتها . كذلك يعمل كمال الدين صلاح على التوحيد بين الاحزاب الصومالية حتى تتعاون بقصد تقصير أمد الوصاية كما يعمل على أن يسترد الصومال المناطق السليبة منه . ذلك النشاط فى خدمة الشعب الصومالى قد جلب على المندوب المصرى حقد وعداء العاملين على عدم تقدم الصومال . وانتهى الامر باغتياله (١٦ ابريل ١٩٥٧) . على أية حال يشهد عام ١٩٦٠ قيام جمهورية الصومال ، دولة مستقلة ذات سيادة وتتكون من اقليمى الصومال اللذين كانا تحت الحكم الايطالى والبريطانى . (١)

---

(١) انظر : د. راشد البراوى : الصومال الكبير ص ٨٦ ـ ٨٧ وأيضا : د. على ابراهيم عبده : مصر وأفريقية فى العصر الحديث ص ١٢٢ ـ ١٣٠

مصر والشعوب الافريقية

ومصر لم تتوان عن الاسهام باخلاص فى العمل من أجل رفاهية الشعوب الافريقيـــة والدفاع عن قضاياها، ودعوتها إلى التضامن وتنسيق الجهود فى ذلك السبيل . وتعقد المؤتمرات الافريقية المتتابعة لهذه الاهداف . وتسهم القاهرة بنصيب وافر فى ذلك المجال وتصير بمثابة قلب افريقيا النابض ورمز الحرية فى القارة والشعلة التى تضىء لها معالم الطريق . وهى فى ذلك تنفذ بعزم قرارات مؤتمر باندونج وتطبق الروح التى ســـادته . كذلك تبدى الشعوب الاسيوية والافريقية حرصها على العمل بما جاء بقرارات هذا المؤتمر وتوصياته ، وتستمر روح التعاون تسود علاقات هذه الشعوب . ونتيجة لهـذا التعاون يعقد مؤتمر الشعوب الافريقية الآسيوية بالقاهرة (٢٦ ديسمبر ١٩٥٧ - أول يناير ١٩٥٨) وقد انعقد هذا المؤتمر فى القاهرة بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعتها وحضره ٥٣٧ مندوبا يمثلون ٤٨ شعبا ، تؤلف فى مجموعها حوالى ٧٠ ٪ من سكان العالم.

وكان ذلك المؤتمر شعبياً أكثر منه رسميا . فهو ، بعكس باندونج ، يمثل الشعوب لا الحكومات . واشتركت فيه الشعوب المستقلة جنبـاً الى جنب الشعوب التى كانت لا تزال تكافح فى سبيل استقلالها . واهتم ذلك المؤتمر بصفة خاصة بالنواحى الاقتصادية والاجتماعية للقارتين . وألف لجـانا لبحث مختلف الأمور التى تهم هذه الشعوب . ثم أصدر بعدئذ قراراته وتوصياته، وهى سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية . وإذا تناولنـا قراراته السياسية نجدها تؤكد مبادىء باندونج العشرة . وهى تطالب بتوجيه الجهود العلمية الذرية الى الاغراض السلمية وتطالب بانهاء الوصاية على المستعمرات . وهى تستنكر الاستعمار فى كل صوره ومظاهره والاحلاف العسكرية ووجود القواعد العسكرية الأجنبية على

أرض الدول الأخرى ، وكل ما من شأنه تهديد السلام العالمى وتهديد أمن وسلام ومصالح الشعوب الضعيفة .

وفيما يختص بالقضايا العربية ، يقرر المؤتمر أن خليج العقبة خليج عربى مقفل ضمن المياه الاقليمية للدول العربية . ويناقش قضية فلسطين ويصدر بشأنها قرارات خاصة . ويعلن المؤتمر أن دولة إسرائيل قاعدة استعمارية تهدد تقدم الشرق الأوسط وسلامته كما يؤكد حقوق العرب فى فلسطين . كذلك يستنكر المؤتمر الحرب الإستعمارية الفرنسية فى الجزائر ويصر على الاعتراف باستقلال الجزائر فورا ويصدر قرارا خاصا بحق الجزائر الشرعى فى الاستقلال والسيادة القومية . ويؤيد المؤتمر حق الشعب العربى فى الخليج العربى وفى البحرين العربية فى الاستقلال ويطالب بوقف الاعتداء على عمان وسحب الجيوش الأجنبية من منطقة الخليج العربى . وفى اليمن يؤيد المؤتمر نضال الشعب اليمنى ومطالبه فى الشمال والجنوب فى عدن وفى المحميات ، فى سبيل تحرير الجنوب ووحدته مع الشمال ، ويطلب سحب القوات الأجنبية من المنطقة . ويؤيد المؤتمر طلب المغرب لاسترجاع جميع المناطق التى لا يزال الاستعمار يسيطر عليها تحقيقا لوحدة المغرب واستقلاله التام . (١)

وفى القاهرة ينعقد كذلك المؤتمر الثالث للشعوب الافريقية (مارس ١٩٦١) . ويشترك فى ذلك المؤتمر عدد كبير من ممثلى الحركات الوطنية والمنظمات الشعبية فى أفريقيا رغم ما وضعته السلطات الاستعمارية من عراقيل لمنعهم من الاشتراك فى المؤتمر . وهذا يدل على مبلغ الوعى واليقظة الذى بلغته شعوب افريقيا بفضل نشاط المنظمات الافريقية وحكومات وشعوب الدول المستقلة فى القارة .

---

(١) انظر نص قرارات المؤتمر فى الثورة العربية الكبرى لعبد المنعم شميس ص ٤٤٧ ـ ٤٨٣ .

وقد جاءت القرارات التى أصدرها هذا المؤتمر معبرة تعبيرا حقيقيا عن أمانى الشعوب الافريقية فى التخلص من كل أشكال النفوذ الاستعمارى ، وفى التحرر والاستقلال ، وقيام تعاون مثمر بينهم جميعا من أجل رفاهية أفريقيا وخير البشر فى العالم . فهى تعلن ضرورة تضامن الحركة التحررية الافريقية مع جميع حركات الحرية والتحرر فى العالم كله . وتتناول القرارات قضايا الشعوب الافريقية وترحب بالافكار العملية لتحرير شعوب افريقيا ، مثل انشاء صندوق لتحرير القارة ومساهمة الدول المستقلة فيه . وتحذر لجنة الاستعمار بالمؤتمر من الاستعمار الجديد بالقارة . وهو نوع غير مباشر من السيطرة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو العسكرية أو الفنية . وهو استمرار للنظام الاستعمارى بالرغم من الاعتراف رسميا بالاستقلال السياسى فى البلاد الناشئة . وتعتبر ذلك أعظم خطر يهدد البلاد الافريقية التى نالت استقلالها حديثا أو توشك أن تحصل عليه . وترى من صور الاستعمار الجديد : حكومات الأذناب ـ اعادة تجميع الدول بواسطة قوة استعمارية فى اتحادات أو مجموعات مع هذه القوة الاستعمارية ـ التقسيم السياسى المتعمد عن طريق خلق كيان مصطنع كما فى كاتنجا وموريتانيا ـ السيطرة الاقتصادية واستمرار التبعية الاقتصادية بعد الاستقلال ـ تسلل النفوذ الأجنبى عن طريق رؤس الأموال أو القروض والخبراء . . . الخ

الطريق الى الوحدة الافريقية

نلاحظ أن موجة التحرر والاستقلال التى اجتاحت قارة افريقيا منذ عام ١٩٥٥ والتى استمرت حتى شهدت مولد ثلاث وثلاثين دولة افريقية مستقلة حتى عام ١٩٦٤ ، هذه الموجة قد جاءت فى أعقابها موجة أخرى من الاجتماعات والمؤتمرات التى شارك فيها رؤساء الدول الافريقية المستقلة والمسئولون فيها .

ففى الفترة ما بين ابريل سنة ١٩٥٨ ، وديسمبر سنة ١٩٦١ مثلا بلغ مجموع المؤتمرات الدولية والاجتماعات السياسية الافريقية الخالصة ثمانين مؤتمراً واجتماعا . (١)

وقد اسفرت هذه المؤتمرات والإجتماعات عن تكوين بعض المنظمات الدولية الافريقية ، مثل اتحاد مالى (١٩٥٩) الذى تكون من السنغال والسودان الفرنسى وفولتا العليا وداهومى ، والذى لم يلبث أن انحل فى العام التالى . كذلك تكون « اتحاد الدول الافريقية » (١٩٦١) ، وهو الاتحاد الذى ربط بين كل من جمهوريات مالى وغينيا وغانا ، ولكن هذا الاتحاد الثلاثى لم تكن له نتائج ايجابية ملموسة . كذلك تكونت منظمات اخرى مثل منظمة الدار البيضاء (١٩٦١) . وهذه المنظمات كلها مهدت الطريق لإقامة المنظمة الافريقية الشاملة التى تكونت ابان مؤتمر أديس أبابا (١٩٦٣) .

وقد لعبت القاهرة دورا فعالا فى أبرز هذه المؤتمرات والاجتماعات وأهمها مؤتمرات أكرا ، الدار البيضاء ، أديس أبابا ، القاهرة .

ففى أكرا تجتمع الدول الافريقية المستقلة لأول مرة لتؤكد الشخصية الافريقية . وكان حضور ممثلى هذه الدول لحفلات اعلان استقلال غانا (مارس ١٩٥٨) فرصة لمباحثات دارت بين الرئيس الغانى وبينهم . وخلال هذه المباحثات تبين للجميع أن هناك اتفاقا عاما بين الدول الافريقية إزاء المواقف السياسية الدولية . وبدت الفرصة سانحة لخلق تجمع افريقى يعمل على تأكيد الشخصية الافريقية ويقدم مساعدات لشعوب افريقيا التى تناضل فى سبيل تحررها واستقلالها ، ويعمل على بحث شئون افريقيا بحرية ودون تدخل من الخارج -

---

(١) د. بطرس غالى : منظمة الوحدة الافريقية — ١٩٦٤ — ص ٠١ .

وعلى ذلك فيعتبر مثل هذا التجمع تحديا كاملا لموقف الدول الأوروبية فى افريقيا.
وهكذا تخرج فكرة عقد مؤتمر أكرا ، عاصمة غانا ، الى الوجود (١٥ - ٢٢ ابريل ١٩٥٨) . وقد أجمع المراقبون السياسيون فى العالم على أن هذا المؤتمر هو أول خطوة فى المرحلة الأخيرة الحاسمة لتحرر افريقيا نهائيا وظهورها فى المجتمع الدولى كقوة مستقلة (١).

واشتركت فى المؤتمر الدول الافريقية المستقلة الآتية : أثيوبيا ، غانا ، ليبريا ، ليبيا ، المغرب ، السودان ، تونس ، والجمهورية العربية المتحدة . وقد مثل الجمهورية العربية المتحدة فى المؤتمر وفد برئاسة وزير الخارجية محمود فوزى. وفى يوم الافتتاح أرسل الرئيس جمال عبد الناصر برقية الى المؤتمر يؤيده ويبارك جهوده ويقول فيها : « إن شعب الجمهورية العربية المتحدة إذ يشارك فى هذا المؤتمر يضع كل قواه فى خدمة هذا التضامن الذى يربط بين الشعوب التى تريد أن تقرر مصيرها بنفسها دون دخيل وأن تنال خيرات أرضها دون مغتصب وأن يتحقق لبنيها كافة ما للانسان الحر من حقوق » .

وقد عقد مؤتمر أكرا دون اشتراك اتحاد جنوب أفريقيا فيه . فالمؤتمر كان قد حدد أهدافه ، وهى تتعارض مع سياسة جنوب افريقيا الممعنة فى التفريق العنصرى . ويصدر المؤتمر قرارا بالتمسك بالمبادىء التى أعلنها مؤتمر باندوم (القرار الأول) . ويؤكد المؤتمر ويدعو الى مقاومة التفرقة العنصرية وتأمين سيادة الدول الأفريقية المستقلة ومساعدة الدول الافريقية التى لم تنل استقلالها بعد . وهو يندد أيضا بالتدخل الأجنبى فى شتى أشكاله وذلك رغبة فى تأكيد الشخصية الافريقية ووقوفها الى جانب السلام (القراران الرابع والخامس) . كذلك يتخذ المؤتمر قرارا خاصا بالجزائر . وفيه يعترف بأن جبهة التحرير

(١) انظر : د. عبد الملك عوده . السياسة والحكم فى افريقيا - ١٩٥٩ - ص ٥٠٧

الوطنى الجزائرى هى الهيئة الوحيدة التى تمثل الشعب الجزائرى، وبحث فرنسا على الدخول فى مفاوضات عاجلة معها للوصول الى تسوية نهائية وعادلة للمشكلة (القرار الثالث) . (١)

وفى الدار البيضاء يجتمع بعض أقطاب القارة الافريقية لبحث شئونها ، فى الفترة ما بين ٣ ، ٧ يناير سنة ١٩٦١ . ويعتبر ذلك الاجتماع أول جهد افريقى منظم لأقطاب القارة لهذا الغرض . وقد سبق المؤتمر بسلسلة من الاجتماعات والمقابلات بين ممثلى الدول التى اشتركت فيه ، ثم يعقد بناء على دعوة من الملك محمد الخامس ملك المغرب وقتئذ . وفى ذلك المؤتمر يشترك مع الملك المغربى من الرؤساء جمال عبد الناصر وكوامى نكروما رئيس غانا وأحمد سيكو تورى رئيس غينيا وموديبوكيتا رئيس مالى وعباس فرحات رئيس الحكومة المؤقتة الجزائرية فى ذلك الوقت . ويحضر المؤتمر أيضا ممثل شخصى للملك ليبيا هو وزير خارجية المملكة الليبية .

ويتمخض هذا النشاط عن تكوين « منظمة الدار البيضاء » ، وهى أول منظمة جمعت بين دول افريقيا العربيه وغير العربية ، وأدخلت فى القارة الافريقيه مبادىء ثوريه جديدة كانت ذات أثر فى المبادىء التى قامت عليها منظمه الوحدة الافريقيه فيما بعد . وكانت لمنظمه الدار البيضاء هيئات عامه مثل اللجنه السياسيه الافريقية واللجنة الاقتصادية واللجنه الثقافيه . . . الخ .

والميثاق الافريقى الذى وقعه الاقطاب عقب هذه الاجتماعات تضمن مبادىء هامه ومنها مبدأ الوحدة الافريقيه الكاملة ، ومبدأ عدم الانحياز ومبدأ محاربه الاستعمار ومبدأ يحض على تطبيق الروح الاشتراكيه اذ يقول « من الضرورى أنه

---

(١) انظر قرارات المؤتمر فى: السياسة والحكم فى افريقيا — ص ٥٠٩ — ٥٢٥

توجه الدول الافريقية خططها السياسية والإقتصادية والإجتماعية نحو إستغلال ثروتها القومية لصالح شعوبها ، وضمان توزيع هذه الثروة توزيعا عادلا بين جميع مواطنيها. ، كذلك تؤكد قرارات الميثاق العزم على نصره الحركات التحررية فى جميع أنحاء أفريقيا .وتحقيق وحدتها ،وإتخاذ الإجراءات العملية التعاون الافريقى فى مجالات السياسة والثقافة والإقتصاد والجيوش الأفريقية . كذلك بحث المؤتمر قضايا القاره الأفريقية المعلقة حينئذ ، وهى قضايا الجزائر وموريتانيا وروواندا أوراندى والتفرقه العنصرية والتجارب الذرية . (١)

وفى ١٧ يونيه ١٩٦٢ يعقد فى القاهرة مؤتمر لأقطاب أفريقيا . وذلك فى خلال الدورة الثانية لا نعقاد اللجنة السياسية لميثاق الدار البيضاء الأفريقى بالقاهرة. ويحضر هذا المؤتمر من الرؤساء جمال عبد الناصر ، والملك الحسن، وموديبوكيتا وبن يوسف بن خده رئيس حكومة الجزائر المؤقتة ثم وزير خارجية غانا . ويقوم الرؤساء باستعراض الحالة الدولية بصفة عامة والمشاكل الأفريقية بصفة خاصة ويسفر المؤتمر عن قرارات تؤكد كفاح القارة الأفريقية التحرر والاستقلال وتعمل على صالح الشعب الأفريقى .

منظمة الوحدة الافريقية

وفى أديس أبابا يعقد مؤتمر من رؤساء الدول الأفريقية (٢٢ — ٢٥ مايو سنة ١٩٦٣) . وهو تتويج لجهود المخلصين من قادة أفريقيا فى سبيل الإعداد للوحدة الأفريقية . وقد إشتركت فى ذلك المؤتمر ٣٠ دولة أفريقية مستقلة هى:— الجمهورية العربية المتحدة . ليبيا . تونس . الجزائر . مالى . النيجر . تشاد .

---

(١) أنظر : د . بطرس غالى — منظمة الوحدة الأفريقية ص ٢٧ — ٢٩ ؟

السودان . أثيوبيا . الصومال . أوغندا . رواندا . بوروندى . تنجانيقا . الكونغو (ليوبولدفيل) . الكونغو (برازافيل) . جابون . جمهورية وسط أفريقيا . الكاميرون . نيجيريا . داهومى . غانا . فولتا العليا . ساحل العاج . ليبريا . سيراليون . غينيا . السنغال . مدغشقر . موريتانيا .

وبذلك يعتبر هذا المؤتمر الأول من نوعه فى تاريخ القارة نظرا لهذا العدد الكبير من رؤساء الدول الذين شاركوا فيه . وترجع فكرة عقده إلى أيام عقد مؤتمر الدار البيضاء حيث كان يأمل المجتمعون هناك أن يتجه باقى رؤساء الدول الأفريقية إلى بحث مسألة مستقبل سكان قارة أفريقيا الذين قاسوا ـ ولا يزال البعض منهم يقاسى ـ من نير الاستعمار والاستعباد . ولذلك يترك ميثاق الدار البيضاء مفتوحا لعضوية باقى الدول الأفريقية . ويعقد بعدئذ مؤتمر لاجوس (١٩٦٢) الذى ضم دولا من مجموعة منروفيا ودولا من مجموعة برازافيل ، ولم تشترك فيه مجموعة الدار البيضاء لإغفال دعوة الجزائر . فمجموعة برازافيل ، وهى تتمتع بأغلبية داخل مجموعة منروفيا ، اتخذت هذا الموقف ترضية لفرنسا . وبعدئذ أخذ عدد لا بأس به من زعماء الدول الأفريقية يحاولون التوفيق بين مجموعات الدار البيضاء ومنروفيا وبرازافيل للاجتماع فى مؤتمر يعقد فى أديس أبابا .

وحاولت الدول الاستعمارية وإسرائيل بث العقبات فى طريق هذا التقارب . ولكن الروح الطيبة التى سادت عواصم الدول الأفريقية انتهت بأن دعا امبراطور الحبشة إلى عقد مؤتمر يضم جميع رؤساء الدول الأفريقية المستقلة فى أديس أبابا . وقد سبق عقد هذا المؤتمر ، آخر تحضيرى لوزراء خارجية الدول الأفريقية اتفق فيه على جدول لأعمال مؤتمر الأقطاب . وعقد المؤتمر بالفعل ونجح نجاحا

جاهراً رغم مناورات الدول الاستعمارية لإفشاله وبث التفرقة بين الدول الأفريقية، أو محاولاتها لربط الكثير من دول أفريقيا بالسوق الأوروبية المشتركة قبل افتتاح المؤتمر لسد الطريق أمام الدول التى تسهم بأى مجهود يساعد على إنشاء سوق أفريقية مشتركة(١) .

وفى المؤتمر قام الرئيس جمال عبد الناصر يلخص المهمة التى ينظرها المؤتمر كما تتصورها الجمهورية العربية المتحدة فأوجز وبلغ إذ بين :

أولا : تعتبر الجمهورية العربية المتحدة أن القارة الأفريقية تواجه اليوم أقصى مراحل نضالها رغم أعلام الاستقلال التى ارتفعت على أرض القارة خلال السنوات الأخيرة .فهناك الاضطهاد العنصرى ، وهناك محاولات اصطناع أدوات للاستعمار جديدة ومبتكرة تتسلل حتى وراء أعلام الأمم المتحدة ، وهناك أمر اتخاذ أراضى شعوب القارة ميدانا للتجارب الذرية . وهناك عمليات اغتصاب أراضى الشعوب وإباحتها لمستوطنين جاءوا من بعيد ، وهناك عمليات التضليل بالشعارات ، وهناك مشكلات التخلف والتنمية . وهناك مشكلات الحرب الباردة وتحريض الأخ على أخيه . . . . . الخ .

ثانيا : تعتبر الجمهورية العربية المتحدة أن هذه المرحلة من النضال الأفريقى تقتضى أول ما تقتضى وجود إرادة أفريقية حرة واحدة . ووجود هذا المؤتمر فى حد ذاته دليل على وجود هذه الإرادة .

ثالثا : هذه الإرادة الحرة الواحدة تحتاج إلى عقل منظم وإلى أعصاب محركة تستطيع أن تصمد لما يواجهها من تحديات ، وتستطيع أن تحقق الآمال الأفريقية

(١) أنظر : أحمد سوار : مؤتمر القمة الأفريقى ص ١٤

العظمى ، وهـذه هى مهمة المؤتمر وجهوده .

ويقترح الرئيس جمال عبدالناصر فى المؤتمر ـ بحكم ما تفرضه علينا مسئولياتنا فى القارة ـ اتخاذ بعض الخطوات الإيجابية كسلاح المقاطعة الكاملة مثلا علاجا لمشكلة التمييز والاضطهاد العنصرى ، وتكوين جامعة أفريقية وعمل ميثاق لكل أفريقيا وعقد اجتماعات دورية لكل رؤساء دول أفريقيا وممثليها الشعبيين .

وأخيراً يتمخض المؤتمر عن عقد ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية لدول القارة الأفريقية ومدغشقر والجزر المجاورة للقارة . وفى هذا الميثاق تبدو واضحة روح آراء واقتراحات المخلصين من قادة أفريقيا عامة واتجاهات الرئيس المصرى بصفة خاصة . ويتكون ميثاق أديس أبابا من ديباجة وثلاث وثلاثين مادة . وأهم ما جاء بالديباجة أنها تؤكد تمشى ميثاق أديس أبابا مع ميثاق الأمم المتحدة . ويحتوى الميثاق على المبادىء التى تنظم علاقات الدول الأفريقية بعضها ببعض من ناحية وعلاقاتها مع العالم من ناحية أخرى . وفى هذا المجال يؤكد ميثاق أديس أبابا العزم على محاربة الاستعمار بجميع صوره واتباع سياسة عدم الانحياز. وعلى ذلك فمؤتمر أديس أبابا يعتبر نقطه لقاء بين دول القارة ، كما يعتبر نقطة تحول فى تاريخها .

وفى يوليو من العام التالى (١٩٦٤) ، وبعد عام تقريبا من عمر الوحدة الأفريقية ، يجتمع فى القاهرة ملوك ورؤساء الدول الأفريقية المستقلة ، وذلك تطبيقاً لميثاق الوحدة الذى ينص على اجتماع المؤتمر مرة على الأقل كل عام بناء على طلب أية دولة عضو وموافقة أغلبية الدول الأعضاء (المادة التاسعة) . وفى هذه الدورة (١٧ — ٢١ يوليو) ، كما يقول البيان المشترك ، تولى المؤتمر بحث الأساليب والوسائل التى تؤدى إلى تدعيم التعاون داخل القارة الأفريقية

وذلك فى مجال المحاولات التى تبذل للوصول إلى الهدف الأسمى وهو تحقيق التضامن والوحدة الأفريقية .

وقد أصدر المؤتمر قراراته[١] وهى تتناول تصفية الاستعمار والتفرقة العنصرية ومساعدة حركات التحرير ودعم الوحدة الأفريقية والطرق التى تؤدى إلى كل ذلك . وفى المؤتمر تم البناء النهائى لمنظمة الوحدة الأفريقية واختيرت العاصمة الأثيوبية مقراً لها كما تم اختيار سكرتير عام للمنظمة من غينيا .

---

(١) أنظر صحيفة الأهرام — ٢٢ يوليو ١٩٦٤

الثورة فى المجال الدولى (٢)

الدائرة العربيـــة

القومية العربية

عاش العرب فى المنطقة الممتدة من شبه الجزيرة العربيـة والمحيط الهندى إلى شرق البحر المتوسط وشمـال أفريقيا حتى المحيط الأطلنطى غربا قرونا طويلة ، وقد ربطت بينهم روابط تاريخية وجغرافية ومصالح إقتصادية ، ثم روابط من وحدة الدين واللغة والثقـافة بعد أن بزغ نور الإسلام فى شبة الجزيرة العربية . وهذه الروابط كانت تدفع العرب دائما إلى الوحدة وتحتمها كما تحـــتم إرتباط الشعب العربى بهـذا الشعور الجـارف ، الشعور بالقوميمة العربية . وقد أحس الشعب العربى بهذه الضرورة ، ضرورة الوحدة العربية والقومية العربية ، فعمل عـــلى تحقيقها ووجودها والمحافظة عليها على مر العصور رغم ما تعرض له من ظروف ومحن . وهاهى الأمة العربية اليوم مرة أخرى وقد اجتمعت على وحدة الأمل قطلعاً إلى وحدة المستقبل .

والنكسة التى أصابت الحضارة العربية فى مصر بوقوعها مـع البلاد العربية الأخرى فى قبضة الأتراك العثمانيين فى النصف الأول من القرن السادس عشر لم تؤثراً كثيراً على فكرة الوحدة العربية والشعور بالقومية العربية . فالعالم العربى كانت ، وستظل ، تجمعه وحدة الدين واللغة والمصالح . ومجىء الحملة الفرنسية إلى مصر عمل عـــلى إذكاء روح القومية كما رأينا . ولكن ما أن تتكون بعدئذ أمبراطورية عربية كبرى فى المنطقة بجهود عرب مصر ووادى النيل ، وذلك بعد أن نصب الشعب فى مصر بإرادته محمد على حا كا عليه ، حتى تتصدى الدول الكبرى لهذه الموجة العربية العارمة ، وتتدخل حتى تنكمش حدود الدولة العربية

فى وادى النيـل . ويقف الاستعمار بالمرصاد لمصر العربية خشية إنتفاضة المارد مرة أخرى حتى يتمكن منهـا ويتم الاحتلال الانجليزى لمصر . واهـتمام أوروبا بحركة الجامعة الاسلامية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومحاربتها إياها ، رغم أن هـذه الحركة لم تصـل إلى درجـة من الحيوية والخطورة بالشكل الذى تصوره خيال ساسة أوروبا (١)، كل ذلك إنما يفسره هـلع أوروبا من عودة الوحدة العربية والقضاء على مصالح أوروبا الاستعمارية فى العالم العربى والاسلامى.

ولـكن ذلك أيضاً لم ينجح فى القضاء على الوحدة العربية والشعور بالقومية العربية . فالاحتلال الانجليزى لمصر (١٨٨٢) والفرنسى الجزائر من قبل (١٨٣٠) ثم لتونس (١٨٨١) ومراكش (١٩١١) ، والاحتلال الإيطالى لليبيا (١٨١٢) ثم إقتسام إنجلـــترا وفرنسا للشرق العربى عقب الحرب العالمية الأولى ، كل ذلك إنما كان عاملا على بعث اليقظة العربية فى العـالم العربى . وقامت حركات التحرر من الإستعمار فى كل مـكان . والآن تسمو هـذه الحركات ليتحرر العرب ،فضـلا عن ذلك ، من التقسيمات المصطنعـة التى فرضها الاستعمار على بلادهم . وكنا فى هذا الأثناء نستفيد من تجاربنا مـع الاستعمار . وهذه الحركات جميعها يتوجها كفاح جمال عبد الناصر ، منذ كان طـالبا يمثل كفاح الآلاف منهم فى عهد الاحتلال ، ثم ضابطا بالجيش يعمل للثورة عـــلى الاستعمار والخيانة ، ثم قائدا للثورة ورائدا القومية العربية وباعثا لمجد العرب . وبذلك تظهر القومية العربية مرة أخرى ماردا عملاقا تتطلع اليها كل الشعوب العربية كـأمل لها تستمد منه القوة والحماية ، وهى فى نفس الوقت قومية لا ترمى إلى السيطرة عـلى الغير ، بل تهدف إلى تعـايش سلمى بجوار القوميات الأخرى ، وتشجع التعاون الدولى ، وتؤمن بالحياد الإيجابى وعدم الانحياز وتعنيه .

---

(١) أنظر : د. حسن صبحى ــ التنافس الاستعمارى والاوروبى فى المغرب(١٨٨٤ــ١٩٠٤)، ــ ١٩٦٥ ــ ص ٥٩

فالوحدة العربية حقيقة موجودة منذ زمن طويل والقومية العربية شعور عرفه وأحس به العرب إبان تاريخهم الطويل المجيد . وعلى ذلك فهذه الوحدة وتلك القومية غير مرتبطة بشخص أو بأشخاص ، إنما هى مرتبطة بوجود الشعب العربى وكيانه . وينبغى ، كما يقول الرئيس عبد الناصر فى حديث له لصحيفة الاوبزفر البريطانية ، (١) « الفصل بين الوحدة العربية كتيار تاريخى قديم ومستمر وبين أى فرد يتحمل فى لحظة من اللحظات مسئولية العمل من أجلها . إن دعوة الوحدة العربية بدأت من قبل جمال عبد الناصر وستبقى بعد جمال عبد الناصر » .

وقد ظهر الإتجاه العربى وبدت السياسة العربية لمصر منذ الأيام الأولى للثورة . فى هذه الأثناء يظهر « فلسفة الثورة » وفيه يقول الرئيس : « ولن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان — أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، إمتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها ... حقيقة وفعلا وليس بمجرد كلام ؟ » . فثورة ٢٣ يوليو كانت إذن نقطة إنطلاق للقومية العربية بشكلها الحديث . وتأخذ سياسة الثورة فى الميدان العربى فى الوضوح والتبلور فتكون القومية العربية هى دعامة هذه السياسة على إعتبار أن القومية العربية مرتبطة بالحياة السياسية للشعب العربى كما أنها مرتبطة بالسياسة العالمية .

ففيما يتعلق بالناحية الأولى ، فالقومية العربية تعتبر الوطن العربى كلا لا يتجزأ . وعلى ذلك فالنضال القومى لتحريره وتوحيده وحدة لا تتجزأ . والقومية العربية إذن ضرورية لتحقيق هدف كل شعب عربى فى تطلعه نحو الحرية، كما أنها

---

(١) أنظر : صحيفة الجمهورية ٦ يوليو ١٩٦٤ .

أمن لمصر وأمن لكل بلد عربى ، ووسيلتها فى ذلك الكفاح وذلك من أجل البقاء الدائم لهذه الشعوب العربية وتحقيق الرفاهية والتقدم الدائمين .

وقد وضع الميثاق أسساً للقومية العربية وللوحدة فى ضوء تجربة الوحدة مع سوريا ثم أزمة الإنفصال . فيؤكد الميثاق وحدة الهدف كضرورة من ضرورات النضال العربى . وفى ذلك المعنى يقول الميثاق : « إن مفهوم الوحدة العربية تجاوز النطاق الذى كان يفرض التقاء حكام الأمة العربية ليكون من لقائهم صورة لتضامن الحكومات . إن مرحلة الثورة الاجتماعية تقدمت بهذا المفهوم السطحى للوحدة العربيـــة ودفعت به خطوة نحو مرحلة أصبحت فيها وحدة الهدف هى صورة الوحدة . وإن وحدة الهدف الحقيقية قائمة عند القواعد الشعبية فى صورة الأمة العربية كلها .. واختلاف الأهداف عند الفئات الحاكمة صورة من صور التطور الحتمى الثورى واختلاف مراحله بين الشعوب العربية .. لكن وحدة الهدف عند القواعد الشعبية هى التى ستتكفل بسد الفجوات الناشئة عن إختلاف مراحل التطور » .

ويرتبط بهذا الأساس القومية العربية أساس آخر ، هو الاختيار وليس الفرض والإرغام . فالقومية العربية - كما يقول الرئيس - « تعنى الحرية فى تحقيقها حرية كل شعب فى أن يعلن إرادته وتعنى أيضا القيادة للشعب العربى لا لفرد أو أفراد . لأن هـذه القيادة ستكون قيادة مستمرة دائمة وأما الفرد فهو زائل » . ويقول الميثاق: « إن الوحدة لا يمكن - بل لا ينبغى - أن تكون فرضاً » . وفى خلال زيارة الرئيس جمال عبد الناصر لشعب اليمن فى أواخر أبريل ١٩٦٤ يطالب الشعب اليمنى بالوحدة ، فيجيب الرئيس بأن الوحدة قائمة ولكن الوحدة الدستوريه لن تتم قبل انسحاب القوات المصريه من اليمن .

وفيما يختص بالأمر الثانى ، ارتباط القومية العربية بالسياسة العالمية ، فان

هناك ـ على الأقل ـ حرباً استعمارية قائمة ضدها . ويوضح الرئيس جمال عبد الناصر هذه النقطة بقوله إن الاستعمار يشعر أن تحقيق القومية العربية وانتصاراتها يعني أنه ستقوم في قلب هذه المنطقة أمة عظمى تلعب دوراً ينتظرها في التاريخ ، وهو دور قامت به الدول العظمى في الوقت الحاضر . وحتى تقوم الأمة العربية بهذا الدور ، فعليها ألا تقبل أو تخضع لمناطق النفوذ ، وعليها ألا تكون داخل الأحلاف أو تابعة لمعسكر من المعسكرات وألا تقبل سياسة الانحياز وأن تكون ذات سياسة مستقلة تنبع منها ولمصلحتها . ومن هنا جاء تمسك مصر بميثاق الضمان الجماعي في ظل الجامعة العربية ونبذها كل الأحلاف والتكتلات الأجنبية . وتصبح القاهرة ملاذاً ليس لأحرار العرب فحسب ، بل للأحرار من كل مكان . ولا تتوانى حكومتها عن تقديم كل تأييد للقومية العربية في كل أرجاء الوطن العربي بالقول والفعل . وفي غمار نضال الشعوب العربية للتحرر التام ، يربطها جميعاً مبدأ وحدة الهدف ، يحدث اللقاء بين العواصم العربية .

الجمهورية العربية المتحدة

وكرد فعل طبيعي لذلك الشعور الفياض وإيمان عميق بالقومية العربية تجيء الوحدة بين سوريا ومصر ، وذلك بعد سلسلة من مظاهر التقارب والتآلف بين الشعبين . وفكرة الوحدة بين سوريا ومصر بدأت بشكل جدي عقب انشاء حلف بغداد الذي ضم العراق وتركيا ودولا من حلف الأطلنطي . ففي أكتوبر عام ١٩٥٥ يعقد الميثاق العسكري بين سوريا ومصر وفيه ينص على أن كل اعتداء على أحدهما يعتبر موجها ضدهما معا . وظهر واضحا مدى ضرورة هذه الوحدة في عام ١٩٥٧ إبان الأزمة بين سوريا وتركيا واضطراب العلاقات بين الدولتين . وفي هذه المحنة وقفت مصر بجانب سوريا وقدمت لها ما يمكن تقديمه من المساعدات ، ونزلت

القوات المصرية الى سوريا بالاتفاق معها. ودل ذلك على فاعليه الميثاق العسكرى بين الدولتين وأثره فى الشرق الأوسط. وهكذا تتجسم ضرورة إنشاء قوة عربية لحماية العرب، كما تبدو أيضا مزايا هذه الوحدة من الناحية الإقتصادية.

وهكذا تبدىء سوريا الشقيقة، شعبا وحكومة، رغبتها فى إقامة اتحاد مع مصر. وتتوالى الاجتماعات بين كبار المسئولين فى الجمهوريتين لاقرار الوحدة والاتفاق على مختلف الشئون المتعلقة بها. وفى دمشق يجتمع مجلس النواب السورى بحضور وفد من مجلس الأمة المصرى ويعد قرارا بالاتحـــاد الفدرالى بين مصر وسوريا (نوفمبر ١٩٥٧). وفى ٣١ يناير ١٩٥٨ يجتمع مجلسا الوزراء السورى المصرى اجتماعا تاريخيا فى القاهرة. وفى اليوم التالى (أول فبراير ١٩٥٨) يلقى رئيس وزراء سوريا بيانه التاريخى معلنا قيام الجمهورية العربية المتحدة كخطوة أولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة. كذلك يشير البيان إلى أن هذه الوحدة العربية هى ثمرة القومية العربية وهى طريق العرب إلى الحرية والسيادة وسبيل من سبل الإنسانية للتعاون والسلام. وبذا بدأ اندماج الجمهوريتين العربيتين فى دولة عربية متحدة.

وفى بيانه الذى أعلنه الرئيس جمال عبد الناصر يوم ٥ فبراير (١٩٥٨) يبين الرئيس المصرى المبادىء التى ستقوم عليها الجمهورية الجديدة فى فترة الانتقال، ويصف الدولة الوليدة التى قامت فى هذا المكان من الشرق بأنها « ليست دخيلة فيه ولا غاصبة، ليست عادية عليه ولا مستعدية ... دولة تحمي ولا تهدد، تصون ولا تبدد، تقوى ولا تضعف، توحد ولا تفرق، تسالم ولا تفرط، تشد أزر الصديق، ترد كيد العدو، لا تتحزب ولا تتعصب، لا تنحرف ولا تنحاز، تؤكد العدل وتدعم السلام، توفر الرخاء لها ولمن حولها وللبشر جميعا بقدر ما تتحمل وتطيق ». وفى نفس اليوم الذى ألقى فيه الرئيس جمال عبد الناصر بيانه

ألقى الرئيس السورى بيانا مشابها وأضاف اليه إعلانه بترشيح جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة . وبعد ذلك أصدر كل من المجلسين المصرى والسورى قرارا فى نفس اليوم بالموافقة على إقامة الدولة العربية الجديدة . وفى يوم ٢١ فبراير ١٩٥٨ أجرى استفتاء فى مصر وسوريا على الوحدة وعلى اختيار الرئيس . واسفر الاستفتاء فى الشمال والجنوب بما يشبه الاجماع على إقرار الوحدة وانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة .

وفى ٥ مارس سنة ١٩٥٨ أعلن الدستور المؤقت الجمهورية العربية المتحدة ، والذى قام على أساس بيان الرئيس جمال عبد الناصر فى ٥ فبراير ودستور عام ١٩٥٦ المصرى ، وذلك إلى حين إعلان موافقة الشعب على الدستور النهائى للدولة الجديدة . وبعد إعلان الدستور بثلاثة أيام يوقع بالقاهرة ميثاق « الدول العربية المتحدة » (٨ مارس ١٩٥٨) بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة . فالوحدة السورية المصرية لم تكد تتم حتى تقدمت اليمن تطلب الانضمام إلى الوحدة الجديدة فى أمور التمثيل السياسى والدفاع والصحة والتعليم . وفى ذلك الميثاق يترك الباب مفتوحا لمن يرغب الانضمام اليه من الدول العربية الأخرى . وفى ذلك الاتحاد الجديد تحتفظ كل دولة بشخصيتها الدولية ونظام الحكم فيها ، وتتبع الدول الأعضاء سياسة خارجية موحدة يضعها الاتحاد ، وتتولى هيئة واحدة للاتحاد أمر التمثيل السياسى والقنصلى فى الخارج ، ويكون للاتحاد قوات مسلحة موحدة لها قائد عام يعينه المجلس الأعلى للاتحاد . ويتكون هذا المجلس من رؤساء الدول الأعضاء ويشرف على شئون الاتحاد .

العراق

وفى يوليو عام ١٩٥٨ تقوم الثورة فى العراق يقودها الجيش والأحرار وتطيح بالنظام الملكى هناك وتقوم الجمهورية العراقية . وكانت هذه الثورة فى الواقع

امتدادا للدفع الثورى فى الأمة العربية واليقظة العربية والشعور بالقومية ، وهى نفس الدوافع التى أقامت الجمهورية العربية المتحدة . وقد قامت الثورة العراقية ولم يمض بعد شهور على إعلان إنشاء الاتحاد بين العراق والأردن (١٤ فبراير ١٩٥٨) . ولكن الشعب فى العراق كان يعلم تماما أن النظام القائم فى بلاده ، وعماده نورى السعيد والملكية العراقية ، كان ضد القومية العربية وضد الوحدة العربية . ولم يكن حقد نورى السعيد على جمال عبد الناصر وعلى النظام فى مصر أمرا مجهولا ولم تعد مؤامراته ضد الرئيس المصرى بخافيه على أحد (١) .

وكان أول عمل للجمهورية العراقية الوليدة فى المجال الدولى أن اعترفت بالجمهورية العربية المتحدة، وكان العراق فى ظل النظام الملكى يمارض الاعتراف بها ويحاربها. وقد ساندت الجمهورية العربية المتحدة شقيقتها العراق وقتئذ مساندة فعالة . فهى تعلن أن أى اعتداء على العراق اعتداء على الجمهورية العربية ، وذلك فى غمار الاخطار المحدقة بالعراق وقتئذ . فنى اليوم التالى لنشوب الثورة تنزل القوات الأمريكية فى لبنان ، ويبدو العالم على وشك الحرب . وفى تلك الأزمة العنيفة ، وبينما الجمهورية العربية تناصر العراق ، فهى تعمل فى نفس الوقت على انقاذ السلم العالمى ويعلن الرئيس جمال عبد الناصر أن الجمهورية العربية تتمسك بالسلام ولكن فى فى غير استسلام . ويطالب بحياد الشرق العربى،ويتصل برؤساء الدول الآسيوية للعمل على منع نشوب الحرب . وهكذا تدير الجمهورية العربية السياسة العربية إبان تلك الأزمة . فتحافظ على كيان العرب وحقوق شعوبها فى اختيار الحكومات التى يريدونها . وهى تعقد مع العراق اتفاقية تعيد الى الجامعة العربية كيانها بعد

---

(١) أنظر : تشايلدرز .. الطريق الى السويس ص ١٧٦-١٨٢ .

أن كانت مهددة بالانحلال (١٩ يوليو ١٩٥٨) وتعمل فى نفس الوقت على تحسين علاقتها بالسعودية .

ولكن الخيانة فى العراق ، والشيوعية ، والاطماع الاستعمارية ، كل ذلك عمل على ابتكاس الثورة فى العراق وحرمان شعب العراق العربى من مكاسبه . فانقسم الشعب فى العراق أحزابا وشيعا متقاتلة ، وتنكر عبد الكريم قاسم للقومية العربية . وتنظر الأطماع الاستعمارية بجذل الى ذلك الانقسام فى الأمة العربية الواحدة ، ويصرح ساسة بريطانيا المسئولون بأن القوميه العربية وليست الشيوعيه هى الخطر الحقيقى الذى يهدد مصالح بريطانيا فى الشرق الأوسط (مايو ١٩٥٩) . وكذلك يصرح ساسه اسرائيل بتصريحات مشابهه .

وتصمد القومية العربية أمام هذه الأخطار وتنتصر . فالثورة تقوم بعدئذ فى فى العراق لتقضى على حكم قاسم (٨ فبراير ١٩٦٣) . كذلك تقوم الثورة فى سوريا (٨ مارس ١٩٦٣) وتقضى على حكم الرجعية الذى تآمر على الشعب فى سوريا بعد نكسة الانفصال (٢٨ سبتمبر ١٩٦١) . وتطبيقا لسياسة الجمهورية العربية التى تنادى بوحدة الهدف قبل وحدة الصف ومساندة الشعوب فى تقرير مصيرها : تسارع الجمهورية العربية الى اعترافها بالوضع فى العراق منذ اليوم الأول لقيام الثورة كما تعترف أيضا بالثورة فى سوريا وتعلن مساندتها لها بدون حد .

وفى مارس من نفس العام (١٩٦٣) تبدأ محادثات الوحدة فى القاهرة بين الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والعراق . ورغم الوصول الى اتفاق بهذا الشأن فإن الأمور تتعقد مرة أخرى ، ويساعد على ذلك اضطراب الحكم والأحوال الداخلية فى كل من العراق وسوريا . والواقع أن الوحدة عمل شاق ومعقد ومهمة ضخمة . وهى تواجه تحديات كبيرة من الاستعمار والصهيونية والرجعية

والاقطاع والانتهازية . وعلى أى حال فهذه التجربة مع سوريا قد أكدت إمكانية الوحدة وأكدت سلامة الحتمية التاريخية للوحدة وضرورتها . ونلاحظ ، كما قال السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، أن الوحدة حق وهى فى مرحلة التراجع المؤقت بعد نكسة الانفصال كانت أقوى من أعدائها ،فقد حطمتهم بأكثر مما استطاعوا تحطيمها . وقد بات الشعب العربى الآن يعتقد عن ثقة بأن الوحدة حتمية وأنها لا بد أن تتم ، وأنه من المحتمل أن تتعطل أو تتغير بضعة سنوات ولكنها حتمية تاريخية لا بد أن تتحقق (١) .

أما فى العراق فقد انتهى الأمر هناك إلى الاستقرار بعد أن قبض عبد السلام عارف على زمام الأمور وتولى رئاسة الجمهورية العراقيـــة . ومنذ ذلك الوقت والجمهورية العراقية تسير حثيثا نحو الوحدة العربية الشاملة والاشتراكية العربية . ووقع الرئيسان جمال عبد الناصر وعبد السلام عارف اتفاقا (٢٦ مايو ١٩٦٤) يهدف إلى تنسيق سياسى كامل بين العراق والجمهورية العربية المتحدة ، وذلك أثر اجتماعات الرئيسين التى بدأت يوم ١٣ مايو عند وصول الرئيس العراقى الى أسوان لحضور احتفالات انتهاء المرحلة الأولى من بناء السد العالى وتحويل مجرى النيل . ونص الاتفاق على تشكيل مجلس رئاسة مشترك للجمهوريتين من رئيس الجمهورية العربية المتحدة ورئيس جمهورية العراق وعدد من الأعضاء . ويتـولى المجلس دراسة وتنفيذ الخطوات اللازمة لاقامة الوحـدة بين البلدين ، وتخطيط وتنسيق سياستهما فى المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقـافية وفى ميدان الإعلام . كذلك يعمل المجلس على تحقيق الوحدة العسكرية بين الشعب

(١) أنظر أقوال الرئيس جمال عبد الناصر بهذا الصدد (صحيفة الأهرام ٢٢ فبراير ١٩٦٥ ، الجمهورية ١٣ نوفمبر ١٩٦٤) .

العربى فى العراق ومصر عن طريق التنظيم الشعبى فى كل منهما والعمل على توحيد التنظيميين فى المستقبل (١).

وفى الشهر التالى يعلن الرئيس عبد السلام عارف ميثاق الحركة العربية الواحدة ومشروع النظام الاساسى للاتحاد الاشتراكى العربى بالعراق ، وهو ميثاق شبيه بالميثاق الوطنى للجمهورية العربية المتحدة ، وذلك إيمانا من شعب العراق بوحدة الفكر والتنظيم والأهداف . كذلك يؤكد الرئيس العراقى أن الوحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحده ستتم قريبا . وتسير حركة التأميم فى العراق حثيثا ويمضى الشعب فى طريق التحول الاشتراكى . ويقول عارف أننا نعتبر الجمهورية العربية المتحدة القاعدة القومية التحررية فى الوطن العربى ونواة تقدمية للوحدة العربية (٢) .

الجنوب العربى

وفى ضوء السياسة العربية التى رسمتها الثورة تجد قضية الجنوب العربى فى القاهرة سنداً كما يجد فيها الاحرار من الجنوب، والاحرار فى كل مكان ، ملاذا وعونا . وتقرر رابطة الجنوب (١٩٥٦) ، وكانت قد تأسست فى عدن عام ١٩٤٨ لارساء قواعد النضال فى الجنوب، ربط نضالها فى الجنوب بالنضال العربى العام فى سبيل التحرر والوحدة العربية وتطوير المجتمع العربى إلى مستوى أفضل. ويتخذ رئيس الرابطة وأمينها العام القاهرة مقرا لهما ويؤسسان فيها مكتب الجنوب العربى فى أواخر عام ١٩٥٦، وذلك بعد نفى السلطات البريطانية لهما. وكان المؤتمر الاسيوى الافريقى بالقاهرة مجالا لعرض قضية الجنوب العربى فاحتلت مكانها وسط قضايا

(١) الاهرام ٢٧ مايو ١٩٦٤ .
(٢) الجمهورية ١٠ يوليو ١٩٦٤

الشعوب الآسيوية والافريقيه المناضلة (ديسمبر ١٩٥٧) . وحينما يشتد العدوان البريطانى فى الجنوب فى منتصف عام ١٩٥٨ ترى الرابطة عرض القضية على الامم المتحدة يساندها فى ذلك الانتصارات العربية المتتالية . وتحاول انجلترا فى هذه الأثناء أن تلعب بشعار الوحدة ، هذه الأغنية التى يتغنى بها الشعب العربى، والأمل الذى خلب لب الجماهير فى العالم العربى ، فبدأت تقيم فى فبراير من عام ١٩٥٩ ما أسمته باتحاد امارات الجنوب العربى ، وذلك بالاتفاق مع السلاطين والمشايخ فى الجنوب ، لخدمة أهدافها. ولكن هذا الاجراء يقابل بمقاومة شديدة من شعب الجنوب .

وقد استطاعت رابطة الجنوب العربى أن تدمج كل قضايا الجنوب العربى فى قضية واحدة . ولكن اليمن فى ظل الرجعية ، كانت تعمل على تخريب الحركة الوطنية فى الجنوب وتعرقل إثارة الموضوع حتى فى اجتماعات الجامعة العربية . وفى نفس الوقت يواصل الشعب العربى فى الجنوب نضاله ضد الاستعمار وتتسع جبهة المقاومة والقتال . وهدف الشعب من ذلك هو انتقال السيادة إليه وإجراء انتخابات عامة تحت إشراف دولة محايدة لانتخاب مجلس وطنى تنبثق عنه حكومة وطنية تعمل من أجل الأهداف العربية الكبرى . وقد جاء قرار هيئة الأمم المتحدة فى أواخر عام ١٩٦١ مؤيدا لرغبات شعب هذه المنطقة. فهى تقرر تكوين لجنة لتصفية الاستعمار فى العالم وهذا يفتح بابا جديد أمام الحركة الوطنية فى الجنوب . وتمخض كفاح الحركة فى هذا المجال عن صدور قرارات لجنة تصفية الاستعمار (٣ مايو ١٩٦٣) بأن من حق شعب الجنوب العربى أن يقرر مصيره وينال استقلاله، وذلك ضمن قرارات أخرى تدين موقف بريطانيا فى الجنوب[١].

---

(١) انظر هذه القرارات وموافقة هيئة الامم المتحدة عليها فى ديسمبر ١٩٦٣ . الجنوب العربى فى هيئة الامم — ص ١٧٥—١٧٨ .

وبعدئذ تقرر اللجنة استقلال عدن واستفتاء المحميات فى مصيرها (٩ أبريل ١٩٦٤) .

وفى أواخر ابريل ١٩٦٤ يزور الرئيس جمال عبد الناصر اليمن ، وهناك يطالب الاستعمار البريطانى بأن يرفع يده عن الجنوب ويرحل . ولكن يبدو أن بريطانيا لا تنوى أن تتخلى بسهولة عن عدن ذلك المركز الاستراتيجى الهام فى طريق مواصلاتها إلى الشرق ، أو الانسحاب من الجنوب العربى وجنوب شرق شبه الجزيرة . ويبدو ذلك واضحا فى تصريحات ساسة بريطانيا وفى اتجاه الرأى العام بها . وشهد عام ١٩٦٤ موقفا متفجرا فى الجنوب المحتل ، وشغلت المشكلة جانبا من مناقشات مجلس العموم البريطانى . كذلك توالت اجتماعات المسئولين بالجامعة العربية بممثلى الهيئات الوطنية والزعماء فى الجنوب المحتل وعدن ،وذلك فى محاولة لاتخاذ موقف موحد لضرب الاستعمار البريطانى فى المنطقة .

التعاون العسكرى

وعمل الجمهورية العربية المتحدة لم يعد قاصراً على التعاون مع الشعوب العربية فى مجال الفكر والمبادىء والدعوة وتعميق الوعى بينها ، بل امتد أيضا إلى العمل العسكرى . حدث ذلك إبان ثورة الجزائر . ففى نوفمبر عام ١٩٥٤ بدأ الكفاح العربى فى الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى مرحلتــــه الإيجابية الحاسمة ، وهب الجزائريون لإرغام فرنسا بقوة السلاح على التخلى عن دعاواهم فى الجزائر ووضع حــــد لمخططهم الذى يهدف إلى خلق وطن فرنسى فى العالم العربى . وبذلك وجهت حركة الكفاح فى الجزائر إلى أعنف مما كانت عليه عقب استيلاء الفرنسيين عليها عام ١٨٣٠ ،وبعد أن ظنت فرنسا أنها قد نجحت فى ترويض شعب الجزائر وجعلت بلاده مستعمرة فرنسية آمنة

للاسكان والاستثمار فى وقت واحد . ووقفت الثورة فى مصر إلى جانب الثورة فى الجزائر ، وساندتها بكل ما تملك من وسائل الإعلام وفى المحافل الدولية . ورفضت بإباء ودون تردد أن تجعل احتمال تخليها عن مؤازرة الثورة فى الجزائر موضوعاً لمساومة من أى نوع . فالدعوة التى انطلقت من القاهرة كانت تعنى كل بلد عربى وتتعلق بالشعب العربى فى كل مكان ، وليست لمصلحة بلد عربى على حساب بلد عربى آخر . وبهذه المؤازرة ، إلى جانب المساعدات العسكرية على اختلاف صورها ، أمكن لكفاح الجزائر أن يستمر حتى انتصرت الثورة هناك واغتصبت الجزائر حريتها واستقلالها .

وبعد الاستقلال تؤازر الجمهورية العربية المتحدة شقيقتها الجزائر الحرة فى محنة البناء وتقدم لها كل ما تستطيع . ولتقوم الجزائر الحـــرة بدورها فى تدعيم الوطن العـــربى ومساندة الأمة العربيـــة . ويزور الرئيس جمال عبد الناصر الجزائر فى مايو من عام ١٩٦٣ بدعوة من الرئيس ابن بيللا . وهناك يلتقى جمال عبدالناصر بشعب الجزائر الذى يستقبله بحماس كبير ، وتدور محادثات بين الرئيسين ، يؤكدان فيها « أن الطريق الذى تسلكه الدولتان نحو تحقيق الاشتراكية النابعة من الواقع العربى . . . هو السبيل إلى إقامة ديمقراطية سليمة . . . » . ويؤكد الرئيسان أيضاً « عزم شعبيهما الذى لا يتردد على مواصلة العمل من أجل تحرير كل شبر من الوطن العربى » . كذلك تدور مباحثات بين وفدى الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، إبان تلك الزيارة ، تتناول العلاقات بين البلدين ومجالات التعاون المشترك من أعمال وجهود فى الميادين الثقافية والاقتصادية والعسكرية والسياسية(١) .

وتساند الجمهورية العربية المتحدة شعب اليمن فى انتفاضته ضد الطغيان

---

(١) انظر نص البيان المشترك فى : الوحدة العربية الكبرى — ص ٥٨٤-٥٨٧

والتخلف الشديد . ففي سبتمبر من عام ١٩٦٢ قامت الثورة في اليمن ودمرت قلعة من أعتى قلاع الرجعية في العالم العربي . فالشعب اليمني كان يعيش في ظل أسرة حميد الدين بمعزل عن العالم وفي حالة من التأخر يرثى لها . والمجاعات والأمراض والأوبئة في اليمن صارت من سمات الحياة بالنسبة للشعب هناك . وأهدرت كرامة الفرد وحقوقه ، فلم يكن هناك قانون يحدد حقوق الفرد وواجباته وإنما كان أمر الإمام هو القانون السائد . وقد عمد الأئمة في اليمن إلى الحيلولة دون الشعب والتقدم الحقيقي ، ونشروا البغضاء بين القبائل وألبوا البعض منها ضد الآخر ، وذلك حتى ينصرف الناس عن التفكير فيما آلت إليه بلادهم من ضعف وتأخر وفساد وانحطاط[1] . وقد حدثت محاولات متعددة لقتل الأئمة . فالإمام يحيى قتل عام ١٩٤٨ . وتكررت محاولات قتل إبنه الإمام أحمد فيما بعد . وقد يؤكد البعض صلة بريطانيا بهذه المحاولات[2] ، نظراً لعداء الأئمة التقليدي لبريطانيا ، ولكن صلتها بالفساد في الداخل لاشك أقوى وأوثق .

ومنذ اللحظة الأولى لثورة سبتمبر وقد اتضحت شعبية هذه الحركة تماما . فالثورة اليمنية تعلن أهدافها التي تلتقي بأهداف الثورة في مصر . وتبادر الجمهورية العربية إلى مؤازرة الثورة فتعترف بحكومتها . وتعقد معها اتفاقاً عسكرياً لمواجهة العدوان الخارجي بكل صوره ، وترسل القوات العربية إلى اليمن لحماية ثورتها من أعدائها . كذلك تعقد مصر معها اتفاقاً اقتصادياً تقدم بمقتضاه مساعدات اقتصادية وفنية إلى اليمن كما تمدها بكل ما تحتاج إليه من خبرات .

---

(١) أنظر : الدكتور عبد الرحمن البيضاني — أسرار اليمن — القاهرة . ١٩٦٢ ص ١٩ — ٣٤

(٢) دكتور عزة النص — الوطن العربي — ص ٨٥

مؤتمر القمة العربى

وحالما تبدو بوادر خطر خارجى بالنسبة لإحدى الدول العربية ، يتعالى صوت الجمهورية العربية المتحدة بوقاً يجمع الجهود العربية ويكتلها ضد الخطر الداهم المشترك . فشروع إسرائيل الخاص بتحويل مياه نهر الأردن لتعمير النقب كان يحمل معه خطراً مزدوجاً للبلاد العربية . فهو يبغى زيادة الهجرة اليهودية إلى إسرائيل كما يعنى حرمان البلاد العربية المجاورة من مصادر مائية توجد فى أرض عربية وتمر بها . ولاينبغى علينا ـ كما يقول الرئيس فى حديث صحفى ـ[1] أن نسمح للصهاينة بأن يقووا ويدعموا قبضتهم على الأرض التى اغتصبوها من العرب ، عن طريق سلب المياه العربية وسرقة الأرض العربية والاستمرار فى تمزيق الجرح الذى أصاب اللاجئين الفلسطينيين بطردهم من ديارهم .

وهكذا يجىء اقتراح الرئيس جمال عبد الناصر (٢٣ ديسمبر ١٩٦٣) بعقد مؤتمر من الرؤساء والملوك العرب لمعالجة المشكلة الداهمة . وتدعو الجامعة العربية بالتالى إلى عقد هذا المؤتمر وتلاقى الدعوة قبولا جماعيا . وهكذا يصفى الجو العربى من الغيوم التى تراكمت فيه من عام ١٩٦١ إلى عام ١٩٦٣ . فم خلال الاجتماعات الرسمية والخاصة أمكن الاتفاق ليس فقط حول مسألة العد الاسرائيلى بل على تصفية جو العلاقات العربى أيضا ، وبذلك تعود وحدة الع لتحقيق الهدف الواحد .

وفيما يختص بقرارات المؤتمر ، يتفق المؤتمرون على اتخاذ القرارات العملية لإتقاء الخطر الصهيونى الماثل ، سواء فى الميدان الدفاعى أو الميدان الفنى ،

---

(١) صحيفة الأهرام ـ ٧ فبراير ١٩٦٤

أو ميدان تنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره . ويجمع الملوك والرؤساء العرب على إنهاء الخلافات وتصفية الجو العربي من جميع الشوائب وإيقاف جميع حملات أجهزة الإعلام وتوثيق العلاقات بين الدول العربية . ويدل ذلك الاجتماع على أنه لا يوجد تعارض في سياسة الجمهورية العربية المتحدة فيما يختص بالعمل في المحيط العربي أو المحيط الآسيوي الأفريقي أو المحيط العالمي(١) . فالمؤتمر يشيد ويرحب بميثاق الوحدة الأفريقية وقرارات مؤتمر باندونج ومبدأ التعايش السلمي بين الدول وسياسة عدم الانحياز . ويبدو الانسجام والتوافق بين عمل المؤتمر والعمل في المحيط الآسيوي الأفريقي وفي المجال العالمي . ويرى المؤتمر أن عقد مزيد من هـــذه الاجتماعات على أعلى المستويات أمر تقتضيه المصلحة العربية العليا ويجمع على أن يتم ذلك مرة في السنة على الأقل(٢) .

ثم تستقبل مدينة الاسكندرية ملوك ورؤساء ثلاثة عشر دولة عربية في لقائهم الثاني وتنفيذا لقرارات مؤتمر القمة العربي الأول . وعقد مجلس الملوك والرؤساء اجتماعات (٥-١١ سبتمبر ١٩٦٤) حققت إنجازات جديده في دعم التضامن والعمل العربي المشترك ، وذلك كما يذكر البيان الذى صدر يوم ١١ سبتمبر . وأصدر المجلس قرارات مكملة لقرارات الدورة السابقة زادتها قوة وفاعلية .

وكانت وحدة العمل من أجل فلسطين أهم ما حققته هذه الاجتماعات . فالملاحظ أن الكتلة العربية لم تكن تفتقر أحيانا إلى خلافات متعددة ،ولكن البلاد

---

(١) أنظر : د. محمد عبد المعز — في الثورة — ص ٦/١٤٥

(٢) انظر نص البيان في صحيفة الأهرام — ١٨ يناير ١٩٦٤

العربية لم تجمع على قضية عربية مثلما أجمعت على قضية فلسطين. فاتخذ المجلس بهذا الصدد القرارات الكفيلة بتنفيذ المخططات العربية وخاصة فى الميدانين العسكرى والفنى ومن بينها بداية العمل الفورى فى المشروعات العربية الخاصة باستغلال نهر الأردن وروافده .

كذلك يقرر المجلس مكافحة الاستعمار البريطانى فى شبه الجزيرة العربية وتقديم المساعدات لحركة التحرير فى الجنوب المحتل وعمان . وعنى المجلس أيضا بدعم العلاقات العربية الاخوية بإمارات الخليج العربى كفالة للحرية العربية التى لا تتجزأ وتحقيقا للمصالح المشتركة . وهو يقرر أيضا منع الهجرة الأجنبية إلى الخليج العربى لوقف التغلغل الأجنبى إلى تلك المنطقة ولمنع تكرار تجربة فلسطين . وقد بحث المجلس أيضا وسائل دعم العمل العربى الموحد فى نطاق الجامعة العربية سياسيا ودفاعيا واقتصاديا وأكد ضرورة مضاعفة التعاون وقرر المجلس تأليف مجلس عربى مشترك للبحوث الذرية للأغراض السلمية، وإنشاء محكمة العدل العربية .

وأكد المجلس ضرورة تصفية القواعد الاستعمارية التى تهدد أمن المنطقة العربية وسلامتها وخاصة فى عدن وقبرص، كما أيد كفاح شعوب أنجولا وموزمبيق وروديسيا الجنوبية وغينيا المسماه البرتغالية وجنوب أفريقيا من أجل الحرية، واستنكر محاولات التدخل الأجنبى فى الكونغو . وذلك بين، كما أكد المؤتمر، أن التعاون الأفريقى ـ العربى قاعدة للسياسة العربية [1] .

ويلاحظ أنه منذ بدأ عقد مؤتمرات القمة العربية وقد بدأت نتائج هامة تتحقق ، ولاسيما ما يتعلق منها بقضية فلسطين ودعم العمل العربى الموحد فى مختلف المجالات . فقضية فلسطين تسير خطوات محسوسة فى طريق التقدم .

---

(١) انظر نص البيان المشترك للمؤتمر ـ صحيفة الجمهورية ١٢ سبتمبر ١٩٦٤

وأنشئت منظمة تحرير فلسطين كما بدىء فى تكوين الجيش الفلسطينى. وتحسنت العلاقات بين الدول العربية واتخذت القضايا المعلقة بينها طريقهـــا إلى التسوية والتصفية . فقـد تم مثلا وقف إطلاق النار باليمن فى نوفمبر سنة ١٩٦٤ بعد أن تم الاتفاق حول هذا الموضوع بين الرئيس جمال عبد الناصر والملك فيصل. كذلك يتم توقيع اتفاقية الدفاع المشترك من الدول العربية التى لم تكن قد وقعتها من قبل .

بين التحول العظيم والانطلاق العظيم

التحول العظيم

بصدور الدستور المؤقت (مارس ١٩٦٤) وانعقاد مجلس الأمة (الخميس ٢٦ مارس ١٩٦٤) تنتهى مرحلة التحول العظيم ـ التى بدأت بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ويبدأ الطريق إلى مرحلة الانطلاق العظيم ويتخذ له معالم واضحة . وعند افتتاح مجلس الأمة ، وبعد أن أوصل الربان الماهر سفينته ـ بتوفيق من الله وفضله ـ إلى بر الأمان ، بعد رحلة شاقة فى بحر زاخر بالأنواء وجو عاصف مرعد يلتقى الرئيس مع ممثلى الشعب ليقول لهم ببساطة وإيمان : إن أقصى أملى أن أصل بالأمانة إلى حيث تلاقى آمال هذا الشعب الخالد ... وليس لى مطلب الا أن تتاح لى الفرصة للخدمة العامة فى أى موقع يرى الشعب القائد أن أقف فيه .

ويقف الرئيس جمال عبد الناصر أمام ذلك المجلس الذى يمثل تحولا كبيرا فى التاريخ السياسى والاجتماعى لمصر ، ليتلو كشف حساب الثورة منذ قيامها[١] :ـ

١ ـ القضاء على الاستعمار : تمكنا من طرد الانجليز من بلادنا مرتين ؛ مرة بالمقاومة السلبية وأخرى بالحرب الشاملة . كذلك تم القضاء على القواعد الخفية للاستعمار فى أرض الوطن وهى أخطر وأضر . فتم تأميم شركة قناة السويس ، ركيزة الاستعمار الرأسمالى الاحتكارى ، وتصفية بقية قواعد الاستعمار الرأسمالى الاحتكارى فى الداخل ، وتمصير جميع المصالح المملوكة لدول الاستعمار وكلها أعصاب الاقتصاد والسيطرة الحساسة. وفى باندونج أرتفع أعلى نداء جماعى يدوى بمقاومة الاستعمار والتصدى له ، ثم يمتد الطريق بعد باندونج وبعد انتصار

---

(١) أنظر خطاب الرئيس فى صحيفة الاهرام ٢٧ مارس ١٩٦٤ .

السويس يزداد طولا وعرضا ليمهد لأضخم زحف للحرية حدث فى أفريقيا . وفى الدار البيضاء يتم أول جهد أفريقى منظم نذر نفسه لتحرير شعوب القارة . وفى أديس أبابا ، حيث مشت دعوة الحياد الإيجابى جنباً إلى جنب مع دعوة مقاومة الاستعمار ، تلتقى إرادة أفريقيا كلها . فالحرية لم تكن مجرد خلاص من قواعد الاستعمار وإنما كانت اوسع من ذلك .

٢ — القضاء على الإقطاع . تحقق ذلك بفضل القوانين الاشتراكية ووصلت مساحة الأرض التى تم الاستيلاء عليها لتوزيعها لصالح الفلاحين ٩٤٠٤٥٧ فداناً . وتحدد إيجار الأرض الزراعية وعم التعاون وأتاحة فرصة التمويل المعفى من الفوائد وهناك إتجاه إلى التجميع الزراعى على أوسع نطاق وسائل ذلك إلى رفع متوسط دخل الأسر التى استفادت بالأرض الموزعة عليها من الملاك الإصلاح بين من ٢٧ جنيهاً فى السنة إلى ١٥٠ جنيهاً فى السنة ، وهذا أدى إلى رفع مستوى الحياة للملاك الجدد . من نتائج ذلك أيضا أن الاقطاع تراخت قبضته على الريف المصرى . بالإضافة إلى ذلك فإن التغييرات العميقة فى المجتمع المصرى قد نهت أيضاً تأثير الاقطاع فى العاصمة . فسلطة الحكم فى مصر كانت فى السنوات التى تلت ثورة عام ١٩١٩ إلى ما قبل ثورة عام ١٩٥٢ قد استقرت بصفة دائمة بين ١٦ أسرة مصرية من كبار ملاك الأراضى ، قدمت من أصولها أو فروعها غالبية الوزراء الذين تولوا مقاليد الحكم فى مصر خلال هذه الفترة .

٣ — القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم عملت الثورة على زيادة الانتاج على ألا يعمل ذلك على تعزيز المراقع الفعلية للراسمالية المتحكمة ولكن بقصد رفاهية الشعب . ولذلك تقيم الثورة وحدات إنتاج قوية يملكها الشعب ، وذلك نواة لقطاع عام ما لبث أن عزز نفسه بالسيطرة الكاملة على

رأس المـــال متمثلا فى البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية التى جرى تأميمها ونقلها إلى الملكية العامة ، ثم إتباعها بقرارات يوليو الاشتراكية (١٩٦١) التى ضمنت الملكية الجزء الأكبر من وسائل الانتاج خصوصا فى المجال الصناعى. ثم رسمت الثورة الحدود الواضحة للملكية العامة بما لا يسمح بالاستغلال مع منح المجال الواسع للنشاط الخاص . وبهذا يتهاوى الاقطاع التقليدى الذى أراد أن يتحول إلى المظهر العصرى للاستغلال الرأسمالى .

٤ ـ إقامة عدالة إجتماعيـــة . ومعاناة هذه التجربة قد دلت على أن العدالة الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق إلا على دعامتين من الكفاية والعدل ، الكفاية بمعنى زيادة الانتاج والعدل بمعنى توزيع الدخل القومى توزيعاً عادلا . فيما يختص بمجالات الكفاية فهى كثيرة . منها الزراعة والصناعة والمواصلات والعلم .... الخ . كذلك من مجالات العدل القضاء على الاستغلال ؛ تعزيز حق العمل ، التعليم ، الصحة ، الخ ....

ففى مجال الزراعة بذلت جهود مضنية فى تطوير الزراعة رغم أن الزراعة بطبيعتها أصعب مجالات الانتاج إستجابة للجهد وأكثرها حاجة إلى الصبر والعناء . فنفذت مشروعات للصرف والرى قيمتها ١٢٥ مليون جنيه . وتم إستصلاح ٥٠٥ ألف فدان داخل الوادى بخلاف المساحة المستصلحة بالوادى الجديد وعلى الساحل الشمالى الغربى ووادى النطرون . وهناك السد العالى ـ معجزة الانسان فى العصر يجرى بناؤه (تمت المرحلة الأولى منه وتم تحويل مجرى النيل فى ١٥ مايو ١٩٦٤). وسوف يضيف السد العالى إلى الدخل القومى ٢٣٤ مليون جنيه سنوياً أى ما يقارب نصف الدخل القومى الذى كان لمصر قبل الثورة . وسوف يوفر إنتاجه مائة مليون جنيه من العملات الصعبة سنويا ، ويمد رقعة وادى النيل ٢ مليون فدان ويعطى طاقة من الكهرباء مقياسها ١٠ مليار كيلووات ساعة فى السنة. وفى

ميدان الصناعة تطور الانتاج فى السلع تطوراً كبيراً . وتم إنشاء ٧٥٠ مصنعاً جديداً . وهذا يعنى حدوث ثورة صناعية فى مصر سوف تتأكد بالخطة الخمسية الثانية للصناعة (١٩٦٥ — ١٩٧٠) التى ستتكلف ألف مليون جنيه .

وأما عن المواصلات ، فقد لعبت دورها فى خدمة الانتاج. فالقناة أممت وقامت الهيئة المصرية لقناة السويس بالنهوض بذلك المرفق حتى حقق نجاحا باهراً وأرباحا إضافية . فهى تصل بمشروعاتها إلى غاطس عمقه ٣٨ قدما . وتبلغ إيرادات القناة عام ١٩٦٣ أكثر من ضعف إيراداتها عام ١٩٥٥ . كذلك مجال الصرف على مرافق السكك الحديدية والتليفونات ومجال التقدم والنمو فيهما ملحوظ . ويبلغ ما صرف على السكك الحديدية من عام ١٩٥٧ حتى أوائل عام ١٩٦٤ مائة مليون جنيه . وزادت طاقتها على نقل البضائع فى السنة من ٦ ملايين طن إلى ١٢ مليون طن . وزادت طاقتها على نقل الركاب من ٨٥ مليون راكب فى السنة إلى ١٥٠ مليون راكب . وفى مجال العلم بذلت الجهود للتقدم فى ميادين أبحاث الصناعة والأبحاث الطبية والطاقة الذرية ، ويتجه الاهتمام كذلك للفضاء . وبلغ الاستثمار الكلى فى المشروعات العلمية ٥٨ مليون جنيه .

هذا بعض ما يختص بمجالات الكفاية . أما فى مجالات العدل ، فقد كان القضاء على الاستغلال مقدمة طبيعية لعدالة التوزيع . فحولت هذه المقادير الضخمة من رأس المال إلى ملكية الشعب العامل وإلى خدمته . وفتحت السبل أمام الآلاف من الشباب المتعلم إلى مراكز القيادات فى وحدات الانتاج الضخمة ، الأمر الذى كانت الحواجز الطبقية تحول دونه فى الماضى . وزاد إجمالى الأجور بالنسبة للعمال ، وضمنت القوانين العمالية إطمئنان العامل على حاضره ومستقبله. والتعليم بكل مراحله لم يعد إمتيازاً بل أصبح حقاً مجانياً لكل مواطن من بداية مراحل التعليم حتى نهايتها . وبلغ ما صرف على التعليم العادى إلى ما قبل

مستوى الجامعات، ٥٤٠ مليون جنيه حتى عام ١٩٦٣ . أما ميدان الصحة فقد زادت ميزانية الصحة بنسبة ٣٤٠ ٪ عما كانت عليه سنة الثورة .

وفى كل هذه المجالات،كان جناح العدل يتصل بجناح الكفاية ليسمح للمجتمع المصرى الجديد أن يرتفع ويحلق.

٥ — إقامة جيش وطنى قوى . وقد تم بالفعل بناء هذا الجيش ، وصارت القوات المصرية فى البر والبحر والجو قادرة على حماية الأمن العربى والأمل العربى ، وقادرة على حفظ السلام ورد العدوان . وقد أتاحت تجربة اليمن ـ أشرف التجارب وأكرمها تضحية وفداء ـ للقوات المسلحة أن تختبر كفاءتها تحت ظروف قاسية . اختبرت قوتها على الحركة السريعة إلى الميدان وسلامة خطوط مواصلاتها، وتحملها للحياة تحت أصعب الظروف، وأدى الجيش المصرى واجبه على أتم ما يكون .

٦ — إقامة حياة ديمقراطية سليمة . نلاحظ أن كل المبادىء السابقة إنما كانت تعمل على تحقيق هذا المبدأ الأخير والتمهيد له . وكانت هناك تجارب فى الديمقراطية تتمشى مع تطور مرحلة التحول العظيم وتساير خطاها ، حتى جاءت قوانين يوليو الاشتراكية وأسقطت نهائياً تحالف الإقطاع ورأس المال وعزلته عن قوى الشعب العاملة . ثم تكون الاتحاد الاشتراكى العربى ليسلح القوى العاملة بالوعى العميق بوحدة الديمقراطية من الناحيتين السياسية والاجتماعية

إلى الانطلاق العظيم

شهد عام ١٩٦٤ بداية الطريق إلى مرحلة الانطلاق العظيم . وأحداث هذه الفترة ، بالإضافة إلى مسئولياتنا إزاء المرحلة القادمة ، تظهر أن هذه المرحلة

التى نمر بها الآن هى من أهم مراحل النضال المصرى وأكثرها خطورة . وهناك مسائل يجب أن نضعها فى الاعتبار عندما ننظر قدما إلى مرحلة الانطلاق ، التى تبدأ - فيما يتعلق بميدان العمـــل الداخلى — عام ١٩٧٠ حينما يتم التحويل الاشتراكى ، ويتم إنتـاج الصناعات الثقيلة . وهى مسائل بمثابة تحديات من جانبنا نفرض بها حقنا فى الحياة ، وتحديات من الخارج لعرقلة الدفع الثورى .

أولا : التحويل الاشتراكى . وقد حدد الميثاق بشكل عام الأهداف التى نحققها فى التحويل الاشتراكى لهذه المرحلة . ونحن الآن نمر بمرحلة انتقال بين الرأسمالية والاشتراكية، وإكمال التحويل الاشتراكى هو أهم أعباء هذه المرحلة. وقد حققت الاشتراكية حتى الآن الحرية بالنسبة للمواطن . وتم نقل معظم وسائل الإنتاج إلى ملكية الشعب ووضعت تحت سيطرة الشعب . كذلك وضعت الاشتراكية الطبقات العاملة باختلاف فئاتها موضع القيادة سواء فى التنظيم الشعبى أم فى وحدات الإنتاج ، وأحلت تحالف قوى الشعب العامل فى الاتحاد الاشتراكى العربى محل تحالف الرجعية والرأسمالية المستغلة .

وقد ناقش رئيس الجمهورية هذا الأمر مع مجلس الأمة ، الذى يكون الهيئة البرلمانية للاتحاد الاشتراكى العربى فى نفس الوقت ، ووضع النقاط على الحروف وبين بإيجاز ووضـوح أن اشتراكيتنـا هى الحل الحتمى لمشاكلنا الاجتماعية، وأنها لا تعنى أن الناس كلهم متساوون تساوياً مطلقاً فى كل شىء دون تحفظ ، ولـكنها بكل بساطة تمنع وجود طبقة من الأسياد وأخرى من العبيد ، وتمنع وجود طبقات على الإطلاق ، وتحض على الجهد والعمل حتى يكافأ كل بقدر عمله وقدر جهده .

وبين الرئيس أن مرحلة الانطلاق ما هى إلا مرحلة ثورة جديدة ، وأن مجلس الأمة هو مجلس ثورة ، عليه واجبات والتزامات فى عهد لم يعد يوجد فيه أحد يدعى أنه فوق المسئولية وفوق الحساب . فمسئولية الرقابة والحساب تقع على عاتق مجلس الأمة لا سيا فيما يتعلق بالحكومة وأجهزتها والقطاع العام ، وكذلك فى حقل التوعية القومية على أوسع نطاق . كذلك تقع على عاتق المجلس والاتحاد الاشتراكى مسئولية التعرف إلى مشكلات الجماهير ، لأن من لا يستطيع معرفة المشاكل ليوجد لها حلا، لا يستطيع أن يقود .

وفى هذه المرحلة لابد من تنظيم سياسى للاتحاد الاشتراكى ، فهذا مما يبحث فيه بقوة أكبر . وذلك يتطلب إعداد قادة من وسط الاتحاد الاشتراكى الم قادة قادرين على أن يناقشوا مناقشة قائمة على الدرس العميق ، ومثقفين عقائدية ، وقادة يفكرون ويرسمون السياسة . كل ذلك يعمل على إرساء ا وبناء الأمة وحمل الرسالة لأجيال قادمة . وهذا من الصعوبة بمكان (١) .

ثانيا : الصناعات الثقيلة . لاشــــك أن خطتنا للتنمية خطة طموحة . وقد وضعنا نصب أعيننا بنـاء قاعدة الصناعة الثقيلة فى المرحلة القادمة التى تنتهى د ١٩٧٠ . فهذه الصناعة ، إلى جانب إكمال السد العالى الذى سيتيح إصلاح الأرض وتطوير الزراعه وتوفير الكهرباء ، توصلنا إلى مرحلة تستطيع فيها قوانا الذاتية أن تحمل خطط تقدمنا . وسوف يتم ذلك فى الخطة الخمسية الثانية التى تبدأ من يوليو ١٩٦٥ وتنتهى عام ١٩٧٠ ، وحينئذ تكون مرحلة الخطر ، كما يقول

---

(١) أنظر مناقشة الرئيس مع مجلس الأمة ــ الاهرام ١٧ مارس ١٩٦٥

الرئيس ، قد مرت . ولكن هذا لا يعني أننا سنكتفي بهذا القدر من التنمية . فسوف نواصل العمل لأنه هو السبيل إلى التقدم ، وهذا يضاعف الأجور مرات ويحل مشاكلنا الداخلية .

ثالثا : التحدي الإسرائيلي — الاستعماري . يجب أن نضع في الحسبان أن إسرائيل تبغض كثيراً كل ما نقوم به من أجل التقدم . فالتقدم بالنسبة لنا يقرب من نهاية هذا الخطر المقيم في قلب العالم العربي . وإسرائيل صارت تعني احتمال عدوان وتوقع شر في كل وقت . فيجب أن نكون على استعداد دائماً لذلك . والمسألة لا تتعلق بإسرائيل وحدها وإلا هان أمرها ، ولكنها متعلقة أيضاً بالقوى التي تساند إسرائيل . فالدول الاستعمارية تساندها وتشن الحملات ضدنا في كل خطوة فهم لا يريدون لنا التقدم ولهذا يتحدونا ، مع إسرائيل ، سياسياً واقتصادياً وعسكرياً .

رابعا : بناء الوحدة العربية . ويرتبط بهذا الأمر معركة التحدي الاسرائيلي — الاستعماري . فالعمل العربي الجماعي خطر على إسرائيل ويهدد المصالح التي تدعيها الدول الاستعمارية في منطقة الشرق الأوسط . ولكننا نعمل على بناء الوحدة العربية وسوف يتم هذا البناء لأنه نتيجة إجماع الشعوب العربية على ذلك واقتناعها به من ناحية ، ولأن هذا البناء هو النتيجة الحتمية للتطور التاريخي من ناحية أخرى(١) .

خامسا : مستقبل أفريقيا . وهذا الأمر مرتبط بالناحيتين السابقتين من

---

(١) أنظر حديث الرئيس عن هذه التحديات . صحيفة الاهرام ١٠ مارس ١٩٦٥

جانب ، ومرتبط بنا بحكم كون بلادنا قطعة من أفريقيا . وقد زاد نشاط مصر في المجال الأفريقي وأسهمت الجمهورية العربية في حركة التعمير في بعض البلاد الأفريقية المستقلة حديثاً مثل مالي وغينيا . ويجب أن نضع في الاعتبار مسئوليتنا إزاء القارة وشعوبها والحيلولة دون تسلل الاستعمار والنفوذ الصهيوني إليها .

عهود الرئيس ومسئوليات الشعب

وقبيل انتهاء مــــدة رئاسة الجمهورية (٢٦ مارس ١٩٦٥) يستعد مجلس الأمة ، حسب نصوص دستور مارس ١٩٦٤ المؤقت ، لترشيح الرئيس الجديد للجمهورية . وانهالت الرغبات من فئات الأمة وأفرادها على رئيس المجلس بمجددة البيعة للرئيس جمــــال عبد الناصر ومطالبه بإعادة ترشيحه رئيسا للجمهورية . وسارت المظاهرات الشعبية الصاخبة إلى مجلس الأمة تطالب بنفس الأمر . وإزاء هذا الإجماع يرشح مجلس الأمة الرئيس الحالي ، جمال عبد الناصر ، للرئاسة ، توطئة لعرض الأمر على الشعب لإبداء رأيه في إستفتاء عام .

وقبل الرئيس جمــــال عبد الناصر هذا الترشيح ، ولكنه يقطع على نفسه عهوداً خمسة ، يعمل على تحقيقها ، وهي عهود تعتبر بمثابة شروط لقبوله رئاسة الجمهورية ، على الشعب أيضا أن يوافق عليها ويتعهد بتنفيذها بحمــــاس وأمانة وإخلاص في حالة موافقته على ذلك الترشيح في الإستفتاء العام (١٥ مارس ١٩٦٥) . هذه العهود تهدف إلى تمهيد الطريق لجيل جديد يقود الثورة في جميــــع مجالاتها السياسية والاقتصادية والفكرية ، وإعتبار هـذا الأمر هو المهمة الأساسية التي

يجب أن نضمها لصب أعيلنا فى المرحلة القادمة . وهى تهدف إلى ترويض النفس على أن هناك تضحيات أخرى ما زالت فى انتظارنا وترمى إلى التمكين لقيم المجتمع الاشتراكى من أن تستقر وترسخ . وهى تذكرنا بأنه يجب أن نعرف واجبنا إزاء الأمة العربية كلها ويجب أن نقبل هذا الواجب ، وأنه على الشعب المصرى فى تلك المرحلة أن يحمل النصيب الأوفى من هذه المسئولية العربية .

من مراجع البحث

احمد امين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث . القاهرة ١٩٤٨

احمد عرابي الحسيني المصري : كشف الستار عن سر الأسرار ـ فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية . حـ ١ . مطبعة مصر

احمد فريد على ، دكتور : كفاح الشباب وظهور جمال عبد الناصر

اوسكين تشايلدرز : الطريق إلى السويس . تعريب خيرى حماد . القاهرة ١٩٦٢

انور السادات :

- صفحات مجهولة . القاهرة ١٩٥٤
- قصة الثورة كاملة

بطرس بطرس غالى ، دكتور:

- دراسات فى السياسة الدولية . القاهرة ١٩٦٤
- منظمة الوحدة الأفريقية . القاهرة ١٩٦٤

جمال عبدالناصر ، الرئيس : (خطب وأحاديث ومقالات منشورة فى مصادر مختلفة . . .)

جورج فوشيه : جمال عبد الناصر فى طريق الثورة . بيروت ١٩٦٠

حسن صبحى، دكتور : التنافس الاستعمارى الأوروبى فى المغرب (١٨٨٤ — ١٩٠٤) . الاسكندرية ١٩٦٥

رابطة الجنوب العربى ، مكتب القاهرة : الجنوب العربى فى هيئة الأمم . القاهرة ١٩٦٣

راشد البراوى ، دكتور : الصومال الكبير ـ حقيقة وهدف . القاهرة ١٩٦١

عبد الرحمن الرافعى
- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر . جـ ١ ، جـ ٢
القاهرة ١٩٤٨
- عصر محمد على . القاهرة ١٩٤٧
- عصر اسماعيل . جـ ٢ . القاهرة ١٩٣٢
- الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى . القاهرة ١٩٤٩
- مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال . القاهرة ١٩٤٨
- مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية . القاهرة ١٩٤٥
- محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية . القاهرة ١٩٤٨
- ثورة سنة ١٩١٩ (جزآن). القاهرة ١٩٥٥
- فى أعقاب الثـــورة المصرية . جـ ١ (١٩٥٩) ، جـ ٢ (١٩٤٩) ،
جـ ٣ (١٩٥١)
- مقدمات ثورة ٢٣ يوليو . القاهرة ١٩٥٧
- ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . القاهرة ١٩٥٩

عبد القادر حاتم (واخرون) : هذه الأحلاف

عبد الملك عوده ، دكتور : السياسة والحكم فى أفريقيا . القاهرة ١٩٥٩

عبد المنعم شميس : الثورة العربية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٣

على الحديدى ، دكتور : عبد الله النديم . القاهرة ١٩٦٢

على صبرى : التطبيق الاشتراكى فى مصر . القاهرة ١٩٦٤

عزه النص ، دكتور : الوطن العربى ـ الاتجاه السياسى والملامح الاقتصادية .
دمشق ١٩٥٩

فتحى رضوان : مصطفى كامل . القاهرة ١٩٤٦

ماهر حسن فهمى ، دكتور : قاسم أمين . القاهرة ١٩٦٣

محمد انيس ، دكتور : صفحات مطوية من حياة الزعيم مصطفى كامل . القاهرة ١٩٦٢

محمد انيس ، دكتور (وآخرون) : العدوان الثلاثى على مصر . القاهرة ١٩٥٦

محمد حسين هيكل ، دكتور : مذكرات فى السياسة المصرية : جـ ١
(١٩١٢-١٩٣٧) القاهرة ١٩٥١ ، جـ ٢ (١٩٣٧-١٩٥٢) القاهرة ١٩٥٣

محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية (١٨٨٢-١٩٣٦).
القاهرة ١٩٥٢

محمد عبده ، مذكرات الامام

محمد فريد ابو حديد : السيد عمر مكرم . القاهرة ١٩٥١

محمد فؤاد شكرى ، دكتور : عبد الله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر .
القاهرة ١٩٥٢

محمد مصطفى صفوت ، دكتور

- الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه . القاهرة ١٩٥٢
- انجلترا وقناة السويس . القاهرة ١٩٥٦
- الجمهورية الحديثة . الاسكندرية ١٩٥٨
- مصر المعاصرة . القاهرة ١٩٥٩

مصلحة الاستعلامات ، كتب ونشرات

الميثاق (قدمه الرئيس جمال عبد الناصر الى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية
فى مايو ١٩٦٢) .

مطبعة الشاعر

الجيزة ٣٠٥٦٥

ﻫ
٥٠

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل
فرع الاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول — ٢ ميدان التحرير (المنشية)